الفتوحات الإسلامية

تحرير أم تدمير؟

أ.د. محمد عمارة

اسم الكتاب: الفتوحات الإسلامية.. تحرير أم تدمير
التأليف: أ. د. محمد عمارة
موضوع الكتاب: فكر إسلامي
عدد الصفحات: 184
عدد الملازم: 11.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 17 x 24
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 16411 / 2016
الترقيم الدولي: 3 - 564 - 278 - 977 - 978

التوزيع والنشر

دار البشير
للثقافة والعلوم

darelbasheerealla@gmail.com
darelbasheer@hotmail.com
www.darelbasheer.com
01012355714 - 01152806533

١٤٣٨هـ
٢٠١٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتوى

الصفحة

لماذا هذا الكتاب؟ ٦
عندما دخلت مصر في دين الله ٩
فجر التوحيد والنبوات في مصر قبل الإسلام. ٩
مصر تحت القهر الديني والحضاري. ١٦
الفتح التحريري لمصر بالإسلام. ٢٠
فتح الإسكندرية. ٣٧
الإحياء الإسلامي لمصر.. والإحياء المصري للإسلام. ٤٣
الفصل الأول
طوفان الشبهات والافتراءات ٥٢
الفصل الثاني
العالم قبل الإسلام ٩٣
الفصل الثالث
مصر في عالم ما قبل الإسلام ١٠٣
الفصل الرابع
دين الفتوحات التحريرية ١٢٠
الفصل الخامس
التراتيب الإدارية والحريات الدينية في مصر الإسلامية ١٣٦
الفصل السادس
إسقاط الكسروية الفارسية ١٦٧
المصادر والمراجع ١٨٢

لماذا هذا الكتاب؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم والصلاة والسلام على النبي الأكرم، الذي بدأت رسالته بفريضة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ١﴾ فكانت التتويج للرسالات والنبوات التي بدأت يوم علم الله آدم الأسماء كلها..

وبعد

فمع أنوار فجر العام الهجري ١٤١٨هـ، وحلول ذكرى أربعة عشر قرناً على الفتح الإسلامي لمصر الذي بدأ بصلاة أول يوم عيد للأضحى على أرض «العريش» سنة ١٨هـ سنة ٦٣٩م تمنيت على أمتي ـ بمصر ـ وكل بقاع عالم الإسلام؛ أن تحتفل بهذه الذكرى.. ذكرى الفتح الذي دخلت به مصر في دين الله، وفي الشريعة الخاتمة المصدقة بكل الكتب، والوارثة لجميع الرسالات، والمهيمنة ـ بالإضافة والتصحيح ـ على سائر الشرائع الإلهية التي نزل بها الوحي الأمين على قلوب الأنبياء والمرسلين ـ عليهم صلوات الله أجمعين.

تمنيت أن تحتفل الأمة ـ كل الأمة ـ بهذه الذكرى؛ لأن هذا الفتح الإسلامي لمصر قد أحيا كنانة الله في أرضه، وأخرجها من قهر حضاري ـ إغريقي/ روماني/ بيزنطي ـ دام عشرة قرون، فأحيت الحضارة على امتداد الأمة وعبر تاريخها.

وتجسيدًا لهذه الأمنية قمت سنة ١٤١٨ بإلقاء عدد من المحاضرات حول الفتح الإسلامي لمصر، وأبعاده ودلالاته وآثاره ثم كتبت دراسة موجزة جعلت عنوانها: [عندما دخلت مصر في دين الله]، ونشرتها في عدد من الصحف السيارة ـ منها «الوفد» و«صوت الأزهر»، ثم أخرجتها في كتاب صغير[١].

وكان أملي، وكانت أمنيتي، أن تكون هذه المحاضرات وهذه الدراسة ـ عن الفتح الإسلامي لمصر ـ دعوة لتحتفل الأمة بهذه الذكرى احتفالاً كبيرًا، يمتد سنوات، تعقد فيها المؤتمرات والمهرجانات والفعاليات الثقافية والعلمية والدينية؛ التي تمثل دفعة في ميادين الإحياء الحضاري، الذي تحتاجه الأمة؛ كي تواجه التحديات الشرسة التي تسعى كي تقطع عليها طريق التقدم والتحرر والنهوض.

(١) نهضة مصر ـ سلسلة «في التنوير الإسلامي» سنة ١٩٩٧م.

لكن الذي حدث ـ يومئذ ـ كان مفاجئًا لي بل ومذهلًا، ليس لأن هذه الدعوة لم تجد سميعًا ولا ملبيًا، وإنما لكم الهجمات والافتراءات والشبهات التي انهالت على الفتح الإسلامي لمصر، والتي تمثلت في كتب صدرت، ومقالات كتبت، تشكك في الهوية الإسلامية لمصر، حتى لتعتبر هذا الفتح الإسلامي نكبة مثلت التدمير لهذا البلد الأمين!!.

ومع أني قد كتبت كثيرًا في الدفاع عن الهوية الإسلامية العربية لمصر، وخضت الكثير من المعارك الفكرية ضد النزعات الطائفية والعنصرية التي عمل أصحابها على انتزاع مصر من هويتها العربية الإسلامية، فلقد ظل القيام بعمل فكري يبدد شبهات الأكاذيب التي انتشرت ضد الفتح الإسلامي لمصر، وضد هويتها العربية الإسلامية. ظل القيام بإنجاز هذا العمل الفكري في مقدمة مفردات المشروع الفكري الذي وهبته ما وهبني الله من حياة وجهد واجتهاد.

صحيح أن التوفيق الإلهي قد جعل هذا الفن من فنون التأليف ـ عن الحقائق والشبهات ـ معلمًا من معالم المشروع الفكري الذي توفرت على إخراجه فتوالت كتبي:

١ - [حقائق وشبهات حول القرآن الكريم].

٢ - [حقائق وشبهات حول السنة النبوية].

٣ - [حقائق وشبهات حول معنى النسخ في القرآن الكريم].

٤ ـ [حقائق وشبهات حول السماحة الإسلامية وحقوق الإنسان].

٥ ـ [حقائق وشبهات حول مكانة المرأة في الإسلام].

٦ ـ [حقائق وشبهات حول الحرب الدينية والجهاد والقتال والإرهاب].

٧ ـ [حقائق وشبهات حول السنة والشيعة].

٨ ـ [حقائق وشبهات حول الوطنية والقومية والجامعة الإسلامية[١]].

إلا أن إبراز حقائق الفتح الإسلامي لمصر، وتبديد الشبهات التي فاضت أمواجها حول هذا الحدث التاريخي والحضاري ظل الواجب الذي ينتظر الأداء، والمهمة التي تحفز العقل على تهيئة أسباب الإنجاز.

(١) انظرها في طبعة دار السلام القاهرة.

ولأني أريد لهذا العمل الفكري أن يكون حاسماً للجدل الذي دار حول هذا الحدث، فلقد قضيت سنوات أغوص في المصادر الأصلية، والمراجع المعتبرة التي تناولت الفتح الإسلامي لمصر- عربية وغير عربية- وأعايش الكتابات التي حاول أصحابها إهالة ركام الشبهات والافتراءات على هذا الفتح؛ لتكون المادة الفكرية «شهادات» أهل الذكر حول هذا الموضوع، **وحتى يكون هذا الكتاب أشبه ما يكون «بالوثائق» التي تقدم الحقائق وتدحض الشبهات، أكثر من كونه وجهة نظر لكاتب منحاز للهوية العربية الإسلامية التي أثمرتها الفتوحات الإسلامية.. والتي نقلت الشرق والحضارة والثقافة والتاريخ إلى طور جديد.**

نعم تلك هي طبيعة هذا الكتاب الذي أقدم بين يديه.. «وثائق شاهدة» و«شهادات موثقة» على الفتح الإسلامي لمصر- الذي هو نموذج مجسد لفتوحات الإسلام، التي حررت الشرق من غزوة القهر الحضاري: الإغريقي/ الروماني/ البيزنطي؛ التي دامت عشرة قرون ومن الاستبداد العنصري والطبقي للكسروية الفارسية، التي نافست القيصرية الرومانية في استعباد الشرق وقهر الملكات والطاقات لشعوبه طوال تلك القرون.

ومع هذه «الحقائق الموثقة» وبها يكون التبديد «الموثق» للشبهات والافتراءات التي انهالت على هذا الإنجاز التاريخي العظيم.

تلك هي مهمة هذا الكتاب؛ الذي نمهد لفصوله بالدراسة التي كتبناها في ذكرى أربعة عشر قرنًا على الفتح الإسلامي لمصر سنة ١٤١٨هـ، والتي جعلنا عنوانها: [عندما دخلت مصر في دين الله].

عندما دخلت مصر في دين الله

فجر التوحيد والنبوات

في مصر قبل الإسلام

بآدم ـ عليه السلام ـ بدأت مسيرة الإنسان على هذا الكوكب الذي نعيش فيه؛ فهو أبو البشرية، الذي خلقه الله وسواه ونفخ فيه من روحه.

ولطفًا من الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بخلقه؛ اقترنت الرعاية الإلهية لهذا الإنسان بلحظات الخلق والاستخلاف والأمر والنهي والتكليف:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (البقرة: ٣٠ ـ ٣٣).

وبوحي الله لآدم ـ عليه السلام ـ بدأت النبوة والرسالة في المسيرة الإنسانية، مقترنة بلحظة استخلاف الله لهذا الإنسان، وتكليفه إياه.

وإذا كان آدم هو أبو البشر، وأول الأنبياء، وفاتحة المرسلين؛ فإن مشيئة الله قد اصطفت مصر ـ كنانة الله في أرضه ـ لتبدأ على أرضها هداية النبوة والرسالة منذ عصر وحياة آدم ـ عليه السلام ـ؛ ففي ربوعها كانت بعثة نبي الله إدريس ـ عليه السلام ـ الذي مثّل في سلسلة النبوة، ثالث الأنبياء، بعد آدم وشيث، والذي عاش وبعث في حياة آدم عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

وعن إدريس ونبوته تحدث القرآن الكريم فقال:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ (مريم: ٥٦ – ٥٧).

وعن ترتيبه وسبقه على درب النبوة والرسالة، ومن ثم سبق مصر على درب الاصطفاء هذا؛ يتحدث الذين كتبوا قصص الأنبياء فيقول الحافظ ابن كثير (٧٠١ ـ ٧٧٤هـ ١٣٠٢ ـ ١٣٧٣م) ـ (في البداية والنهاية) ـ عن إدريس، عليه السلام: «إنه كان أول بني آدم أعطي النبوة بعد جده آدم وبعد شيث، عليهما السلام».

وعن معاصرته لآدم، يقول ابن إسحاق (١٥١هـ ٧٦٨م): «إنه أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثمان سنين..»[1].

ومعنى ذلك، أن مصر قد دخلت في دين الله، وعرفت التوحيد، وحيًا إلهيًّا ـ لا وضعًا بشريًّا وإفرازًا إنسانيًّا ـ وتلقت علم النبوة، واحتضنت الرسالة السماوية منذ فجر الإنسانية، وفي حياة أبي البشر آدم ـ عليه السلام ـ.

بل إن ما بقي لنا من قصص نبي الله ورسول مصر إدريس ـ عليه السلام ـ ليوحي بأن هذا العمق الحضاري والسبق في التمدن، اللذين تميزت بهما مصر قبل سائر الحضارات؛ إنما كانت لهما عروة وثقى بعلم النبوة الذي جاءها به رسولها إدريس ـ عليه السلام ـ.

فمنذ فجر الإنسانية، تميزت الرسالة التي شرفت بها مصر، بعلوم: الحكمة، والتمدن، والسياسة المدنية، وعلوم الكون، الأرضية منها والسماوية، إلى جانب علوم الشرع والدين حتى ليتحدث الذين أرخوا للحكمة والحكماء ـ ومنهم القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (٥٦٨ ـ ٦٤٦هـ ١١٧٢ ـ ١٢٤٨م) – صاحب كتاب (تاريخ الحكماء) ـ وابن جلجل ـ داود بن حسان (بعد ٣٧٢ هـ ٩٨٢م) – صاحب كتاب (طبقات الأطباء والحكماء) ـ عن هذه الأبعاد العلمية والحضارية في رسالة رسول الله ونبي الله إدريس فيقولون: «إنه أقام ـ ومن معه ـ بمصر، يدعو الخلائق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله عز وجل ـ ورسم لهم تمدين المدن، وجمع له طالبي العلم بكل مدينة، فعرفهم السياسة المدنية، وقرر لهم قواعدها وعلمهم العلوم. وهو أول من استخرج الحكمة، وعلم النجوم، فإن الله عز وجل أفهمه أسرار الفلك وتركيبه، ونقط اجتماع الكواكب فيه، وأفهمه عدد السنين والحساب..»[2].

(١) الشيخ عبد الوهاب النجار (قصص الأنبياء) ص٢٤، طبعة بيروت ـ الثالثة ـ دار إحياء التراث العربي.

(٢) المصدر السابق ص٢٥، ٢٦ نقلًا عن (أخبار الحكماء) للقفطي.. وانظر كذلك (طبقات الأطباء والحكماء) لابن جلجل ص٥، ٦. تحقيق: فؤاد سيد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.

ففي مصر بدأت بواكير التوحيد في الألوهية، وحيًا سماويًّا، منذ عصر آدم ـ عليه السلام ـ وكما علّم الله آدم الأسماء كلها؛ أوحى ـ سبحانه وتعالى ـ إلى نبي مصر إدريس علوم الحكمة والتمدن والسياسة المدنية وحقائق العلوم الطبيعية، فعلّمها للمصريين؛ لتتواصل ومضات التوحيد الديني مع عبقرية العلوم الحضارية على أرض مصر، جيلًا بعد جيل ـ صعودًا تارة وهبوطًا تارة أخرى ـ منذ فجر الإنسانية وإلى أن دخل أهلها ـ بالفتح الإسلامي لأرضها ـ في دين الله أفواجًا، وذلك عندما اكتمل وتم دين الله الواحد بنبوة ورسالة وشريعة محمد بن عبد الله، عليه وعلى كل الأنبياء والرسل أفضل الصلاة وأزكى السلام.

***

وعبر هذا التاريخ المصري ـ الذي هو أطول وأعرق ما حفظت ذاكرة الإنسانية من التاريخ ـ ظلت ومضات التوحيد الديني في مصر شاهدة على انتماء المصريين إلى دين الله، ولقد تمثل ذلك فيمن زارها وعاش فيها من الأنبياء والمرسلين وفيمن ولد فيها ونشأ وبعث منهم ـ ممن قص الله علينا قصصهم في القرآن الكريم ـ وأيضًا في حكمائها، الذين جددوا الدعوة إلى التوحيد، ورفعوا راياته في مواجهة طوارئ الوثنية ـ والذين قد يكونون أنبياء ورسلًا ممن لم يرد ذكر لأسمائهم في القرآن الكريم:

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾﴾ (النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥).

فإلى مصر رحل إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وهو أبو الأنبياء ـ وكان ذلك في عصر الهكسوس (١٦٧٥ ـ ١٥٨٠ق.م)

ـ ومن بنات مصر ـ هاجر، عليها السلام ـ أنجب نبيَّ الله ورسوله إسماعيل، عليه السلام، الذي هو أبو العرب العدنانيين، فبمصر ارتبط أبو الأنبياء وأحد أولي العزم من الرسل والخليل الذي وصفه القرآن «بالصديق» ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١﴾ (مريم: ٤١) ورفع لواء التوحيد في مواجهة الشرك وعبادة الأصنام.

وإلى مصر جاء يوسف ـ عليه السلام ـ وفيها أوحي إليه ربه، وبها بلغ الرسالة وعمل وساس وأصلح وكان ذلك على عهد الأسرة الخامسة عشرة ـ التي يبدأ حكمها سنة ١٦٧٥ ق.م.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ (يوسف: ٤٦ ـ ٤٩) ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ (يوسف: ٥٤ ـ ٥٦).

وباستدعاء من يوسف، جاء إلى مصر وعاش فيها، وعَبَد الله ودعا إليه نبي الله يعقوب، وعدد من بنيه.

وفي مصر ارتفعت دعوة التوحيد في مناجاة «أمنحتب الثالث» (١٣٩٧ ـ ١٣٦٠ ق.م) لله الواحد الأحد:

(أيها الموجد دون أن توجَد،
مصوِّر دونَ أن تُصوَّر، هادي الملايين إلى السبل،
الخالد في آثاره التي لا يحيط بها حصر).

وفي رسالة التوحيد التي دعا إليها «أمنحتب الرابع.. إخناتون (١٣٧٠ ـ ١٣٤٩ ق.م) ـ:

(أنت إله، يا أوحد، ولا شبيه لك.
لقد خلقت الأرض حسبما تهوى، أنت وحدك.
خلقتها ولا شريك لك
أنت خالق الجرثومة في المرأة.
والذي يذرأ من البذرة أناسًا.
وجاعل الولد يعيش في بطن أمه،
مهدئًا إياه حتى لا يبكي،
ومرضعًا إياه حتى في الرحم.
وأنت معطي النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقته،
حينما ينزل من الرحم في يوم ولادته،
وأنت تفتح فمه تمامًا،
وتمنحه ضروريات الحياة.)

● وعند رمسيس الثاني (١٢٩٠ ـ ١٢٢٣ ق.م) ـ الذي أخذ العلم والحكمة والأخلاق من تراث نبي الله إدريس، عليه السلام.

● وفي مصر ولد ونشأ وتعلم نبي الله موسى وأخوه هارون، عليهما السلام وأوحى الله إليهم، وأنزل عليهم التوراة والألواح ـ (حوالي ١٢٠٠ ق.م) ـ بالهيروغليفية.. لغة المصريين ـ فجابهت حرية التوحيد عبودية الفرعونية على ضفاف وادي النيل؛

● ليتجدد ويسطع إشعاع التوحيد عند رمسيس الثالث ـ الأكبر ـ (١١٩٢ ـ ١١٦٠ ق.م)، الذي قال ـ عندما احتدم القتال بينه وبين الوثنيين في معركة «قادش» ـ:

(رأيت الله في المعركة.
كان أقرب إليّ من جنودي.
هو الذي نصرني).

● حتى لقد غدت شريعة السماء وعقيدة التوحيد روحًا سارية في الثقافة المصرية، تغالب «غبش الشرك والوثنية» عبر التاريخ المصري الطويل، فتعكسها وتجسدها شهادة المصري، يوم الحساب، بين يدي الواحد الأحد ـ كما جاء في (متون الأهرام) ـ:

(أنا لم أشرك بالإله.
أنا لم أعقّ والديّ.
أنا لم ألوث ماء النيل.
أنا لم أصد الماء في موسم جريانه،
ولم أقم سدًّا في مجراه.
أنا لم أنقص القياس.
ولم أطفف الميزان.
أنا لم أطرد الماشية من مراعيها.
أنا لم أتسبب في بكاء أحد.
أنا لم أحرم إنسانًا من حق له.
أنا لم أختطف اللبن من فم الرضيع.
أنا لم أطفئ شعلة في وقت الحاجة إليها.
أنا لم أعترض على إرادة الله..)

● وإلى مصر، لجأ المسيح عيسى ابن مريم، مع أمه ـ سيدة نساء العالمين ـ طلبًا للأمن، ونجاة من طلب «هيرودس» (٤ ق.م ـ ٣٩م) ـ الذي أراد أن يقتله ـ وفي مصر، وعلى إحدى رباها، وجدوا الأمن والقرار ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ (المؤمنون: ٥٠).

وعندما جدد المسيح رسالة التوحيد، وأعاد الروح إلى الشريعة ـ بعد أن تحول التوحيد إلى «وثنية.. ومادية» على يد اليهود ـ احتضنت مصر على الفور دين التوحيد، الذي بشر به عيسى عليه السلام.

● فلما انحرفت الدولة البيزنطية ـ والمجامع التي انعقدت في المدن البيزنطية ـ «مجمع نيقية سنة ٣٢٥» و«مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١» بتوحيد النصرانية إلى «التثليث»؛ خاضت مصر معركة الدفاع عن التوحيد وذلك عندما رفعت «الأريوسية» نسبة إلى «آريوس» ـ أسقف الإسكندرية (٢٥٦ ـ ٣٣٦م) ـ رفعت لواء التوحيد في الألوهية، وذلك عندما تمسكت **بأن الله جوهر أزلي أحد، لم يلد**

ولم يولد، وكل ما سواه مخلوق، حتى «الكلمة» فإنها، كغيرها من المخلوقات، مخلوقة من لا شيء. وأن المسيح لم يكن قبل أن يولد وأن الله قد نجاه من الصلب ـ الذي وقع على الشبيه ـ.

ولقد حفظت مصر كل هذا الفكر التوحيدي، حتى بعد أن طغت عقائد قانون الإيمان البيزنطي على أغلب كنائس النصرانية، فضمت «مخطوطات نجع حمادي» ـ التي اكتشفت سنة ١٩٤٧م ـ أقدم الأناجيل التي حفظت نقاء التوحيد النصراني ـ «إنجيل توماس» و«إنجيل مريم المجدلية» و«إنجيل فيليب» و«إنجيل بطرس» و«إنجيل المصريين» ـ وغيرها ـ وفيها ثلاثة وخمسون نصًّا، تقع في ١١٥٣ صفحة، جمعت في ثلاثة عشر مجلدًا تجسد شهادة التاريخ على ولاء المصريين لعقيدة التوحيد، كما مثلتها النبوات والرسالات السماوية التي تعاقبت على ضفاف النيل.

وإذا كانت هذه الأناجيل قد نجت من الدمار الذي أصاب به البيزنطيون تراث التوحيد النصراني، عندما أحرقوا مكتبة معبد «سرابيوم» ـ بالإسكندرية ـ وغالبية مخطوطات مكتبة الإسكندرية، وأغلقوا أبوابها، بعد قتل آخر عميد لها؛ فإن بقاء هذه الأناجيل ـ التي سبق تاريخ تدوينها تاريخ تدوين الأناجيل المشهورة ـ متى، ومرقص، ولوقا، ويوحنا ـ بعشرين عامًا ـ قد فتح الباب لإعادة كتابة هذا التاريخ، الذي يتميز فيه دور مصر ـ صاحبة أول كنيسة نصرانية ـ على درب التوحيد الديني، منذ عصر آدم ـ ونبي مصر إدريس ـ وحتى رسالة المسيح، عليهم جميعًا الصلاة والسلام[١].

(١) انظر في حقائق هذا التاريخ الديني لمصر: (قصص الأنبياء) ص٨٤ ـ ٩٢، ١٢٠ ـ ١٤٤، ١٥٥ـ ٣٠٢، ٣٨٦. ورفاعة الطهطاوي (الأعمال الكاملة) جـ٣ ص٨٠. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م. ود. عبد المنعم أبو بكر (إخناتون) ص ٩٧، ٩٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٦١م. ود. فؤاد حسنين علي (التوراة الهيروغليفية) طبعة القاهرة دار الكتاب العربي. وفؤاد أفرام البستاني (دائرة المعارف) المجلد الأول. طبعة بيروت سنة ١٩٥٦م ود. نعمات أحمد فؤاد، صحيفة (الأهرام) في ٣٠/ ١٠/ ١٩٩٦م. و(الموسوعة الأثرية العالمية) ـ إشراف ليونارد كوتريل ـ ترجمة: د. محمد عبد القادر محمد، د. زكي إسكندر. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م. ود. أحمد عثمان «مخطوطات نجع حمادي ـ أضواء جديدة على تاريخ المسيحية» مجلة (الهلال) عدد يونيه سنة ١٩٩٥م.

مصر تحت القهر الديني والحضاري

على امتداد نحو ألف سنة ـ ما بين غزو الإسكندر الأكبر (٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق.م) لمصر (٣٣٢ ق.م) والفتح الإسلامي لها (٢٠هـ ـ ٦٤٠م) ـ تعرضت مصر لمحنة عظمى وقهر شديد شمل جميع ميادين الدنيا والدين!.

● فعاصمتها «منف» التي كانت رمزًا لوحدتها واستقلالها وعزتها، منذ أن بناها الملك «مينا» (الألف الرابع قبل الميلاد) ـ بعد صراع مع الطبيعة حولت فيه مصر مجرى النيل العظيم، قبل الميلاد بنحو ٣٤٠٠ عام. هذه العاصمة ـ التي ارتبطت بهوية مصر، ورمزت لاستقلالها ـ أهملها الغزاة الإغريق.. وبنى الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندرية سنة ٣٣٢ ق.م؛ لتكون العاصمة الأجنبية الاستعمارية لمصر المستعمرة!. ولقد سار الإغريق في هذا الأمر على درب الغزاة الهكسوس (١٦٧٥ ـ ١٥٨٠ ق.م) الذين اتخذوا لاستعمارهم عاصمة ترمز للاحتلال والاغتصاب ـ هي مدينة «أورايس» ـ وأهملوا العاصمة الوطنية لمصر والمصريين.

● والحضارة المصرية القديمة، ذات الطابع الشرقي، التي جمعت ما بين الدين والدنيا، وزاوجت بين العلوم النظرية والعملية، وآخت بين تمدن الواقع وتهذيب النفس، وقدست العمل اليدوي والذهني جميعًا، وعرفت «دين ـ الحكمة» و«الحكمة ـ المتدينة» منذ نبوة إدريس ـ عليه السلام ـ في فجر الإنسانية؛ هذه الحضارة قهرتها وطوت صفحتها الحضارة الإغريقية، في صورتها الهيلينية، تلك التي افتقدت ذلك التوازن الذي تميزت به الحضارة المصرية الشرقية.

● واللغة المصرية، تلك التي ارتفعت عن أن تكون مجرد أداة تعبير وتخاطب، وذاكرة الأمة، والحافظة لتراثها الأغنى، ارتفعت إلى حيث تقدّست ـ في إحدى صورها ـ عندما ارتبطت بالدين وكهنته وعلمائه. هذه اللغة المصرية زاحمتها اللغة اليونانية الغازية فطردتها من الساحة، حتى غدت عملة ليس لها رواج، فطويت صفحة أبجديتها الخاصة لحساب الأبجدية اليونانية، واضطر

«الكتبة المصريون، منذ حكم الملوك البطالمة الإغريق؛ إلى استعمال الحروف اليونانية لكتابة لغتهم المصرية ولم يبق من حروف اللغة المصرية إلا سبعة أحرف لم يجدوا لها نظيرًا في الأحرف اليونانية» بل وتجاوزت الهزيمة ميدان الحروف إلى ميادين القواعد والكلمات والمصطلحات![1].

● والدين، الذي هو أعز ما يُطلب، وأغلى ما يُمْلَك، وأعظم نعم الله على الإنسان والذي ارتبط، في مصر، بفجر الإنسانية، وعراقة الحضارة ـ منذ عصر آدم عليه السلام، في رسالة إدريس عليه السلام ـ هذا الدين، الذي استمرت إشعاعات وومضات التوحيد فيه مضيئة ومتواصلة، تغالب غبش الوثنية وعدوان الشرك على مر تاريخ المصريين، والذي جعل المصريين، بقيادة «جماعة العارفين» من أسبق الشعوب إلى احتضان النصرانية في صورتها النقية التوحيدية. هذا الدين قد تعرض إلى القهر البيزنطي الذي سالت فيه الدماء أنهارًا، حدث ذلك عندما كان الرومان المستعمرون لمصر وثنيين، حتى لقد أصبح هذا القهر الوثني للنصرانية المصرية «إبادة» قادها الإمبراطور الروماني «دقلديانوس» (٢٨٤ ـ ٣٥٠م)، الذي أرخ المصريون بعهده عندما أطلقوا عليه «عصر الشهداء»!.

بل إن هذا القهر الديني، الذي مارسه البيزنطيون ضد النصرانية المصرية، لم يتوقف باعتناقهم للنصرانية ـ التي يتدين بها المصريون ـ فلقد طوعوا النصرانية لحضارتهم الإغريقية فاختلفت «نصرانية بولس» عن «نصرانية المسيح»!. وبعبارة إمام المعتزلة قاضي القضاء عبد الجبار بن أحمد الهمداني (٤١٥هـ ـ ١٠٢٤): «فإن النصرانية عندما دخلت روما لم تتنصّر روما، ولكن النصرانية هي التي تروَّمت»!.

فاستمر اضطهاد كنائس روما والمجامع البيزنطية ـ التي استبدلت التثليث بالتوحيد النصراني ـ استمر اضطهادها للنصرانية المصرية الموحدة، حتى اضطر المصريون إلى دفن أناجيل التوحيد ـ داخل «زلعة» ـ في مقابرهم «بنجع حمادي»!.

وحتى بعد أن قبلت الكنيسة المصرية وتبنت التثليث ـ الذي فرضه قانون الإيمان البيزنطي على كل الكنائس، منذ مجمع

(١) د. أحمد عثمان. مجلة (الهلال) عدد يونيه سنة ١٩٩٥

القسطنطينية سنة ٣٨١م ـ ظلت المقاومة المصرية لمذهب بيزنطة ملحوظة، تثير حقد البيزنطيين؛ فلقد ذهبت الكنيسة المصرية مذهبًا متميزًا في طبيعة المسيح، وجعلت التراث المصري القديم ـ في قصة إيزيس وحورس وأوزوريس ـ منطلقًا لتميزها في التثليث، واتخذت من «مفتاح الحياة» ـ المصري القديم ـ رمزًا يشبه الصليب، لكنه ليس هو في صورته البيزنطية! وبنت كنائسها وفق المعمار الفرعوني، لا البيزنطي. ووظفت هذا التمايز في النسق القومي المتميز والمقاوم للقهر الحضاري والقومي والديني الذي يمارسه البيزنطيون إزاء المصريين. الأمر الذي أدام الاضطهاد البيزنطي لمصر والمصريين في ظل «الجامع النصراني» كما كان حاله في «ظل التمايز الوثني ـ النصراني»!.. فسار الإمبراطور الروماني «جستنيان الأول» (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) على درب «دقلديانوس»، فقتل ٢٠٠,٠٠٠ قبطيًّا في الإسكندرية وحدها، ومن نجا من القتل هرب إلى الصحراء **حتى لقد انسحبت النصرانية المصرية من الحياة المدنية إلى المغارات والكهوف في مفازات الصحاري المصرية، مخلفة حتى كنائسها التي اغتصبها البيزنطيون!. الأمر الذي جعل مصر ـ الوطن والدولة والسيادة واللغة والدين والحضارة ـ عندما ظهر الإسلام (سنة ٦١٠م) «فراغًا حضاريًّا» بل «مواتًا حضاريًّا» ـ إذا جاز التعبير ـ قد قهر الرومان فيها أغلب سمات وقسمات «الانتماء» التي ميزت المصريين عبر تاريخهم العريق فكان هذا «الفراغ الحضاري» هو العامل الأول والسر الأعظم وراء انخراط مصر في الدولة الإسلامية، ثم في الدين الإسلامي واللغة العربية، والحضارة الإسلامية على نحو من العمق والشمول نادر الحدوث في غيرها من الأقطار التي فتحها الإسلام.**

فلم تقف مصر الإسلامية عند حدود الانتماء للإسلام كدين ودولة، وإنما تبوأت مكانتها الريادية، حتى لكأنها هي صاحبة هذا الدين، والأمينة عليه، والحارسة له فكانت دولتها هي الحامية لدولة الإسلام وكانت عربيتها ـ حتى في لهجتها العامية ـ الأقرب إلى لغة

القرآن، وكان اعتدالها في التدين هو الأقرب إلى وسطية الإسلام وكان إبداعها المتميز في مختلف العلوم الإسلامية، الشرعية منها والمدنية، آية على أنها قد «عاشت» الإسلام، واتخذته «رسالتها»، دينًا ودولة، ولغة وثقافة، وعلماً وحضارة، وقومية وعزة، بكل ما يعنيه ذلك في سائر ميادين العلم والعمل والإبداع والانتماء. لقد جاءها الإسلام وهي «فراغ وموات حضاري»، فملأ الإسلام هذا الفراغ وأحيى هذا الموات.

وبذلك ولذلك استعادت مصر الإسلامية «عافيتها الحضارية»، عندما دخلت في الإسلام، الذي هو تمام الدين الإلهي الواحد، الذي عرفته وانتمت إليه منذ فجر الإنسانية، عندما استجابت إلى دعوة نبي الله ورسوله إدريس ـ عليه السلام ـ.

لقد وجدت في شريعة محمد ﷺ كمال واكتمال توحيد إدريس ـ ومن سار على دربه من أنبيائها وحكمائها ـ ووجدت في دولة الإسلام التحرير من قهر الرومان البيزنطيين.

الفتح التحريري لمصر بالإسلام

ظهر الإسلام (سنة ٦١٠) والشرق واقع في قبضة الاستعمار والهيمنة اللتين مارستهما قوى نظام عالم ذلك التاريخ: الفرس الساسانيون، والروم البيزنطيون.

● فالفرس فرضوا سلطانهم وهيمنتهم على مشرق البلاد العربية، العراق والخليج، حتى لقد بنوا «إيوانهم» في «المدائن» العربية، واستلحقوا العرب المناذرة أتباعًا ووقودًا في صراعهم الطويل مع الروم البيزنطيين.

●والروم البيزنطيون ورثوا استعمار الشام ومصر وشمالي إفريقيا، منذ غزوة الإسكندر الأكبر أي قبل نحو من ألف عام واستلحقوا عرب الشام ـ الغساسنة ـ أتباعًا ووقودًا في حروبهم مع الفرس بل وأوعزوا إلى الحبشة، التي احتلت اليمن، لتزيل استقلال وسط شبه الجزيرة العربية، وتهدم الكعبة والبيت العتيق ـ الذي ظل وحيدًا فريدًا «حرًا.. عتيقًا» في شرق ذلك التاريخ!.

لكن إرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد شاءت أن يكون ظهور الإسلام الدين تحولًا حضاريًّا، يزيح هيمنة الفرس والروم عن الشرق، ويحرر شعوبه المستعبدة، ويغير مجرى التاريخ.

● ففي ذات العام الذي وُلد فيه رسول الإسلام ـ محمد بن عبد الله ﷺ (سنة ٥٧١) ـ ينهزم الأحباش وقائدهم أبرهة في غزوة الفيل ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾ (الفيل: ١ ـ ٥).. فبدأ الإعجاز الإلهي مقدمات التحولات التي ستغير قيادة الحضارة ومجرى التاريخ.

● وبعد هزيمة غزوة الفيل، وهلاك أبرهة الحبشي، انتفضت اليمن فتحررت، بقيادة سيف بن ذي يزن (٥١٦ ـ ٥٧٤م) لتعود الصلات والتجارات بين العرب ـ في شمال الجزيرة ووسطها وجنوبها ـ ولتنعقد أواصر التحالف والتضامن بين حكومة مكة ـ بقيادة عبد المطلب بن هاشم (٥٠٠ ـ ٥٧٩ م) ـ وبين حكومة الاستقلال في اليمن.

● وفي ذات العام الذي انبثق فيه نور الوحي بكتاب الإسلام القرآن الكريم (٦١٠م)، يحدث أول انتصار للعرب على الفرس في تاريخ هذا الصراع، في «يوم ذي قار».

● فلما قامت للإسلام دولة، بالهجرة من مكة إلى المدينة (سنة ١ هـ ـ ٦٢٢م)، واضطرت قوى الشرك العربي، في صلح الحديبية (سنة ٦هـ ـ ٦٢٨م) إلى الاعتراف بأمة الإسلام ودولته، ودانت القبائل العربية بالولاء للدين الجديد والدولة الفتية؛ توجهت سياسة الإسلام إلى الدائرة الخارجية، بالدعوة أولًا إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، فاتحة بذلك طريق تحرير الشرق من استعباد الفرس والروم؛ فخرجت رسل رسول الله ﷺ (سنة ٧ هـ ـ ٦٢٨م) بكتبه ورسائله إلى كسرى فارس، وقيصر الروم، ونجاشي الحبشة، ومقوقس مصر، وإلى رؤساء وأقيال وأمراء القبائل والعشائر والولايات في الأطراف.

ويلفت النظر ذلك المغزى ذي الدلالة الكبرى في تعامل رسول الله ﷺ مع مصر، منذ اللحظة الأولى التي أرسل فيها رسوله حاطب بن أبي بلتعة (٣٥ ق.هـ ـ ٣٠ هـ ـ ٥٧٦ ـ ٦٥٠م) بكتابه إلى مصر؛ **فالإسلام لم يعترف بأن مصر هي شأن من شئون الروم البيزنطيين ـ رغم خضوعها لاستعمارهم منذ ما يقرب من ألف عام، فكما أرسل الرسول ﷺ في شأن الروم، كتابه إلى «هرقل» (٦١٠ ـ ٦٤١م) ـ وحمله الصحابي دحية الكلبي (٤٥ هـ ـ ٦٦٥م) ـ؛ تحدث الرسول إلى المصريين في شأنهم، ولم يعتبرهم شأنًا روميًّا بيزنطيًّا؛ فأرسل رسوله حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، «عظيم القبط» ـ والذي كان يقيم في «منفيس»، العاصمة التاريخية والوطنية للمصريين. ولم يذهب حاطب، في شأن مصر، إلى العاصمة البيزنطية للاستعمار الروماني بمصر ـ الإسكندرية ـ ولا إلى «سيرس»، بطرك الروم.**

ويلفت النظر إلى هذه الحقيقة التاريخية، ذات المغزى التحرري الهام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) عندما يقول: «إن النظرية القائلة بأن «المقوقس» هو «سيرس» بطريق الإسكندرية، نظرية خاطئة. إن المقوقس قبطي، وهو حاكم منفيس..»[1].

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ ١ ص٨٣٣ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

فمنذ اللحظة الأولى، رفضت السياسة الخارجية للدولة الإسلامية الاعتراف بالأمر الواقع، الذي تمثل في هيمنة قطبي نظام عالم ذلك التاريخ ـ الفرس والروم ـ على الشرق والشرقيين.

ولم يكن خطاب الرسول ﷺ في شأن مصر والمصريين، مع «المقوقس» عظيم القبط، وفي العاصمة الوطنية لمصر ـ وليس مع «هرقل» في «القسطنطينية»، ولا مع بطرك الروم في «الإسكندرية» ـ لم يكن ذلك الموقف في السياسة الخارجية الإسلامية استثناء، وإنما كان موقفًا عامًّا، رافضًا الاعتراف باستعمار الفرس والروم للشرق والشرقيين؛ فكانت رسل رسول الله ﷺ يحملون كتبه إلى الولاة والقادة العرب ـ من الغساسنة والمناذرة ـ الخاضعين لسيطرة الروم والفرس حتى ذلك التاريخ.. فإلى ملك «البلقاء» بالشام الحارث بن أبي شمر الغساني، ذهب شجاع بن وهب الأسدي، كما ذهب سليط بن عميرة إلى العلاء بن الحضرمي، ملك البحرين[١]. وإلى غيرهم من القادة الوطنيين؛ **فتوجه الخطاب الإسلامي في الشئون الشرقية إلى الشعوب المستعمرة وقياداتها الوطنية، وليس إلى المستعمرين من الفرس والروم.**

* * *

ذهب حاطب بن أبي بلتعة إلى مصر الشعب القبطي المقهور دينيًّا وقوميًّا ولغويًّا وثقافيًّا وسياسيًّا وحضاريًّا، حاملًا رسالة رسول الإسلام إلى «المقوقس» عظيم القبط، طالبًا إليه الدخول في الإسلام، لا باعتبار الإسلام ناسخًا لنصرانية عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ وإنما باعتباره الشريعة المكملة لدين الله الواحد، منذ آدم إلى محمد بن عبد الله، فهي دعوة للمصريين كي يكملوا، بالإسلام، الدين الذي عرفوه منذ نبي الله إدريس، عليه السلام.

ولقد شهد الحوار الذي دار بين المقوقس وبين حاطب على هذا الأفق الرفيع والواسع والعميق في فهم صحابة رسول الله ﷺ لمكانة الإسلام ومقامه من حقيقة تمام الدين واكتمال رسالات السماء إلى

(١) رفاعة الطهطاوي (الأعمال الكاملة) جـ٣ ص٥٦٣، ٥٦٤. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.

الإنسان ﴿.. ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ..﴾ (المائدة: ٣) ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ولقد دار الحوار بين «المقوقس» وبين الصحابي حاطب بن أبي بلتعة، على النحو الذي يكشف كيف صنعت مدرسة النبوة الإسلامية من البدو الأميين علماء وفلاسفة في الدين والتاريخ!. ولقد بدأ المقوقس هذا الحوار بالتحدي وبالتساؤل الاستنكاري، المتسائل عن صدق نبوة محمد وسلطان نبوته؛ فقال لحاطب:

«ـ ما منعه ـ (أي الرسول) ـ إن كان نبيًّا ـ أن يدعو عليَّ فيُسَلَّط عليَّ؟!.

(فكان جواب حاطب): ـ ما منع عيسى ابن مريم أن يدعوَ على من أَبَى عليه أن يُفْعَلَ به ويُفْعَل!.

.. (فوجم المقوقس ساعة ـ أي فترة ـ ثم استعاد إجابة حاطب؛ فأعادها عليه حاطب. فسكت المقوقس).

وهنا استأنف حاطب الحوار، فقال للمقوقس:

ـ إنه قد كان قبلك رجل ـ (يشير إلى فرعون موسى) ـ زعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به ـ (أي من الذين استخفّهم فأطاعوه) ـ، ثم انتقم منه، فاعْتبر بغيرك، ولا يُعْتَبَر بك.

وإن لك دينًا ـ (أي النصرانية) ـ لن تَدَعَهُ إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافي الله به فَقْدَ ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد. وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به!».

وبعد هذا الخطاب، الذي بلغ قمة العمق في الوعي بالتاريخ، وفي فلسفة وحدة الدين الإلهي، الذي اكتمل بالإسلام. قرأ حاطب بن أبي بلتعة كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المقوقس، عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام. فأَسْلِم تَسْلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن تولَّيْتَ فعليك إثم القبط ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ (آل عمران: ٦٤)[١].

فمنذ ذلك التاريخ (سنة ٧هـ سنة ٦٢٨) بدأ الإسلام إفراد وتمييز شعوب الشرق بالخطاب عن قوى الهيمنة والاستعمار ـ الفرس والروم ـ إعلانًا صريحًا عن نزوع الإسلام إلى تحرير هذه الشعوب من ذلك الاستعمار.

ولذلك فلم يكن غريبًا ذلك الاستقبال الحسن الذي لقيه حاطب بن أبي بلتعة لدى عظيم القبط «المقوقس»، في العاصمة الوطنية لمصر «منفيس». وعندما قفل عائدًا إلى المدينة، بعث معه المقوقس «بهدايا مصرية» إلى رسول الله، ﷺ ، جاريتان من كرام بنات مصر: «مارية» وأختها «سيرين» وثياب مصرية، من صناعة المصريين وعسل من مدينة «بنها» وراحلتان ـ بغلة وحمار ـ.

وكما كان لرسالة الرسول ﷺ هذا القبول الحسن عند المقوقس؛ فلقد كان لهذه الهدايا المصرية قبولاً حسنًا ومكانة متميزة عند رسول الله؛ «فمارية»، قد شرفها بأن أصبحت أم ولده إبراهيم، الذي أشار اسمه إلى المصاهرة القديمة بين مصر وأبي الأنبياء الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ تلك المصاهرة التي أثمرت أمة العرب العدنانيين. وها هو النبي العربي، المجدد لملة إبراهيم والمحيي ـ في السعي بين الصفا والمروة ـ لمناسك هاجر المصرية، يجدد العلاقة بمصر فيصاهر المصريين، لتجتمع لمصر مع العرب الذمة والصهر والنسب جميعًا. أما «سيرين» فلقد أصبحت أم ولد شاعر الإسلام، المؤيد بروح القدس، حسان بن ثابت ـ أم ولده عبدالرحمن ـ. وتتحدث المأثورات النبوية عن دعاء الرسول ﷺ بالبركة لهذا العسل الذي أهدته إليه مصر وعن مكانة الراحلتين ـ البغلة «دُلْدُل»، والحمار

(١) ابن عبد الحكم (فتوح مصر وأخبارها) ص٤٦. طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م. و(مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ص٧٢، ٧٣. تحقيق د. محمد حميد الله. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

«يعفور» ـ لديه ﷺ، وكيف كانا «أحب دوابه إليه» أما الثياب التي أهدتها إليه مصر، فكان يتزين بها، ثم أوصى أن يُكَفَّن في بعضها عندما يلقى الله. فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قلنا: يا رسول الله، فيم نكفّنك؟ قال: «في ثيابي هذه، في ثياب مصر»[١].

وهكذا دار الزمن دورته، فجدد الاقتران بين مصر وبين خاتم الأنبياء ذلك الاقتران الذي سبق وحدث بينها وبين أبي الأنبياء، إبراهيم الخليل، عليهم السلام.

***

وإذا كان الاصطفاء والتكريم مألوفًا في الناس وفي الأوقات والأزمنة؛ فإنه وارد أيضًا في الأمكنة والبلاد والأقطار وهذا ما التفت إليه أعلام المؤرخين الذين كتبوا عن «فضائل مصر»؛ فلقد تتبعوا احتفاء القرآن الكريم بها. عندما ورد ذكرها فيه في نحو من خمسة وعشرين موضعًا، «منها ما هو بصريح اللفظ، ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير فأما صريح اللفظ، فمنه قوله تعالى:

١ـ ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ (البقرة: ٦١).

٢ـ وقوله ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ﴾، يخبر عن فرعون: (الزخرف: ٥١).

٣ـ وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ (يونس: ٨٧).

٤ـ وقوله ـ عز وجل ـ مخبرًا عن نبيه يوسف، عليه السلام: ﴿ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (يوسف: ٩٩).

٥، ٦ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (يوسف: ٢١).

وأما ما دلت عليه القرائن، فمنه قوله عز وجل:

٧ـ ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ (يونس: ٩٣).

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٥٢.

٨ـ وقوله عز وجل: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ (المؤمنون: ٥٠).

قال ابن عباس (٣ ق.هـ ٦٨هـ ٦١٩ ـ ٦٨٧م) وسعيد بن المسيب (١٣ ـ ٩٤هـ ٦٣٤ ـ ٧١٣م) ووهب بن مُنبّه (٣٤ ـ ١١٤هـ ٦٥٤ ـ ٧٣٢م) وغيرهم: هي مصر.

٩ـ ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ (الشعراء: ٥٧ ـ ٥٨) أي أخرجنا بني إسرائيل من مصر.

١٠ـ وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾(الأعراف: ١٣٧). يعني مصر.

١١ـ وقوله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨﴾ (الدخان: ٢٥ ـ ٢٨).

١٢ـ وقوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ (القصص: ٥ ـ ٦).

١٣ـ وقوله ـ عز وجل ـ مخبرًا عن نبيه موسى، عليه السلام: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝٢١﴾ (المائدة: ٢١) أي لا ترتدوا إلى مصر.

١٤ـ وقوله ـ عز وجل ـ مخبرًا عن فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (غافر: ٢٩).

١٥ـ وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ (الأعراف: ١٣٧).

١٦ـ وقوله ـ تعالى ـ مخبرًا عن فرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ (الأعراف: ١٢٧) يعني أرض مصر.

١٧ـ وقوله ـ تعالى ـ مخبرًا عن نبيه يوسف، عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ (يوسف: ٥٥).

١٨ـ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ﴾ (يوسف: ٥٦).

١٩ـ وقوله تعالى، مخبرًا عن بني إسرائيل: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (يونس: ٨٨).

٢٠ـ وقوله تعالى، مخبرًا عن نبيه موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ (الأعراف: ١٢٩).

٢١ـ وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ (غافر:٢٦).

٢٢ـ وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ (القصص: ٢٠).

٢٣ـ وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾(القصص:٤).

٢٤ـ وقوله ـ تعالى ـ مخبرًا عن أكبر أبناء يعقوب عليه السلام: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ (يوسف:٨٠) يعني مصر.

٢٥ـ وقوله تعالى:﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (القصص:١٩)[١].

هكذا شرف الله ـ سبحانه وتعالى ـ مصر الكنانة عندما ذكرها في قرآنه الكريم في خمسة وعشرين موضعًا. وعلى هذا الدرب جاء فضلها في سنة رسول الله ﷺ بتلك المأثورات النبوية التي جمعها علماء التاريخ.

(١) ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة) جـ١ ص٢٧، ٢٨. طبعة دار الكتب المصرية.

لقد تنبأ رسول الله ﷺ بفتح الإسلام لمصر وبدورها الرائد والمتميز ـ كدرة في جبين دار الإسلام ـ في الجهاد لنصرة الإسلام وأمته وحضارته؛ فأوصى، لذلك، بأهلها، وقال: «إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا»[١].

وعن مسلم بن يسار، أن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالقبط خيرًا، فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم».

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أن رسول الله ﷺ قال: «الله الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعوانًا في سبيل الله إنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله تعالى».

وعنه ﷺ أنه قال:

«إذا أفتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض».

فقال له أبو بكر الصديق: ولم ذلك يا رسول الله؟

فقال: «لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة ما كادهم أحد إلا كفاهم الله مؤنته»[٢].

وعن أبي ذر الغفاري، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنكم ستفتحون مصر ـ وهي أرض يُسَمَّى فيها القيراط ـ فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا» [٣].

هكذا توجه الإسلام إلى أهل مصر بالخطاب المستقل، إعلانًا عن عزم دولته على تحريرها من القهر السياسي والديني والحضاري الذي أوقعه بها الإغريق والرومان. وهكذا كرمها القرآن الكريم، ونبي الإسلام، والسنة النبوية الشريفة، عندما بوأتها هذه المكانة المتميزة والعالية في مصادر الإسلام.

* * *

وإذا كانت هذه هي مكانة مصر في الرؤية الإسلامية، وهذه هي قسمة البعد التحريري في السياسة الإسلامية نحو الشعب القبطي ـ المصري ـ؛ فلقد كان الروم البيزنطيون يرون في مصر الحصن الحافظ لاستعمارهم، والذي إذا سقط انحسر سلطانهم الاستعماري عن الشرق كله، ذلك السلطان الذي دام نحوًا من عشرة قرون (٣٣٢ ق.م ٦٤٢م) ففي المواجهة التي احتدمت بين الروم، بقيادة

(١) رواه الطبراني في الكبير.
(٢) (فتوح مصر وأخبارها) ص٣، ٤. و(النجوم الزاهرة) جـ١ ص٢٩.
(٣) رواه مسلم والإمام أحمد.

«هرقل» (٦١٠ ـ ٦٤١م)، وبين دولة الخلافة الراشدة، على عهد عمر بن الخطاب (١٣ـ ٢٣هـ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م)، شحن الرومان مصر بالجيوش والعدة والعتاد، وخاصة بعد أن انحسر سلطانهم وزالت دولتهم عن بلاد الشام حتى لقد عبّر «هرقل» عن هذا الموقف صراحة عندما قال: «**لئن ظهرت العرب على الإسكندرية فإن في ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم؛ لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية، وأعياد الروم بالإسكندرية..**»[(١)].

وحتى نعرف حدة الصراع، وشراسة القتال، وطول المحاصرات، وقوة التحصينات، وشدة المعاناة التي اكتنفت الفتح الإسلامي لمصر ـ مع ملاحظة وقوف الشعب المصري مع جيش عمرو بن العاص، وتركز الصراع والقتال ضد حاميات الروم وحصونها ـ حتى نعرف مبلغ ذلك، يكفي أن نتذكر أن الفتح الإسلامي للعراق والخليج وفارس، وأيضًا لكل أنحاء الشام، بما في ذلك المعارك الكبرى في «القادسية» و«أجنادين» و«اليرموك» تمت كلها في عام واحد (١٥ هـ ٦٣٦م)، بينما استغرق فتح مصر وحدها نحوًا من أربع سنوات! بل إن فتح مدينة الإسكندرية وحدها قد استلزم حصارًا فرضه المسلمون عليها دام أربعة عشر شهرًا، منها خمسة أشهر في حياة هرقل وتسعة بعد وفاته فلقد كانت مصر درة الإمبراطورية البيزنطية، ومقر الجيوش الرومانية الحارسة لهيمنة بيزنطة على الشرق ـ من الشام وحتى شمالي إفريقيا.

ويبدو أن هذه الإمكانات العسكرية التي ركزها الرومان في مصر، كانت هي سبب التردد الذي حدث لفكر وموقف عمر بن الخطاب في اتخاذ قرار فتحها عندما اقترحه عليه وحسّنه له وأغراه به عمرو بن العاص (٥٠ ق. هـ ٤٣ هـ ٥٧٤ ـ ٦٦٤م) في سنة (١٨ هـ ٦٣٩م)، عندما التقيا في الشام. فلقد استخار عمر في ذلك واستشار، واستمرت شوراه حتى بعد أن تحرك عمرو بن العاص بجيشه متوجهًا نحو مصر. وكان مما قاله عثمان بن عفان لعمر، في هذه المشاورات: «يا أمير المؤمنين، إن عمرًا لجريء، وفيه إقدام، وحب للإمارة، فأخشى أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا..»[(٢)] .. فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بالرجوع عن خطة الفتح إذا

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٦٨.
(٢) المصدر السابق. ص ٥٧، ٥٨.

لم يكن قد دخل مصر، وبالمضي إلى الفتح إذا كان قد دخلها وجاء في كتابه: «أما بعد فإنك سرت إلى مصر ومن معك، **وبها جموع الروم، وإنما معك نفر يسير** فإن لم تكن قد بلغت مصر فارجع وإن أدركك كتابي وقد دخلتها فامض، **واعلم أني مُمِدُّك**..»[١] .. فكان فتح عمرو بن العاص لكتاب أمير المؤمنين بعد تجاوزه لـ«رفح» وقبل دخول «العريش». ذلك أن مشيئة الله كانت قد نفذت، وحان الحين كي يجسدها على الأرض وفي ميادين الفتوحات التحريرية، أولئك الذين استخلفهم الله للانتقال بالإنسانية إلى طور جديد.

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (الحج: ٤١).

* * *

وإذا كانت وقائع هذا الفتح المبين، ومراحله وتواريخه قد اختلفت في بعضها بعض روايات المؤرخين؛ فإن التحقيق لهذه الروايات والمقارنة بينها يحكي لنا حقائق سير خطوات هذا الحدث التاريخي العظيم.

● كان عمرو بن العاص قد أسهم إسهامًا متميزًا في قيادة فتوحات الشام وهو الذي تولى قيادة المعركة في «أجنادين»، عندما كانت قيادة جيش الروم لداهيتهم «أرطبون» ـ «الذي كان أدهى الروم وأبعدها غورًا، وأنكاها فعلاً» ـ كما يقول الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ ٨٣٩ ـ ٩٢٣م) ـ ولقد قدم المسلمون عمرو بن العاص باعتباره الكفء لأرطبون الروم. وقال عمر بن الخطاب: «لقد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظر عمّ تنفرج»! ولقد انفرجت المعركة عن انتصار المسلمين بقيادة عمرو بن العاص على أرطبون الروم![٢] .

● وحدث في سنة (١٨ هـ ٦٣٩م) طاعون بأرض الشام ـ بضيعة «عمواس»، على ستة أميال من القدس ـ مات فيه كثيرون، منهم قائد الجيش الإسلامي الفاتح للشام، أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح (٤٠ ق.هـ ـ ١٨ هـ ٥٨٤ ـ ٦٣٩م) ونائبه معاذ بن جبل (٢٠ ق.هـ ١٨ هـ ٦٠٣ ـ ٦٣٩م) فأصبحت قيادة جيش المسلمين

(١) المصدر السابق. ص ٥٧.

(٢) الطبري (تاريخ الرسل والملوك) جـ١ ص٦٠٥ ـ ٦٠٧. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة دار المعارف. القاهرة.

في الشام لعمرو بن العاص وسار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من المدينة إلى الشام، ونزل بـ«الجابية» ـ وهي قرية من أعمال دمشق ـ وقسم مواريث موتى الطاعون وفي لقائه مع عمرو بن العاص، شاوره عمرو في فتح مصر، وحسنه له، وأغراه به فوافق عمر، على أن تمتد المشورة إلى ما بعد عودته للمدينة ـ وفيها كبار الصحابة ـ وعلى أن يظل القرار النهائي معلقًا بنتائج الشورى وبدخول الجيش الفاتح إلى الديار المصرية.

وعاد عمر إلى المدينة في ذي القعدة سنة ١٨ هـ ديسمبر سنة ٦٣٩م في الوقت الذي سار فيه عمرو بن العاص على رأس جيش الفتح ـ المكون من ٤,٠٠٠ (أربعة آلاف) مقاتل قاصدًا فتح مصر. فلما وطئت أقدام الجيش الإسلامي أرض مصر، أدركهم رسول أمير المؤمنين، بكتابه الذي يدعوهم إلى الرجوع إن لم يكونوا قد دخلوا أرضها وكانت قراءة الكتاب وهم على أرض مصر، في قرية بين «رفح» و«العريش» فمضوا إلى فتحهم على بركة الله.

● وفي مدينة «العريش» حل أول عيد للأضحى على المسلمين في أرض مصر، فصلى عمرو بن العاص وجنوده أول صلاة للعيد على أرض الكنانة، وضحى عن أصحابه بكبش، في ١٠ ذي الحجة سنة ١٨ هـ ـ ١٣ ديسمبر سنة ٦٣٩م ـ أي قبل أربعة عشر قرنًا من التاريخ الذي نكتب فيه هذه الصفحات.

● وفي مدينة «الفرما» حدث أول قتال شديد بين الجيش الإسلامي وبين قوات الروم، وفي هذه المعركة دام القتال نحوًا من شهر![1].

● وبعد هزيمة الروم في «الفرما» انحرف الجيش الإسلامي عن الطريق الساحلي، متجهًا إلى الجنوب الغربي، وعند «بلبيس» وقعت ثانية وقائع القتال الشديد بينه وبين الرومان. ودامت هذه المعركة، هي الأخرى، نحوًا من شهر! انتصر فيه المسلمون على الرومان.

● وكان الاضطهاد الروماني لأقباط مصر قد ألجأ أسقف القبط ورأس الكنيسة المصرية «بنيامين» ـ أو «أبوميامين» (٣٩هـ ـ ٦٥٩م) ـ إلى الهرب في الصحراء «**فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم: أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم**

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٥٨.

قد انقطع، ويأمرهم بتلقي عمرو بن العاص». حدث ذلك منذ بدايات معارك الفتح الإسلامي لمصر، حتى «يقال: إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا، يومئذ، لعمرو أعوانًا..»[(١)].

● وأدرك عمرو بن العاص ـ رغم انتصاره في «الفرما» و«بلبيس» ـ ومن خلال شراسة المقاومة، وطول مدة القتال ـ شهر في «الفرما» وشهر في «بلبيس» ـ اختلال التوازن بينه وبين الأعداء.. فجنوده ٤,٠٠٠ يواجهون ١٢٠,٠٠٠ يحتمون في الحصون والمدن والقلاع ووافر العدة والعتاد؛ فكتب إلى عمر بن الخطاب يطلب المدد الذي وعده به، فجاءه المدد، وهو محاصر «لحصن بابليون»، قرب العاصمة المصرية «منفيس» أمده أمير المؤمنين عمر بـ ٤,٠٠٠ مقاتل، وعلى رأس كل ألف منهم واحد من أبطال صحابة رسول الله ﷺ، قدّر عمر بن الخطاب أنه يزن ألفًا من المقاتلين؛ فأصبح عدد الجيش الفاتح ٨,٠٠٠ ووزنه ١٢,٠٠٠ من المقاتلين!. ومع هذا المدد جاء كتاب أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص، يقول له فيه: «إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف ـ الزبير بن العوام (٢٨ ق. هـ ـ ٣٦هـ ٥٩٦ ـ ٦٥٦م) والمقداد بن عمرو بن الأسود (٣٧ ق.هـ ـ ٣٣ هـ ٥٨٧ ـ ٦٥٣م) وعبادة ابن الصامت (٣٨ ق.هـ ـ ٣٤هـ ٥٨٦ ـ ٦٥٤م) ومسلمة بن مخلد (١ ـ ٦٢هـ ٦٢٢ ـ ٦٨٢م) ـ (وقيل: خارجة بن حذافة (٤٠ هـ ٦٦٠م)..) ـ ولا يُغْلب اثنا عشر ألفًا من قِلَّة..»[(٢)].

وبالثمانية آلاف، والصحابة الأربعة ـ الذين يعدلون أربعة آلاف ـ حاصر المسلمون «حصن بابليون» سبعة أشهر، حتى اقتحموه وافتتحوه عنوة وقتالًا في نهاية المطاف! وكان ذلك في يوم الجمعة ٢ محرم سنة ٢٠ هـ ٢٢ ديسمبر سنة ٦٤٠م. وبذلك أصبحت العاصمة الوطنية لأقباط مصر ـ «منفيس» ـ محررة من استعمار الروم البيزنطيين.

● وأثناء حصار المسلمين لـ «حصن بابليون» ـ الذي كان يقود الروم دفاعًا عنه، قائدهم «الأعيرج» ـ حدثت اتصالات ودارت مفاوضات بين «المقوقس»، عظيم القبط ووالي «منفيس»، وبين

(١) المصدر السابق. ص٥٨، ٥٩.
(٢) المصدر السابق. ص٦١.

رسل عمرو بن العاص. حدث ذلك في آخر شعبان سنة ١٩ هـ ـ ٢٤ أغسطس سنة ٦٤٠م، عندما تحدث المقوقس إلى قيس بن سعد (٦٠هـ ـ ٦٨٠م) مندوب عمرو بن العاص. وبعد هذه المحادثة، أرسل المقوقس رسلًا من عنده لاستطلاع حال المسلمين في معسكرهم «فلما جاءت رسل المقوقس إليه، قال لهم:

– كيف رأيتموهم؟

– قالوا: **رأينا قومًا. الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نَهْمَة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون في صلاتهم.**

فقال ـ عند ذلك ـ المقوقس: والذي يُحْلَفُ به! لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إن أمكنهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم..»[1].

لقد تميّز موقف القبط ـ الذي عبر عنه المقوقس ـ وذلك تبعًا لتميز موقف أسقف القبط «أبو ميامين» ـ تميز موقف القبط عن موقف المستعمرين الروم؛ فسعى المقوقس إلى مصالحة الجيش الإسلامي الفاتح ودارت بينه وبين المسلمين مفاوضات ـ في «منفيس» ـ مثّل المسلمين فيها وفد قاده الصحابي عبادة بن الصامت. وكان المقوقس، وهو يحاور عباد بن الصامت ـ ولهذا دلالته ومغزاه ـ **يتحدث عن الروم بضمير الغائب**، فيقول لعبادة، محذرًا إياه من قوة الروم، والإمدادات الآتية إليهم ـ عبر البحر المتوسط ـ: «لقد توجّه إلينا لقتالكم من جَمْع الروم ما لا يُحْصَى عددُه وإننا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تطيقوهم، لضعفكم وقلتكم..»[2].

ولقد أفضت المفاوضات بين المقوقس، عظيم القبط ـ في «منفيس» ـ وبين رسل عمرو بن العاص، إلى صلح ناجز بين القبط ـ الذين تعاقد المقوقس باسمهم ـ وبين عمرو بن العاص، وإلى صلح آخر، غير ناجز، اقترحه المقوقس على الروم، وعلّق إمضاءه على موافقة هرقل، قيصر الروم.

(١) المصدر السابق: ص٦٥.
(٢) المصدر السابق: ص٦٦.

فأما صلح القبط ـ الناجز والنهائي ـ فلقد تم التعاقد عليه عندما اجتمعوا ـ عمرو بن العاص في نفر من المسلمين، والمقوقس في نفر من القبط ـ «واصطلحوا على أن يُفْرَض على جميع من بمصر، أعلاها وأسفلها، من القبط ديناران ديناران من بلغ الحُلُم منهم، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحُلُم ولا النساء شيء. وأن لهم أرضهم وأموالهم، لا يُعْرَض لهم في شيء منها. فشُرط هذا على القبط خاصة»[١].

وبذلك تم التعاقد على الصلح بين الجيش الفاتح وبين الشعب المصري، وقيادته الوطنية وهو التعاقد الذي عبر عن الموقف العملي للشعب من الجيش الفاتح، وهو موقف الترحيب والدعم والتأييد، الذي أعلن عنه الأسقف «أبوميامين» منذ معركة «الفرما» في شبه جزيرة سيناء.

أما «مشروع» الصلح بين المسلمين والروم، والذي تطوع المقوقس، عظيم القبط، فتفاوض حوله مع عمرو بن العاص؛ فلقد كان مجرد «مشروع» اتفقا على تعليق إنجازه وإمضائه على موافقة هرقل، قيصر الروم. وفي هذا «المشروع»: «شَرَط المقوقس للروم أن «يُخَيَّروا، فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا ـ (الصلح الذي عقده القبط) ـ أقام على ذلك، لازمًا له، مفترضًا عليه ممن أقام بالإسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها، ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج، وعلى أن للمقوقس الخيار في الروم خاصة **حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل، فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم، وإلا كانوا جميعًا على ما كانوا عليه**. وكتبوا بذلك ـ (الصلح) ـ كتابًا..»[٢].

فلما كتب المقوقس إلى هرقل بخبر ونص هذا الصلح المقترح على الروم؛ رفضه هرقل «وكتب إلى المقوقس يُقَبِّح رأيه، ويُعَجِّزه ويرد عليه ما فعل، ويقول في كتابه ـ (إلى المقوقس) ـ: إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفًا، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يُحصى، فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا دفع الجزية إلى العرب واختاروهم علينا، فإن عندك بمصر من الروم بالإسكندرية ومن

(١) المصدر السابق: ص٧٠.
(٢) المصدر السابق: ص ٧٠ ـ ٧٣.

معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة فناهضهم القتال، **ولا يكون لك رأي غير ذلك.**

- وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتابًا إلى جماعة الروم.
- فأخبر المقوقس عمرو بن العاص بجواب ملك الروم، وطلب منه إدخاله ومن معه في الصلح، كالقبط ـ (إي إدخال من مع المقوقس من الروم، الذين اختاروا الصلح، في هذا الصلح الذي تم مع القبط) ـ وقال لعمرو بن العاص: «**إنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني، وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم، ولم يأت من قبَلهم نقض، وأنا متمّ لك على نفسي، والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم، وأما الروم فأنا منهم بريء..**»[١].

هكذا تميز الموقف الإسلامي من القبط، الذين صالحوا وعاونوا وسالموا، عن الموقف من الروم، الذين اختاروا القتال.

وحتى القرى المصرية التي ساند أهلها الروم، وشاركوا في قتال الجيش الإسلامي ـ قرى «بَلْهيت» و«سُلْطيْس» و«أم دنين» و«قرطَسَا» و«سَخا» و«الخيس» ـ في الطريق إلى الإسكندرية ـ حتى هذه القرى، عفا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن أهلها، وحرر أسراهم، وشملهم بالصلح الذي أبرمه الأقباط مع عمرو بن العاص[٢].

- وفي الطريق إلى الإسكندرية، كان الرومان قد زرعوا الحصون والاستحكامات وشحنوها بالجنود والعتاد؛ فدارت العديد من المعارك بين الجيش الإسلامي الفاتح وبين هذه الحصون والقلاع والحاميات الرومانية.

حدث ذلك في «أُمّ دُنين» بالقرب من العاصمة المصرية وحصن بابليون.

وفي «سُلْطَيْس» وهي من القرى المصرية القديمة حدث قتال شديد بين المسلمين والرومان.

وفي «قَرطَسا» وهي من قرى مصر القديمة.

وفي «الخَيس» وهي من كور وقرى الحوف الغربي.

(١) المصدر السابق: ص٧١، ٧٢.

(٢) المصدر السابق: ص٨٣، ٨٤.

وفي «سَخا» وهي من المدن المصرية القديمة بدلتا النيل.

وفي «بَلْهيت» ـ أو «بَلْهِيت».

وفي «كوم شريك» ـ قرب الإسكندرية ـ دام القتال ثلاثة أيام.

وفي «الكِرْيَوْن» ـ قرب الإسكندرية ـ استمر القتال بضعة عشر يومًا حتى لقد صلى المسلمون يومئذ صلاة الخوف؛ فانقسموا طائفتين، وصلى عمرو بن العاص بكل طائفة ركعة وسجدتين، بينما الطائفة الأخرى تخوض غمار القتال، وتؤمن صلاة المصلين!..[١]

كل هذا قد حدث، ومثله كثير ـ على طريق الجيش الفاتح، أثناء سيره من حصن بابليون إلى الإسكندرية بينما حصون الروم وقلاعهم منتشرة في غير ذلك من الأقاليم والأنحاء، شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا.

لقد أدخل صلح المقوقس مع عمرو بن العاص مصر الشعب في إطار الدولة الإسلامية.

وفتحت هزيمة الرومان في حصن بابليون الطريق أمام الجيش الفاتح نحو الإسكندرية، التي هي المعركة الفاصلة بين المسلمين ـ ومعهم القبط ـ وبين المستعمرين الرومان.

(٢) المصدر السابق: ص٧٣، ٧٤.

فتح الإسكندرية

وبعد هزيمة الروم في «حصن بابليون» ـ يوم الجمعة ٢ محرم سنة ٢٠ هـ ٢٢ ديسمبر سنة ٦٤٠م ـ تحرك الجيش الإسلامي لحصار الإسكندرية، عاصمة الاستعمار الروماني في مصر، وفرض عليها الحصار ـ إلا من ناحية البحر ـ أربعة عشر شهرًا. وكما يروي التاريخ عن الإسكندرية وحصارها؛ فلقد «**تحصّن بها الروم، وكانت عليهم حصون مبنية لا ترُام، حصن دون حصن**. فنزل المسلمون ما بين «حلوة» إلى «قصر فارس» إلى ما وراء ذلك، **ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة..**»[1].

ورغم مناعة الحصون والمائة ألف رومي الذين اعتصموا في هذه الحصون والمدد الذي يأتيهم من البحر؛ استطاع المسلمون اقتحام الإسكندرية، وتقويض الاستعمار الذي بدأ مع فتح الإسكندر الأكبر، قبل نحو ألف عام (سنة ٣٣٢ ق.م)؛ فلقد فتح الله عليهم هذه المدينة الحصينة يوم الجمعة أول جمادى الثانية سنة ٢٠ هـ ١٨ مايو سنة ٦٤١م.

ولقد كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه هو الذي حدد للجيش الفاتح تاريخ المعركة وتوقيت الفتوح، وشروط الانتصار. والمؤرخون يتحدثون عن ذلك، فيقولون: إنه «لما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر، كتب إلى عمرو بن العاص: أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر. **إنكم تُقاتلون منذ سنتين**، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحبَّ عدوُّكم. وإن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا ينصر قومًا إلا بصدق نيّاتهم.

وقد كنتُ وجّهتُ إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل، على ما كنتُ أعرف، إلا أن يكونوا غيَّرهم ما غيَّر غيرهم.

فإذا أتاك كتابي هذا، فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، **وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تَنَزُّل الرحمة ووقت الإجابة، وليَعُجَّ الناسُ إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم**».

(١) المصدر السابق: ص٧٤.

فلما أتى عمرو بن العاص كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، جمع الناس وقرأ عليهم الكتاب، ثم دعا أولئك النفر ـ (الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد) ـ فقدَمهم أمام الناس، **وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله ـ عز وجل ـ ويسألوه النصر، ففعلوا، ففتح الله عليهم..**»[١].

هكذا فتحت الإسكندرية، وبفتحها دالت دولة الروم، وطويت صفحة استعمارهم للشرق، بعد أن دامت قرابة الألف عام. ذلك أن الإسكندرية كانت هي حصن الاستعمار البيزنطي، الذي قهر مصر في السياسة والدين والثقافة والحضارة، فجعل منها «فراغًا حضاريًّا» سعت إلى ملئه بحضارة الإسلام، تلك التي ورثت وأحيت كل المواريث الحضارية التي سبقت الإسلام والتي حرر فتحها الإسلامي القبط من الاضطهاد المأساوي الذي أنزله بهم الروم البيزنطيون.

لقد تحققت، بفتح الإسكندرية، نبوءة «هرقل» ـ قيصر الروم ـ تلك التي قال فيها: «**لئن ظهرت العرب على الإسكندرية، فإن في ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم؛ لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية**» وبعد فتحها تمت فتوحات سائر الأقاليم المصرية.

فبعد أن أسس عمرو بن العاص مسجده ـ وهو أول مسجد بني في القارة الإفريقية ـ (سنة ٢١ هـ سنة ٦٤٢م) ـ واختط من حوله خطط أولى المدن الإسلامية في أفريقيا ـ **مدينة الفسطاط ـ التي جعلها امتدادًا وضاحية للعاصمة الوطنية المصرية التاريخية «ممفيس» ـ بل وسماها «مصر» ـ رمزًا لتعبير الفتح الإسلامي وعاصمتها عن تحرير مصر، وليس عن القهر الذي رمزت إليه العواصم الاستعمارية «أواريس» الهكسوس، و«إسكندرية» الإسكندر المقدوني ـ**؛ بعد ذلك قاد المقداد بن الأسود الجيش الذي فتح «دمياط» (سنة ٢١هـ ٦٤٢م).

وفي العام التالي (سنة ٢٢هـ ٦٤٢م) قاد عمرو بن العاص الجيش الذي فتح به «برقة ـ إنطابلوس»، وهي الحد الغربي للديار المصرية.

(١) المصدر السابق: ص٧٩.

وبذلك تمت فتوحات الإسلام لمصر، تلك التي استغرقت من الحصار والقتال أربع سنوات. فلقد صلى المسلمون ـ وراء عمرو بن العاص ـ صلاة عيد الأضحى بالعريش في العاشر من ذي الحجة سنة ١٨هـ ١٣ ديسمبر سنة ٦٣٩م وكان تمام الفتح ـ بقيادة عمرو ـ لـ«برقة ـ انطابلوس» سنة ٢٢هـ سنة ٦٤٢م وهي مدة غير مسبوقة، في طولها، بتاريخ الفتوحات الإسلامية؛ لبلد كان الروم قد علقوا عليه كل الآمال، وعلق عليه الإسلام والمسلمون الكثير والكثير من الآمال!.

ويكفي أن نعلم أن أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب، الذي أهمّه اتخاذ قرار فتح مصر أكثر مما حدث له مع قرارات الفتوحات الكبرى؛ قد استقبل بشارة فتح مصر، وسقوط قلاع الروم في الإسكندرية كما لم يستقبل بشارة فتح من الفتوح، على كثرة وعظمة ما شهد عهده من الفتوح.

ولقد كان حامل بشارة الفتح إلى المدينة واحدًا من أبطال الفتوحات الإسلامية، الصحابي معاوية بن حديج (٥٢ هـ ـ ٦٧٢م) ـ والراوي عن رسول الله ﷺ، حديث: غُدْوَةٌ في سبيل الله أو رَوْحَة خير من الدنيا وما فيها»[(١)] ـ فوصل إلى مسجد المدينة ساعة الظهيرة، وظنًّا منه أن أمير المؤمنين قَائِل قيلولة الظهيرة، آثر الانتظار بالمسجد إلى صلاة العصر ـ وما دري أن عمر يحرّقه القلق والشوق إلى أخبار الفتح الذي أبطأ به الزمان ـ حتى لقد وجّه الجواري والغلمان لترقب القادمين من الأسفار، علّ أن يكون فيهم من يحمل من مصر الأخبار.

ولندع معاوية بن حديج يروي لنا كيف استقبل عمر بن الخطاب بشارة الفتح العظيم، الذي دخلت به مصر في دين الله، والذي كان عيد ميلاد إسلامها!. يقول معاوية:

«بعثني عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية؛ فقلت لعمرو:

ـ ألا تكتب له؟.

ـ فقال عمرو: وما أصنع بالكتاب؟! ألستَ رجلًا عربيًّا، تُبلغ الرسالة وما رأيتَ وما حضرتَ؟!

(١) رواه الإمام أحمد. وانظر: ابن الأثير (أسد الغابة في معرفة الصحابة) ـ ترجمة معاوية بن حديج ـ طبعة دار الشعب. القاهرة.

فقدمت المدينة في الظهيرة، فأنختُ راحلتي بباب المسجد، ثم دخلت المسجد. فبينا أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب، فرأتني شاحبًا، عليّ ثياب السفر، فأتتني فقالت:

- من أنت؟

- قال: فقلت: أنا معاوية بن حديج، رسول عمرو بن العاص.

فانصرفت عني ـ (إلى منزل عمر) ـ ثم أقبلت تشتد ـ (مسرعة) ـ أسمع حفيف إزارها على ساقيها، حتى دنت مني فقالت:

- قم، فأجب، أمير المؤمنين يدعوك.

فتبعتها، فلما دخلت، فإذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى، فقال:

- ما عندك؟

- فقلت: خير، يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية!.

فخرج معي إلى المسجد، فقال للمؤذن:

- أذن في الناس: الصلاة جامعة.

فاجتمع الناس، ثم قال لي:

- قم، فأخبر أصحابك!

فقمتُ فأخبرتهم، ثم صلى، ودخل منزله، واستقبل القبلة فدعا بدعوات، ثم جلس، فقال:

- يا جارية، هل من طعام؟

فأتت بخبز وزيت، فقال:

- كُلْ.

فأكلتُ على حياء!

- ثم قال: يا جارية، هل من تمر؟

فأتت بتمر في طبق، فقال:

- كُلْ.

فأكلت على حياء!

- ثم قال: ماذا قُلْتَ، يا معاوية، حين أتيت المسجد؟

- قال: قلتُ: أمير المؤمنين قائل.

– قال: **بئس ما ظننتَ! لئن نمتُ النهار لأضيِّعَنّ الرعية، ولئن نمتُ الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية؟!**»[١].

هكذا استقبل عمر بن الخطاب، وعاصمة الدولة الإسلامية، بشارة الفتح العظيم، الذي دخلت به مصر في دين الإسلام فأذّن المؤذن: الصلاة جامعة. فلما اجتمع الناس، صلى الجميع وسجدوا جميعًا ـ في مسجد النبوة ـ شكرًا لله، سبحانه وتعالى الذي أدال دولة الروم، بعد أن أدال دولة الفرس، فتحررت شعوب الشرق من استبداد واستعباد وهيمنة «نظام» عالم ذلك التاريخ!.

أما الروم، فإنهم لم يجعلوا هزيمتهم في الإسكندرية ـ يوم الجمعة أول جمادى الثانية سنة ٢٠ هـ ١٨ مايو سنة ٦٤١م ـ نهاية أحلامهم في استعمار مصر والشرق فنقضوا العهد الذي عاهدوه عقب الهزيمة، وتآمروا مع من بقي منهم بالإسكندرية، واقتحموا المدينة من البحر في سنة ٢٥ هـ سنة ٦٤٦م واحتلوها إلى أن عاد إليها عمرو بن العاص، فقاتلهم وهزمهم، وفتح الإسكندرية ـ الفتح الثاني ـ في تاريخ هذا الصراع.

ولقد كان هذا الغدر رومانيًّا خالصًا!. وبعبارة المؤرخين: «وأما المقوقس فبقي ثابتًا على صلحه، ولم يغدر»[٢].

بل ظلت القسطنطينية ـ عاصمة الدولة البيزنطية ـ تُجَيِّش الجيوش لاستعادة الشرق من الدولة الإسلامية حتى تاريخ الفتح العثماني لها (٨٥٧ هـ ١٤٥٣م) بقيادة السلطان محمد الفاتح (٨٢٢ ـ ٨٨٦هـ ١٤٢٩ ـ ١٤٨١م).

فمصر كانت، وظلت، في «النظام الغربي» بوابة استعمار الغرب للشرق، وضمانة بقاء هذا الاستعمار ولذات السبب كانت أهميتها في الفتوحات التحريرية التي غير بها الإسلام قيادة الحضارة، ومقاصدها، فغير بذلك مجرى التاريخ.

***

لقد دخل الجيش الإسلامي إلى مصر، فميز فيها بين «الأمة المقهورة» التي أمَّنها وحررها وأحياها والتحم بها وبين «الدولة القاهرة» التي حاربها وهزمها وطوى صفحة استعمارها لمصر وقهرها للمصريين.

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٨١.
(٢) محمد مختار باشا المصري (التوفيقات الإلهامية في مقارنة التاريخ)ـ توقيعات سنة ٢٥ هـ. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.

ولعل في تمايز هذا الموقف الإسلامي ـ إزاء «الأمة» و«الدولة» ـ السر في ذلك الخلاف الشهير بين المؤرخين الذين كتبوا عن الفتح الإسلامي لمصر خلافهم حول فتح مصر، وهل كان «عُنْوَة» ـ بالقتال؟ أم كان «صلحًا» ـ دونما قتال ـ ؟؟[1].

فمصر «الأمة.. والشعب» قد فتحت «صلحًا» وحتى قبل تعاقد المقوقس، عظيم القبط، مع عمرو بن العاص على هذا الصلح ومنذ أن عرف المصريون نبأ دخول عمرو بن العاص وجيش الإسلام إلى أرض سيناء؛ فالمصريون قد وقفوا يساندون الجيش الإسلامي الفاتح منذ معركة «الفرما» في شمالي سيناء ومنذ ذلك التاريخ، أيضًا، كان قرار وتوجيه بطرك مصر «أبو ميامين» ـ وهو منفي وهارب في الصحراء ـ.

أما «مصر» الدولة البيزنطية، فإنها هي التي «فتحت ـ بل وقُهِرَت ـ عنوة وقتالًا».. بل وقتالًا شرسًا، استغرق من الجيش الباسل، الذي ضم جمهرة من الأبطال، صحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم وأرضاهم، أربع سنوات؛ فكان أطول «فتوح العنْوَة» في تاريخ فتوحات الإسلام!.

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٨٤ ـ ٩٠.

الإحياء الإسلامي لمصر..
والإحياء المصري للإسلام

لم يكن الإحياء الإسلامي لمصر مقصورًا على الذين أسلموا من أهلها دون سواهم من شعبها فلقد كان الإسلام ـ كما مثلته الشريعة الخاتمة ـ هو «اللَّبِنَة» المتممة لمكارم الأخلاق الدينية ـ كل الأخلاق الدينية ـ. ومن ثَم، فإنه قد استهدف إحياء كل مكارم الأخلاق الدينية لدى جميع أبناء الشرائع والرسالات السماوية التي سبقت شريعة الإسلام المحمدية.

وكان الإسلام هو الشريعة الخاتمة، التي تحيي ما لم يتجاوزه التطور وتصحح ما أصابه التحريف وتحقق ما حدث الاختلاف فيه، في كل شرائع السماء.

وكان الإسلام هو الدين الذي لا يكتمل إيمان المؤمنين به إلا إذا آمنوا بكل الرسل والرسالات، والأنبياء والنبوات، والكتب التي سبق وأوحى بها الله ـ سبحانه وتعالى ـ على مر تاريخ الرسالات الدينية.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

وكان الإسلام هو الدين الذي يعلِّم الناس أن تعدد البشر في الشرائع واختلافهم في الملل هو السنة الإلهية والقانون الديني الذي لا تبديل له ولا تحويل.

﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨﴾ (المائدة: ٤٨) ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ﴾ (هود: ١١٨ـ ١١٩).

ولذلك؛ كان الإحياء الإسلامي إحياء لمطلق الدين الإلهي الواحد، الذي تعددت فيه الملل والشرائع والرسالات والنبوات، وكان الإحياء الإسلامي، في مصر، تصحيحًا وتجديدًا واستئنافًا ترتفع به مجددًا راية التوحيد، التي رفعتها مصر منذ رسالة نبي الله

إدريس ـ عليه السلام ـ في فجر الاجتماع البشري؛فالإسلام كمال وتمام للدين الإلهي الواحد، وليس نقضًا ونفيًا لما سبقه من الدين!

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة: ٤٨).

ولأن أهل مصر قد عانوا الشدائد القاسية والمحن القاتلة في ظل القهر الروماني؛ فلقد رأوا في دولة الإسلام الحرية والتحرير المنقذين لهم من الهلاك، الأمر الذي جعل الإسلام لهم: الحياة والإحياء.

ونحن عندما نتأمل حوار «حاطب بن أبي بلعتة» ـ الحامل لكتاب رسول الله ﷺ إلى شعب مصر ـ مع «المقوقس» عظيم القبط؛ نطالع هذه الرؤية الإسلامية لعلاقة الإسلام بما سبق شريعته من شرائع السماء. فحاطب ـ الصحابي المسلم ـ يتحدث إلى المقوقس ـ النصراني القبطي ـ فيقول له:

ـ «وإن لك دينًا لن تَدَعَهُ إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافي الله به فقد ما سواه ـ (أي أن الإسلام شامل لحقيقة النصرانية، وزائد عليها، ومتجاوز لها) ـ، وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد. وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ـ (أي أن الإسلام مصدق لما بين يديه من كتاب، تصديق الإنجيل لما قبله من التوراة) ـ ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به».

فالفتح الإسلامي لمصر، لم يكن بالنسبة لأجدادنا أقباط مصر، أمرًا بالتخلي عن دين المسيح، وإنما كان دعوة للالتزام بحقيقة دين المسيح!. ومن هنا فلم يكن غريبًا أن يمثِّل هذا الفتح الإسلامي الإحياءَ الحقيقي لنصرانية الأقباط المصريين!.

لقد أعاد إليهم، لأول مرة في تاريخ النصرانية المصرية حرية العقيدة، وحرية الاختيار، وبعد أن كانت النصرانية عقيدة مضطهدة ومطاردة وهاربة، تقدم الضحايا والشهداء على امتداد

القرون الستة التي سبقت الفتح الإسلامي؛ تمتعت لأول مرة في تاريخها، بالحرية والأمان.

وبعد أن كانت كنائسها وأديرتها مغتصبةً من قِبَل مسيحية الدولة الرومانية الاستعمارية ـ «مسيحية بولس» ـ ومذهبها الملكاني ـ حرر الفتح الإسلامي هذه الكنائس الوطنية وأعادها إلى الأقباط، فكانت المرة الأولى التي يحرر فيها أهل دينٍ مقدساتِ دين آخر، لا ليحوزوها لأنفسهم ودينهم؛ وإنما ليعيدُوها إلى أبناء الدين المغاير!.

فكأن الإسلام- بذلك- هو الذي بنى كنائس مصر القبطية من جديد!.

وبعد أن كان البطرك القبطي «بنيامين» ـ أو «أبوميامين» ـ (٣٩هـ ٦٥٩م) ـ وهو رمز النصرانية المصرية ـ ومذهبها اليعقوبي ـ هاربًا في الصحاري ثلاثة عشر عامًا.. منذ أن طلبه هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م) قيصر الروم؛ ليقتله، فلما هرب من هرقل، أحرق هرقل أخاه «مينا» ـ عداوة لليعاقبة، كما يقول المقريزي (٧٦٦ ـ ٨٤٥هـ ١٣٦٥ ـ ١٤٤١م)؛ جاء الفتح الإسلامي، فأرسل عمرو بن العاص إلى «بنيامين» بعهد الأمان و«كتب عمرو «لبنيامين» بطرق اليعاقبة أمانًا، في سنة عشرين من الهجرة، فسَرَّه ذلك، وقَدِم على عمرو، وجلس على كرسي بطركيّته بعد ما غاب عنه ثلاث عشرة سنة فغلبت اليعاقبة على كنائس مصر ودياراتها كلها، وانفردوا بها دون الملكية..»[١].

وهكذا كرّس الفتح الإسلامي لمصر إحياء وازدهار وبقاء أعرق الكنائس الوطنية للنصرانية على الإطلاق وظل ذلك شاهدَ صدق على ما مثَّله الإسلام في مصر من الإحياء الديني، لمطلق الدين وليسٍ فقط لدين وشريعة الإسلام.

وكما استوعبت الحضارة الإسلامية علوم مدرسة الإسكندرية، التي بدأت ترجماتها العربية منذ القرن الهجري الأول، بتوجيه وقيادة ومشاركة الأمير الأموي خالد بن يزيد (٩٠هـ ٧٠٨م)؛ فلقد استوعبت هذه الحضارة الإسلامية كذلك ما سبقها من المواريث الدينية، والقيم الإيمانية، بل وغدا أبناء هذه المواريث صُنّاعًا

(١) المقريزي (الخطط) جـ٣ ص٥٣٤، ٥٣٥. طبعة دار التحرير. القاهرة.

وشركاء في هذه الحضارة الجديدة، التي مثلت بالنسبة للجميع جامع الانتماء الحضاري الواحد، الذي استوعب الموروث، ووظّفه في هذا البناء الحضاري الجديد.

فقبْل الفتح الإسلامي لمصر، كانت النصرانية المصرية مجرد «ثقافة مقهورة»، محرومة من صناعة الحضارة الخاصة بها، فلا «سياسة» ولا «دولة» ولا «اقتصاد» ولا «اجتماع». من سمات الحضارة وقسماتها ـ لأن «دنيا مصر ودولتها» ـ التي منها ولها وبها تتبلور الحضارة ـ كانت «هلينية ـ رومانية ـ استعمارية». فلما جاء الفتح الإسلامي، تحررت مصر وتحررت نصرانيتها، وغدت ـ في ظل الإسلام ـ مشاركةً في صنع الحضارة العربية الإسلامية، على قدم المساواة مع المسلمين.

* * *

أما على الجبهة الإسلامية ـ في البشر والعلوم ـ فإن دور مصر في الإحياء الإسلامي والإبداع الحضاري والثراء العلمي والتجديد الفكري والتميز في المنهاج؛ قد جسدته آلاف المجلدات. وفي مقامنا هذا تكفي إشارات إلى معالم هي أشبه بالعناوين:

● إن مصر قد وصلت «توحيد» خاتمة الرسالات السماوية ـ الإسلام ـ بتوحيد رسالة نبي الله إدريس ـ التي عاصرت آدم أبي البشر، وأولى الرسالات السماوية التي عرف التاريخ لها وطنًا تواصلت فيه ومضات هذا التوحيد ـ فكأنها قد أمسكت «خيط» التوحيد من طرفيه!.

● وهي قد وصلت خاتمة الحضارات ذات الصبغة الإلهية ـ الحضارة الإسلامية ـ بأعرق الحضارات الإنسانية ـ الحضارة المصرية القديمة ـ والتي بدأت، هي الأخرى، ذات صبغة دينية، عندما جاءت تعاليم علومها المدنية علمًا إلهيًّا بثه في المصريين نبيُّ الله إدريس، عليه السلام.

● ومصر، قد وقفت في مقدمة شعوب الإسلام التي مثلت وتمثل الوسطية الإسلامية ـ التي هي خصيصة الإسلام وأمته، كما أرادها الله، سبحانه وتعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾ (البقرة: ١٤٣).

● ففي الاختلافات المذهبية: اختارت مذهب جمهور الأمة، مذهب أهل السنة والجماعة، مع حب لآل البيت ـ آل بيت رسول الله ﷺ ـ الذين ظلموا ـ فشاعت في أسمائها أسماؤهم، وقامت على أرضها مزاراتهم ـ دون أن يشوب هذا الحب غلو الإفراط عند الذين تعصبوا لآل البيت، ولا شوائب غلو التفريط الذي أصاب من ناصبوها العداء ـ **بل لقد ظل المسلمون المصريون يضعون شهداء أقباطها ـ في الصراع مع الرومان ـ ومزاراتهم في نفس مصاف الشهداء والقديسين والأولياء المسلمين!.**

● وفي المذاهب «الكلامية» ـ مذاهب أصول الدين ـ احتضنت مصر مذهب جمهور الأمة ـ أشعرية أهل السنة والجماعة ـ الذي حاول الجمع والتأليف بين عناصر الحق والعدل في مذاهب الإسلاميين، وكان هذا هو حال جامعاتها العلمية ـ وفي مقدمتها الأزهر الشريف ـ تلك التي احتضنت كل تراث الأمة وجميع مذاهبها، وتعاملت مع خلافاتها بأمانة ومسئولية وأفق لا يعرف تحيزات المتعصبين.

● وفي المذاهب الفقهية ـ مذاهب علم الفروع ـ اختارت مصر مذاهب أئمة أهل السنة والجماعة، وذلك دون أن تقف عند مذهب واحد منها، حتى لا تنمو فيها بذور التعصب المذهبي. لقد توزع جمهورها بين «المالكية» و«الشافعية»، وهما أكثر المذاهب الفقهية جمعًا ـ بالوسطية ـ بين «الرأي» و«الأثر» ـ مع دوائر، بين أهل مصر، «للأحناف» «أهل الرأي»، و«الحنابلة»، «أهل الأثر»، تعلن عن الوجود لهم والقبول بهم.

● وفي السياسة والدولة، سرعان ما أصبحت مصر الإسلامية ـ بعد فترة نقاهتها من الاضطهاد الروماني وقهره الحضاري ـ سرعان ما أصبحت «ولاية قائدة» و«إمارة رائدة» ثم غدت «كرسي خلافة» و«عرش سلطنة» أغلب قرون تاريخ الإسلام، وذلك بدءًا من الدولة الطولونية (٢٢٦ ـ ٢٩٢هـ ٨٧٩ ـ ٩٠٥م) فالدولة الإخشيدية (٣٣٣ ـ ٣٥٧هـ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م) فالدولة

الفاطمية (٢٩٧ ـ ٥٦٧هـ ٩٠٩ ـ ١١٧١م) فالدولة الأيوبية (٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ ١١٧١ ـ ١٢٥٠م) فالدولة المملوكية (٦٤٨ ـ ٩٩٢هـ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)؛ فعَلَى امتداد نحو سبعة قرون كانت مصر ـ في الدولة والسياسة ـ مقر الخلافة والسلطنة الجامعة لأغلب أقطار وأقاليم دار الإسلام.

● وفي مواجهة التحديات الشرسة التي اقتحمت ديار الإسلام ـ وأغلب تاريخنا تحديات! ـ حققت مصر في الممارسة والتطبيق نبوءة رسول الله ﷺ، التي أوصى فيها باتخاذ الجند الإسلامي فيها؛ لأنهم في رباط إلى يوم القيامة.. «اتخذوا فيها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض؛ لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة».

صدّقت مصر وحققت ـ في الممارسة والتطبيق وعبر تاريخ الإسلام ـ هذه النبوءة النبوية؛ فكانت هي التي جيشت الجيوش وعبأت الجهود وجهزت الكتائب وقادت الجهاد وتقدمت الصفوف لمقاتلة الغزوة الصليبية (٤٨٩ ـ ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م) والتحالف «الصليبي ـ المغولي» (٦٥٨ هـ ١٢٦٠م) ـ في «عين جالوت».

والالتفاف والتطويق البرتغالي للعالم الإسلامي ـ على شواطئ الهند ـ (١٩١٠هـ ١٥٠٤م) والحملة الفرنسية (١٢١٣ ـ ١٢١٦هـ ١٧٩٨ ـ ١٨٠١م) وحملة «فريزر» الإنجليزية (١٢٢٢هـ ١٨٠٧م) والاحتلال الإنجليزي (١٢٩٩ ـ ١٣٧٥ هـ ١٨٨٢ـ ١٩٥٦م) بل وقادت وموّلت وساعدت حركات التحرر الوطني ضد كل ألوان وقوى الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام، وما حول وطن العروبة وعالم الإسلام، ولا تزال حاملة لهذه المسئولية القيادية في مواجهة تحدي «الشراكة الإمبريالية ـ الصهيونية»، منذ قيام هذه «الشراكة» وحتى هذه اللحظات.

● أما في الإبداع الحضاري فلقد روت مصر ثمرات الإسلام من جذور إبداعها الحضاري القديم فكان لها الإسهام المتميز في مختلف علوم الحضارة الإسلامية، الشرعية منها والمدنية، علوم المقاصد وعلوم الأدوات والآليات: في علوم القرآن الكريم

وعلوم السنة النبوية الشريفة وعلوم العربية وآدابها وفنون القول والتثقيف للنفس الإنسانية وعلوم الفقه الأكبر وأصول الدين وعلوم الفقه وأصوله وعلوم السيرة والملاحم والقصص والتاريخ وعلوم البناء والتشييد وزخرفة الواقع وزينة المكان وعلوم الحرب والجهاد والقتال وعلوم السلم وتنمية العمران في الزراعة والصناعة والتجارة والحرف التي تواصلت فيها إبداعات الشعب عبر العصور والقرون.. إلى آخر كل ميادين الإبداع الحضاري، التي تتزين بها النفس والبيئة، ويصلح بها «المعاش» و«المعاد»!.

● بل إن مصر، التي لم تعرف التسامح الديني في تاريخها السابق على الإسلام ـ عندما استعرت نيران الاضطهاد الديني بين أتباع «آمون» وأنصار «إخناتون»، وطاردت الوثنية المصرية طلائعَ النصرانية الوافدة على أرضها، وتواصل الاضطهاد من الوثنية الرومانية ـ بل ومن نصرانيتها «الملكانية» ضد النصرانية القبطية «اليعقوبية» ـ حتى لقد سالت الدماء، وتوالت مواكب الشهداء، وهُدّمت المعابد والكنائس، وأحرقت المكتبات، وسُحل الكهنة والفلاسفة..! إن مصر هذه ـ التي اكتوت بنيران هذا التعصب الديني وذلك الاضطهاد المذهبي ـ سرعان ما كشف الإسلام عن معدنها الأصيل وخلقها النبيل، وذلك عندما تدينت بالإسلام، فعلمت وتعلمت أن سنة الله في الخلق هي التعددية في الملل والديانات، والاختلاف في المذاهب والفلسفات، فاستبدلت السماحة بضيق الصدر والأفق، واستعاضت بالتعايش بين الديانات عن غرائز الواحدية المذهبية والأثرة الدينية، فغدت في العالمين مضرب الأمثال في القبول بالآخر الديني والتعايش السلمي مع المخالفين.

حدث ذلك لمصر، منذ أن وعت معنى الكلمات التي قالها حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى «المقوقس» ـ حاطب بن أبي بلعتة ـ والتي خاطب بها «المقوقس» فقال:

ـ «ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به»!.

وزاد وعيها بهذا الموقف الإسلامي الجديد، عندما قرأت وحفظت ورتلت في صلواتها قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥) ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨﴾ (المائدة: ٤٨) ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ (هود: ١١٨، ١١٩).

لقد بدأت مصر، بذلك طورًا جديدًا، أحيا فيه الإسلام سماحتها، فغدت سماحتها هذه من فضائل عالم الإسلام.

***

كل هذا صنعه الفتح الإسلامي بمصر وصنعته مصر للإحياء الإسلامي فكان هذا الفتح ـ الذي نطل على ذكراه الـ ١٤٠٠ (أربعة عشر قرنًا على تمامه) ـ عيد ميلاد مصر الإسلامية، وإيذانًا بعودة كنانة الله في أرضه إلى موقعها القائد ومكانتها الرائدة في صناعة الحضارة، وقهر التحديات، والتصدي للاستكبار والاستغلال، وتحرير ملكات وطاقات الإنسان واسترخاص كل غالٍ وبذل كل نفيس في سبيل حمل هذه الأمانات.

وإذا كان هذا الفتح الإسلامي لمصر (سنة ٢٠هـ ٦٤٠م) قد أعاد إلى مصر عافيتها الحضارية، فغدت القائدة والرائدة في سائر ميادين الفتوح، عبر تاريخ الإسلام، وإذا كانت قد صنعت ذلك بالإسلام، وله ولأمته وحضارته وعالمه؛ فإن أفضل احتفال بذكري هذا الفتح العظيم هو الذي يسدد خطوات مصر على هذا الطريق.. طريق العزة بالإسلام وتحقيق العزة للإسلام والمسلمين.

بل إننا مدعوون إلى تحقيق وتحرير التواريخ التي شهدت فيها مصر رسالات وصحوات وومضات التوحيد الديني، عبر تاريخها الطويل ـ منذ رسالة إدريس ـ عليه السلام ـ وحتى رسالة محمد، خاتم الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ. وعبر رسالة موسى وهارون والمسيح عيسى ابن مريم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

إننا مدعوون إلى تحقيق وتحرير تواريخ استقبال مصر لأنوار

التوحيد الإلهي والشرائع السماوية؛ لتكون هذه التواريخ أعيادًا قومية يشارك في إحيائها كل المتدينين بديانات التوحيد، في هذا البلد الآمن، الذي حمل أهله هذه الأمانة عبر هذا التاريخ الطويل والعريق.

فلنحتفل بعيد ميلاد مصر الإسلامية الذي يقبل علينا مرور أربعة عشر قرنًا على ذكراه، ولنحتفل بعيد ميلاد النصرانية في مصر ـ منذ القرن الميلادي الأول ـ.

ولنحتفل بنصر الله توحيد موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ على استبداد الفرعونية واستغلال القارونية، ولتكن أعياد التوحيد الإلهي هي الأعياد الموحدة لكل المصريين بل ولكل العرب والمسلمين[١].

(١) تلك هي الدراسة التي كتبناها ونشرناها مع مقدم ذكرى مرور أربعة عشر قرنًا على الفتح الإسلامي لمصر سنة ١٤١٨هـ والتي حملت عنوان: [عندما دخلت مصر في دين الله].

الفصل الأول
طوفان الشبهات والافتراءات

لقد عرفت حياتنا الفكرية نزعات عنصرية، وتوجهات طائفية، ومذاهب فكرية، سعى أصحابها إلى تجريد مصر من هويتها العربية الإسلامية. وفي سبيل ذلك سعى بعض أصحاب هذه النزعات والتوجهات إلى الافتراء على الفتوحات الإسلامية، وعلى الفتح الإسلامي لمصر على وجه الخصوص؛ فكان طوفان الشبهات والافتراءات التي نسردها والتي نفندها بالشهادات الموثقة والوثائق الشاهدة، وأيضًا بكشف الزيف والتناقض اللذين وقع فيهما أصحاب هذه الشبهات والافتراءات.

● ولأن الفتح الإسلامي لمصر قد كان ثمرة من ثمرات ظهور الإسلام، هذا الدين الذي جاء كتابه مصدقًا لما بين يديه من كتاب والذي جاء رسوله ﷺ خاتمًا لإخوانه الأنبياء والمرسلين. فلقد ارتفع سقف العداء للفتح الإسلامي لمصر فشمل الدعوة لنقض عرى الإسلام ذاته بل ونقض عرى كل الديانات السماوية والدعوة إلى الارتداد إلى الفرعونية العرقية والحضارية بل والدينية أيضًا!!.

فصدر كتاب كبير حمل غلافه أسماء لا سابقة لها في التأليف! ووزّع مجانًا ـ بل وخلسة ـ في بعض المؤتمرات الجامعية!؛ جاءت فيه الدعوة إلى:

١ـ الانقلاب على الإسلام ـ ومعه الديانات السماوية الأخرى والعودة للوثنية الفرعونية وحكمها العسكري، وذلك «باعتبار كل حاكم غير مصري الأصل فإن دولته هي دولة احتلال. ودول الاحتلال تمتد من عام ٣٣٢ قبل الميلاد وحتى عام ١٩٥٢م، وقيام الجمهورية والدولة ـ الثانية ـ بعد الدولة الفرعونية؛ حيث استمرت مصر محتلة طوال ٢٢٨٤ سنة، فمصر أصبحت أطول مستعمرة في العالم. إن عصور ملوك الفراعنة، ابتداءً من الملك مينا ٣٢٠٠ ق.م حتى بدء الاحتلال الاستيطاني اليوناني عام ٣٣٢ ق.م؛ هي الدولة المصرية القومية الأولى، والفترات ما بين الفرعون نفتانيو (٣٥٩ ـ ٣٤١ ق.م) والرئيس محمد نجيب (١٣١٩ ـ ١٤٠٤هـ ١٩٠١ ـ ١٩٨٤م) هي فترة حكم أجنبي، وحكام أجانب، ودول احتلال[١].

(١) أحمد عاشور، صبحي السيد عاشور. [الوطن الأم: دراسة في الثقافة القومية المصرية] ص٦،٨،٤١٩،٤٢٤. الطبعة الأولى ١٩٩٩.. بدون ناشر.

وأمام هذا «المفهوم العنصري» لمعنى «الاستقلال»، والذي جرد الإنسان المصري من «صناعة الحضارة»، نتساءل:

– هل دولة نظام يوليو سنة ١٩٥٢م مصرية ـ بهذا الفهم العنصري العرقي للمصرية ـ؟!. إن اللواء محمد نجيب ـ أول رئيس لهذه الدولة ـ نصف سوداني وإن جمال عبد الناصر (١٣٣٦ ـ ١٣٩٠هـ ـ ١٩١٨ ـ ١٩٧٠م) الحاكم الحقيقي لدولة يوليو سنة ١٩٥٢م. هو عربي من بني مر، وإن خليفته محمد أنور السادات (١٣٣٧ ـ ١٤٠١هـ ـ ١٩١٨ ـ ١٩٨١م) هو من آل البيت ـ قرشي من بني هاشم ـ، كما أن هذه الدولة كانت دولة القومية العربية والانتماء للإسلام، فأين هي «المصرية العنصرية» التي تجعل دولة سنة ١٩٥٢م استقلالاً قطع ويقطع هذا «الاحتلال» الذي قارب امتداده (٢٢٨٤ عامًا)؟![1].

٢ـ وفوق هذه العنصرية، التي تحكم على مصر وتاريخها بالإعدام جاءت في هذا الكتاب ـ [الوطن الأم] ـ الدعوة إلى تجريد مصر من كل آثار الديانات السماوية، والعودة بأهلها إلى عبادة «التاسوع المصري المقدس»، إذ «لن يعود الوطن المصري ليتبوأ مكانته اللائقة بتاريخه إلا بإعادة التاسوع المصري المقدس الخالد في قلوب الشعب عن طريق تسييره في ربوع الوطن، وذلك بمراجعة كل التشريعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، واستبعاد وتجريم أي نشاط لا يؤدي بالضرورة إلى تحقيق قيمة من القيم التسع للتاسوع المصري المقدس».

أي أن المطلوب ـ لاستقلال مصر ـ رفض التوحيد الديني الذي جاءت به الديانات السماوية، وإحلال التاسوع المصري الفرعوني المقدس محل هذا التوحيد!.

وهنا يتساءل القارئ عن ماهية هذا التاسوع المقدس؟.

والجواب ـ في علم المصريات القديم ـ يقول: «إن التاسوع المصري المقدس: هو مجموعة الآلهة التسعة العظمى التي كونت «الأسر الإلهية» لمدينة «أون» ـ هيليوبوليس القديمة ـ وهم ـ عند المصري القديم ـ القوى الطبيعية التي يمكن أن تدخل في تكوين العالم. وهذا التاسوع يتكون من:

(١) المرجع السابق. ص٤٢٤.

١ـ الخالق «آتوم» الذي خلق نفسه من نفسه، فكان بذلك أول الخلق، وما لبث أن خلق من نفسه معبودين، هما:

٢- «شو» ـ رب الفضاء ـ.

٣ـ و«تفنوت» ـ ربة الرطوبة ـ.

خلقهما بأن تناول من نفسه وبيده كمية من المنيّ وضعها في فمه بين أسنانه وشفتيه، ثم عطس، فكان «شو»، وتفل، فكانت «تفنوت».

وتزوج المعبودان وأنجبا:

٤ـ «توت» ـ ربة السماء ـ.

٥ـ و«جب» ـ رب الأرض.

وتزوجا أيضًا وأنجبا أربعة، هم:

٦ـ أوزيريس.

٧ـ وإيزيس.

٨ـ وست.

٩ـ ونفتيس[1].

نعم! هذا هو التاسوع المصري المقدس، الذي يريده أعداء الهوية الإسلامية لمصر، وخصوم الفتح الإسلامي لمصر، من دعاة العنصرية الفرعونية، معبودًا بديلًا للتوحيد الديني الذي جاءت به ديانات السماء، والذي بلغ قمة التنزيه والتجريد في الإسلام.

ولم يسأل أصحاب هذه الدعوة أنفسهم:

ـ هل كانت دولة يوليو سنة ١٩٥٢م عابدة لهذا التاسوع، بدلًا من الله الواحد الأحد، حتى تكون ـ عندهم ـ هي الدولة المصرية الثانية، التي قطعت تاريخ الاحتلال لمصر ـ الذي دام ٢٢٨٤ عامًا ـ؟!.

٣ـ وفوق ذلك، يعتبر أصحاب هذه الدعاوى «عسكرة الدولة» خصوصية من خصائص النموذج الفرعوني، الذي إليه يدعون! «فلقد كان من ثوابت الدولة المصرية القومية الأولى أن يحكمها الفرعون الملك، وهو دائمًا القائد الأعلى للقوات المسلحة؛ فالنظام المصري الذي ترأسه حاكم من المؤسسة العسكرية قائد

(١) [الموسوعة المصرية] المجلد الأول. الجزء الأول. ص١٦٨، ١٦٩. طبعة وزارة الثقافة والإعلام. القاهرة.

أعلى للجيوش هو تقليد مصري أصيل يشكل استمرارية حقيقية للتاريخ» ![1]

تلك هي الأركان الثلاثة لثقافة الوطن الأم ـ التي إليها يدعون ـ:

أ ـ الفرعونية العنصرية ـ الإثنية ـ.

ب ـ وعبادة التاسوع الفرعوني المقدس.

جـ ـ والحكم العسكري للدولة.

إنها معالم حكم النظام المثالي المعبر عن استقلال الوطن، والذي يقولون في وصفه ومديحه: «إن آلهة التاسوع المقدس عادلة، فهي التي خلقت المصريين متساويين ولأن الملك إله؛ فلابد أن يراعي سيره العدل وألا يظلم رعيته فتراث مصر القديمة يكاد يخلو من خطيئة واحدة على المستوى الأخلاقي والإنساني. إنها صورة رائعة رغم بعد الزمن لحقوق الإنسان»[2].

لكن أصحاب هذه الدعاوى، التي ترسم هذه الصورة المثالية للوثنية الفرعونية، وعنصريتها الإثنية، ونظامها العسكري، قد وقعوا ـ هم أنفسهم ـ في سلسلة من التناقضات التي تبدد هذه الصورة المثالية التي فيها يتغزلون.

.. فلقد أوردوا صورة لخطاب من حاكم «حمص» إلى الفرعون يقول له فيه: «أنا خادمك أنا عبدك»! ورسالة أخرى من أحد الأمراء «أبيمالك» للفرعون يقول فيها: «أتشرف بأن أسجد بين يدي سيدي سبع مرات، وسبع مرات أخرى، فأنا الأديم الذي تحت خفي سيدي الملك»!. وفي خطاب آخر يتحدث صاحبه إلى الفرعون قائلًا: «أنا الأرض التي تطؤها قدماك، والمقعد الذي تجلس عليه، والمسند الذي تضع عليه قدميك»!. وفي خطاب آخر يقول صاحبه للفرعون: «أنا كلبك»[3]!

أما النظام العسكري ـ الذي جعله أصحاب هذه الدعاوى من خصائص هذا النظام المثالي، الذي دعَوْا للعودة إليه بديلًا عن الإسلام وهويته ونظامه وتاريخه وحضارته؛ فلقد اعترفوا بأنه السبب في اضمحلال هذا النظام ـ الذي بشروا بالعودة إليه ـ!!؛ فقالوا: «**إن دور العسكريين داخليًّا، قد خلق طبقة عسكرية امتلكت أهم موارد البلاد، وانصرفت إلى الصراع على السلطة**. ومع

(١) [الوطن الأم] ص٤٢٥.
(٢) المرجع السابق. ص٣٤، ٣٥.
(٣) المرجع السابق. ص ٣٦.

هذه الطبقة العسكرية كانت المؤسسة الدينية ـ الفرعون العسكري وكهنة التاسوع المقدس ـ الذين تضخمت ملكيتهم بشكل غير مسبوق. فثروة الإله رع بلغت ١٠٪ من الأرض المزروعة وله ٨٦,٥٠٠ من الرقيق، ونحو ٤٢١ ألف رأس ماشية، وحدائق في طول البلاد وعرضها، ومناجم الذهب في النوبة، وتسع مدن سورية تأتي ضرائبها ومحاصيلها بانتظام.

أما ثروات معبد آمون في طيبة، فكانت تعادل ثروات الإله في عين شمس بستة أضعاف، وثرواته في منف بستة وعشرين ضعفًا، فمعبد طيبة يمتلك من الفضة نحو ٨٠٥,٧٩٧ كجم، ومعبد منف ٣٥٩,٩كجم. ومن الحبوب نجد الأرقام على التوالي ٩٥٠,٩,٣ كيسًا و١٠٠,٧٧ كيسًا و٤٠٠,٦٧ كيسًا»[1] .. الخ الخ.

ومع كل هذا البلاء ـ الذي اعترف به أصحاب هذه الدعاوى ـ **ظلوا يتحدثون عن الفتح الإسلامي باعتباره «احتلالًا رعويًّا قاسيًا، أوصل مصر إلى الحضيض الثقافي والسكاني وممثلًا لدور من أدوار الصراع بين الرمل والطين طوال ١١٦٤ سنة. أتاح للبدو، وهم تراب البشرية المخلخل المشتت المشرد، أن يطغوا على أقدم مجتمع زراعي في العالم»**[2]!

وهنا نتساءل:

ـ هل ثقافة الإسلام ـ ثقافة العدل والتوحيد والتنزيه، وتكريم مطلق بني آدم ـ أدني من ثقافة الوثنية الفرعونية؟!

ـ وهل يستوي كل رمل؟ وفيه امرؤ القيس وفيه أبو جهل؟!.

ـ وهل صحابة رسول الله ﷺ خريجوا مدرسة النبوة، الذين جسدوا الشمائل الإسلامية، هم تراب البشرية المخلخل المشتت المشرد؟!

ـ وهل خلت مصر من الرمل؟ أم أن نسبة الرمل فيها تزيد على ٩٥٪ من أرضها؟

ـ وهل يمكن لعاقل ـ في أي وطن من الأوطان، وحضارة من الحضارات ـ أن يدعو قومه إلى التحرر من تاريخهم وهويتهم وواقعهم، والعودة عن مراحل النضج الحضاري إلى مرحلة الطفولة ـ مهما كانت صورتها في الخيال ـ؟. وكيف ستكون صورة

(١) المرجع السابق. ص ٣٧ ـ ٣٩.
(٢) المرجع السابق. ص١١٧، ١١٨.

دول العالم وحضاراته إذا تخيلنا ـ مجرد تخيل ـ تحقيق مثل هذه الدعوات؟!

لقد استفادت الحضارة الغربية ـ في طفولتها الإغريقية ـ من الحضارة الشرقية ـ في طفولتها الفرعونية ـ لكنها في مرحلة نضجها الحديث لم تعد لاستلهام الفرعونية، وإنما استلهمت الحضارة الإسلامية، التي مثلت نضج الحضارات الشرقية.

والحضارات والأمم والشعوب مثلها كمثل الكائن الإنساني الحي، لا يقيم قطيعة مع طفولته، ولكنه لا يعود عن مرحلة نضجه إلى مرحلة طفولته بأي حال من الأحوال.

ـ ثم هل يمكن أو يجوز ـ في النظر إلى تاريخ «الفتوحات» ـ التسوية بين «فاتح» لمصر، وكان فتحه إزالة لاحتلال وقهر حضاري، وبين «فاتح» قاهر ظلت مصر تقاومه حتى لفظته، واستعصت على الاندماج في عقيدته وثقافته ولغته ـ رغم دوام قهره ألف عام ـ بينما اندمجت في العقيدة والثقافة واللغة التي جاء بها الفتح الإسلامي، فأصبحت حصنها الذي دافعت عنه ضد الفرنسة والجلنزة والتتريك؟

ـ وهل يجوز وصف الفتح الإسلامي «بالاحتلال الاستيطاني»[(١)] مع أن العرب الفاتحين قد ظلوا جندًا، منعوا من تملك الأرض فلم يكونوا احتلالًا استيطانيًا، كما عرفنا هذا النظام في الفرنسيين «المعمرين» بالجزائر والأوروبيين البيض في جنوبي أفريقيا والصهاينة المستوطنين في فلسطين ومن قبلهم الصليبيون في المشرق العربي؟!

ـ وهل يجوز لعاقل ـ مهما بلغ تجنيه على الفتح الإسلامي والهوية الإسلامية ـ أن يقول: «إن الثقافات الواردة من خارج الحدود المصرية هي الأدنى بالنسبة للثقافة المصرية الأصيلة»؟!

فهل المسيحية ـ وهي وافدة على مصر ـ وهل الإسلام ـ وهو وافد على مصر ـ أدنى من ثقافة ـ الوثنية المصرية ـ وثنية التاسوع المقدس ـ الذي تناول كبيره «آتوم» كمية من المني وضعها بين أسنانه وشفتيه، ثم عطس وتفل فكان خلق بقية آلهة هذا التاسوع؟!

ثم ما هي هذه «الثقافة المصرية الأصيلة»؟ أهي وثنية التاسوع؟ أم توحيد إخناتون؟ أم توحيد إدريس ـ عليه السلام؟

(١) المرجع السابق ص٦٠

ولم لا يعد التوحيد الإسلامي ـ ومن قبله التوحيد المسيحي ـ هو التجديد لثقافة التوحيد الإدريسية التي بدأت بها الثقافة المصرية الأصيلة؟[١].

* * *

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ذهب أعداء الهوية الإسلامية، وخصوم الفتح الإسلامي لمصر إلى تشويه صورة هذا الفتح المبين فقالوا:

٤ـ «إن الرواية اليهودية عن مصر، والرؤية اليهودية لمصر قد تحولت إلى رؤية عربية، فكانت عملية مسخ وتشويه كاملة قام بها العرب صقلًا وتهذيبًا لروايات توراتية يهودية كانت بالأساس محاولة لهدم الشخصية القومية»[٢].

فهل هذا صحيح؟

ـ إن مصر في الرواية اليهودية ملعونة، ومحكوم عليها بالخراب [سفر يوئيل ـ إصحاح ٣: ١٩] بينما مصر ـ في الرؤية الإسلامية ـ هي التي امتازت بحديث القرآن عنها في خمس وعشرين موضعًا، كما امتازت بوصية رسول الإسلامﷺ بأهلها تلك الوصية التي تحولت إلى فن من فنون التأليف عند المؤرخين المسلمين عنوانه «فضائل مصر». رأيناه كتبًا بهذا العنوان، أو فصولًا تتصدر كتب التاريخ.

كذلك، فإن الرواية الإسلامية ـ القرآنية ـ لصراع موسى – عليه السلام – وفرعون، ليست هي الرواية التوراتية؛ فالرواية التوراتية ـ في أسفار العهد القديم ـ تعمم العداء واللعنة على مصر وشعبها، بينما الرواية الإسلامية تقف بالعداء واللعنة عند فرعون وملئه؛ فالمعيار ليس العرق والجنس، وإنما الإيمان الديني، وامرأة فرعون وسحرته ومن سلك طريقهم هم مصريون يمجدهم القرآن الكريم.

ثم إن فتح الإسلام لمصر قد تم في ظل موقف إسلامي من اليهود، وصل إلى محاربتهم وإجلائهم عن جزيرة العرب ـ قاعدة الدولة الإسلامية وسياج المقدسات الإسلامية ـ وفي ظل موقف إسلامي أدان تحريف اليهود لتوراة موسى ـ عليه السلام ـ في ظل

(١) المرجع السابق ص٧.
(٢) المرجع السابق. ص١٢٢، ١٢٤.

لعنات صبها القرآن الكريم على أحبارهم ورهبانهم في عشرات الآيات.

فكيف يكون الموقف الإسلامي وتكون الثقافة الإسلامية هي الرؤية اليهودية عن مصر ـ على هذا النحو المزعوم ـ؟!.

ـ وإذا نحن استخدمنا منهاج «وشهد شاهد من أهلها» و«من فمك أدينك» فإن أحد أشد المؤلفات عداء للفتح الإسلامي لمصر، وتشويهًا لصورته، يورد قول عبد الله بن عمرو بن العاص (٧ ق.هـ ٦٥ هـ ٦١٦ ـ ٦٨٤م): «ولما خلق الله آدم، مثّل له الدنيا، شرقها وغربها، سهلها وجبلها، وأنهارها وبحارها، وعامرها وخرابها، ومن يسكنها من الأمم، ومن يملكها من الملوك، فلما رأى مصر رآها أرضًا سهلة، ذات نهر جار، مادته من الجنة، تنحدر فيه البركة، ورأى جبلًا من جبالها مكسوًّا نورًا، لا يخلو من نظر الرب، عز وجل، إليه بالرحمة، في سفحه أشجار مثمرة فروعها في الجنة، تسقى بماء الرحمة، فدعا آدم في النيل بالبركة، ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى، وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات قال: أيها الجبل المرحوم، سفحك جنة، وتربتك مسكة، تدفن فيها غراس الجنة، أرض حافظة مطبقة، رحيمة، لا خَلَتْك يا مصر بركة، ولا زال بك حَفَظَة، ولا زال منك مُلك وعِزّ، يا أرض مصر فيك الخبايا والكنوز، ولك البر والثروة، سال نهرك عسلًا، كَثَّر الله رزقك، وضرعك، وزكّى نباتك، وعظمت بركتك وخصبك، ولا زال فيك يا مصر ما لم تتجبري وتتكبري أو تخوني، فإذا فعلت ذلك عداك شر، ثم يغور خيرك..»[١].

فهل هذه الصورة التي رسمها الصحابي عبد الله بن عمرو بن العاص لمصر، وهو الذي شارك في فتحها تحت قيادة أبيه عمرو بن العاص هي صورة مصر في الثقافة اليهودية كما يزعم المرجفون؟!.

٥ـ وتمضي الافتراءات على الفتح الإسلامي لمصر، فتزعم أن هذا الفتح قد مثل «انتكاسة حضارية لمصر، إذ ماذا يمكن أن يقدم البدوي الذي لا يطول به المقام، أو الاستقرار، الذي يصبح رزق يومه هو الهم العام له ولعشيرته، دون التفات إلى إنتاجه

(١) سناء المصري (حكايات الدخول) ص١٩٢، ١٩٣. طبعة سينا للنشر. القاهرة سنة ١٩٩٦م. والكتاب ينقل عن ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة).

الحقيقي، وماذا يمكن أن تنتج الصحراء غير القسوة والتوحش وازدهار ثقافة الغزو والسلب والنهب، **والتي كانت ملمحًا في حياة العرب قبل الإسلام وبعده**»؟!.

ثم يمضي هذا الافتراء، فيورد وصف ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م) للأعراب، الذين استحكمت فيهم عوائد التوحش فصار لهم خُلقًا وجِبلة لا ينقادون للسياسة، وتتنافى طبائعهم مع العمران، وكلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعونٍ انْتَهبوه، فإذا تم اقتدارهم بالتغلب والملك بطلت السياسة وخرب العمران»![1].

يورد المفترون وصف ابن خلدون للأعراب المتوحشين، ويلصقونه بالعرب المسلمين، الذين نشئوا في حواضر الحجاز واليمن، والذين هذبهم الإسلام، وتربوا في مدرسة النبوة، والذين احتضنوا وأحيوا المواريث الحضارية للبلاد التي فتحوها ـ كتبًا وعلومًا وتماثيل ومؤسسات دينية ـ والذين مصروا الأمصار ـ ومنها «الفسطاط»، التي مثلت امتدادًا للعاصمة الوطنية المصرية، التي رمزت ـ تاريخيًّا ـ لعهد الاستقلال ـ والذين أقاموا مدنية زاهرة تعلمت منها الدنيا، والذين عرف الفكر والدين على أيديهم التعددية لأول مرة في التاريخ الإنساني.

كما يتجاهل أصحاب هذه المفتريات حقيقة أن مصر ـ عند الفتح ـ كانت فراغًا حضاريًّا، بفعل القهر الحضاري الذي أناخ عليها لعشرة قرون، ومن ثم فلم يصبها الفتح الإسلامي بالانتكاسة الحضارية، وإنما أحياها، فواصلت عطاءها الحضاري القديم بروح إسلامي جديد وفريد.

ـ وفي هجاء العرب والعقل العربي، تمضي الافتراءات فتزعم «أن احتقار الزراعة والفلاح هي أحد ثوابت العقل العربي قبل الإسلام وبعده وحتى الآن»[2].

ونحن نسأل:

من هم الفلاحون والزارعون الآن في أودية أنهار العالم العربي؟ أليسوا عربًا؟!

(١) (الوطن الأم) ص١٣٦، ١٣٧.
(٢) المرجع السابق. ص١٥٣.

وإذا صح هذا الزعم المفترى، وكان العرب يحتقرون الزراعة فكيف اتهمهم هؤلاء المرجفون المفترون بأنهم كانوا ـ في مصر ـ استعمارًا استيطانيًّا، حل في الأرض والزراعة محل المصريين؟!

٦ـ وتمضي المفتريات فتزعم «أن شروط التمييز العنصري بين العرب والمصريين قد عُرفت منذ بداية الغزو العربي لمصر»![(١)]

وهو افتراء يتجاهل أن الإسلام قد حول الإثنيات إلى أمة واحدة، وأنه قد جعل التمييز العنصري «عصبية جاهلية منتنة» طوى صفحاتها، ونهى عنها، ووضع قاعدة: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»؛ لأن التكريم الإلهي هو لمطلق بني آدم، ولعموم الإنسان، وأن هذه المبادئ قد تحولت ـ في الواقع الإسلامي ـ إلى حياة معيشة، قننتها وحرستها الوثائق الدستورية الإسلامية ـ من عهد رسول الله ﷺ لنصارى نجران سنة ١٠ هـ إلى العهدة العمرية لأهل القدس سنة ١٥هـ إلى عهد الإمام علي بن أبي طالب للأشتر النخعي (٣٧هـ ٦٥٧م) واليه على مصر، الذي قال له فيه: «الناس صنفان: أخ لك في الدين، ونظير لك في الخلق»[(٢)].

٧ـ وفي الوقت الذي تمتلئ فيه كتب التاريخ بوصايا رسول الله بأهل مصر؛ يتلقط المرجفون عبارة غريبة ينسبونها إلى عبد الله بن عباس (٣ ق.هـ ـ ٦٨هـ ٦١٩ ـ ٦٨٧م) ـ رضي الله عنهما ـ تقول: «إن المكر عشرة أجزاء، تسعة منها في القبط، وواحدة في سائر الناس»![(٣)]

ولا ندري كيف يقبل عاقل نسبة هذه العبارة إلى ابن عباس، الذي تربى على وصايا رسول الله ﷺ بقبط مصر، الذين لهم مع الرسول ﷺ وقومه صهر ونسب. فهل صهر الرسول ﷺ ونسبه هم الذين حازوا تسعة أعشار المكر الموجود في هذا الوجود؟! أم أن الغرض مرض، وثقافة الكراهية السوداء تعمي البصائر وليس فقط الأبصار؟!

٨ـ وللتقليل من قيمة الفتح الإسلامي لمصر، وللحط من عبقرية العسكرية الإسلامية ـ التي فتحت في ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون ـ؛ تمضي الافتراءات فتقول: «إن عمرو بن العاص قد غزا المعسكر الروماني في لحظة ضعف عاتية»[(٤)].

(١) المرجع السابق. ص١٥٦.
(٢) انظر في ذلك كله: الوثائق التي نشرناها بكتابنا (الإسلام وحقوق الإنسان: ضرورات لا حقوق) طبعة دار الشروق. القاهرة سنة ٢٠٠٨م. وكتابنا (حقائق وشبهات حول السماحة الإسلامية وحقوق الإنسان) طبعة دار السلام القاهرة سنة ١٤٣١هـ سنة ٢٠١٠م.
(٣) (حكايات الدخول) ص٢٠١.
(٤) المرجع السابق. ص ١٠٩.

وفي هذا الافتراء تجاهل لواقع الفتح وحقائقه.

فلقد كان الفتح الإسلامي لمصر، بالنسبة للرومان، هو معركة الوجود وعن ذلك يقول هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م): «إذا سقطت الإسكندرية ضاع ملك الروم».

ولقد فتح المسلمون الشام والعراق والخليج وفارس في عام واحد، بينما استغرق فتح مصر نحوًا من خمس سنوات!.

ولقد وجد عمرو بن العاص ـ بمصر ـ ١٢٠,٠٠٠ جنديًّا رومانيًّا، في حصون وراءها حصون، كما كان البحر الأبيض ـ يومئذ ـ بحيرة رومانية خالصة، يأتي منها المدد الذي لا ينقطع لجيوش الرومان بمصر.

ولقد ذكرت مصادر التاريخ ـ العربية والأجنبية ـ أن القتال في موقعة «الفرما» قد استغرق نحو شهرين وفي موقعة «بلبيس» استغرق نحو شهر، وفي موقعة «أم دنين» ـ المقس ـ استغرق شهرين وفي موقعة «حصن بابليون» استغرق سبعة أشهر وأن حصار الإسكندرية قد استغرق أربعة عشر شهرًا فكيف ـ مع هذا ـ يكون التهوين من هذا الفتح التاريخي المبين؟!

ثم كيف يتجاهل أصحاب هذه الافتراءات تاريخ العسكرية الرومانية، وإمكاناتها ـ وهي أشهر من أن يتم تجاهلها ـ وفيها وعنها كتبت الموسوعات، التي تقول: «.. ولقد برع الرومان، ومن بعدهم البيزنطيون في التكتيك الحربي أو التخطيط للعمليات الحربية، وعرف عندهم كعلم أطلق عليه «فن الحرب»، وانفرد بعض المؤرخين البيزنطيين بالكتابة عن هذا الفن؛ فقد كانت دراسة الظروف الملائمة للحركات العسكرية واجبًا ضروريًّا قبل المجازفة بدخول الحرب؛ ولذا أصبح الهرب المصطنع، والمباغتة، والهجوم الليلي، وعمل الكمائن، والخداع، والمفاوضات التي تهدف إلى كسب الوقت، كلها كانت وسائل مقبولة، وأساسية في التخطيط العسكري الروماني.

وفي العمليات العسكرية كانوا في كثير من الأحيان يفضلون الدهاء عن استخدام القوة، إذا كان هذا كافيًا لكسب النصر، كما آمنوا في تكتيكاتهم بأن كل الحروب التي يخوضونها ضد الأعداء ما هي إلا حروب صليبية، والنصر فيها من عند الرب، والمؤرخ البيزنطي «بسللوس» يقول: «كانت القوة العسكرية مصدر قوة

الدولة الحقيقية». كما يشهد المؤرخ الإنجليزي «بتلر» على أن «مسلحة الإسكندرة وحدها ـ إبان الفتح ـ كان تعدادها يبلغ ٥٠,٠٠٠ جنديًّا»[١].

٩ ـ وفي الوقت الذي يشهد فيه الأسقف «يوحنا النقيوسي» ـ وهو شاهد العيان على الفتح الإسلامي لمصر ـ بأن عمرو بن العاص «**كان يأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا من أموال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما، سلبًا أو نهبًا، وحافظ عليها طوال الأيام**»[٢].

ويقول فيه المؤرخ القبطي يعقوب نخلة روفيلة (١٨٤٧ ـ ١٩٠٥م): «.. ولقد استعان عمرو بن العاص في تنظيم البلاد بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم **حكومة عادلة تضمن راحة الأهالي،** فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلًّا منها حاكم قبطي ينظر في قضايا الناس ويحكم بينهم، ورتب مجالس ابتدائية واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوي نزاهة واستقامة، وعين نوابًا من القبط، ومنحهم حق التداخل في القضايا المختصة بالأقباط، والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية، **وكانوا بذلك في نوع من الحرية والاستقلال المدني، وهي ميزة كانوا قد جردوا منها في أيام الدولة الرومانية.**

وضرب عمرو بن العاص الخراج على البلاد بطريقة عادلة على أقساط، في آجال معينة، حتى لا يتضايق أهل البلاد. وبالجملة، فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها من أزمان»[٣].

في الوقت الذي يشهد فيه المؤرخون الأقباط ـ القدماء منهم والمحدثون ـ هذه الشهادات لعمرو بن العاص والفتح الإسلامي، نرى المرجفين يفترون ويزعمون: «أن العرب قد أقروا نظم الجباية الرومانية ونفس الموظفين البيزنطيين والطرق والأساليب التي اعتادوها في العصر البيزنطي»[٤]«وأن عمرو بن العاص قد نهب أموالًا كثيرة بعنف، وضاعف فرض الضرائب على العمال، وارتكب آثامًا كثيرة لا تحصى»[٥].

فمن نصدق؟! أنصدق كبار المؤرخين القبط ـ ومنهم شاهد العيان على الفتح الإسلامي؟ أم الذين أعمت أبصارهم وبصائرهم ثقافة الكراهية السوداء؟!

(١) د. صبري أبو الخير سليم (تاريخ مصر في العصر البيزنطي) ص ١٤٨، ١٤٩. طبعة دار عين. القاهرة سنة ٢٠٠١م.. [وغير المعارك التي أشرنا إلى مواقعها كانت هناك معارك شرسة في «مريوط» ـ على النيل بين مصر والإسكندرية، و«سُلْطَيْس» ـ وهي من قرى مصر القديمة ـ و«سخا» ـ في دلتا النيل ـ و«بَلْهيت»،و«كوم شريك» ـ قرب الإسكندرية ـ و«الكريون» ـ قرب الإسكندرية ـ و«قرطا» ـ من قرى مصر القديمة، و«الخيس» ـ من كور الحوف الغربي ـ حتى لكأن الرومان قد جعلوا من مدن مصر وقراها حصونًا،دار فيها وعندها القتال.

(٢) (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي. رؤية قبطية للفتح الإسلامي) ص ٢٠١. ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل . طبعة دار عين. القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٣) يعقوب نخلة روفيلة (تاريخ الأمة القبطية) ص٥٤ ـ ٥٧. تقديم: د. جودت جبرة. طبعة مؤسسة مار مرقس لدراسة التاريخ. القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٤) (الوطن الأم) ص١٤٨.

(٥) (حكايات الدخول) ص١١٥.

● ويبدو أن كثرة الأكاذيب وضخامتها لابد أن توقع الكذبة في التناقضات التي تفضحهم، وفي ذلك رأينا الذين افتروا على عمرو بن العاص بتهم نهب الأموال الكثيرة وارتكاب الآثام التي لا تحصى، يمضون فيقولون إنه قد جمع من مصر لنفسه «ثروة طائلة»، وأنه «قد خَلَّف من الذهب سبعين رقبة جمل مملوءة ذهبًا، وسبعين بهارًا دنانير[١]، وجلد ثور مملوءة أردبان بالمصري. وثلاثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار، ومن الورق (الفضة) ـ ألف درهم، وغلة مائتي ألف دينار بمصر، وضيعتهَ المعروفة بالوهط[٢] قيمتها عشرة آلاف ألف درهم ـ حوالي مليون درهم ـ (كلا بل عشرة ملايين) ـ، وفي بستانه بالطائف ـ تعريش الوهط ـ ألف ألف عود، كل عود بدرهم»![٣]

فبعد هذه الصورة التي ألحقت ثراء عمرو بن العاص بقارون، شاء الله أن يوقع هؤلاء الكذبة في التناقض الفاضح لأكاذيبهم، فرأيناهم يقولون: «إن عثمان بن عفان عندما عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر، كان عمرو ـ في الثروة ـ صفر اليدين، حتى قال له عثمان: «قَمُلَت والله جُبَّتُكَ منذ نزعتُك عن العمل»![٤] فأين إذًا هذه الثروة التي جمعها وخَلَّفها، إذا كانت جُبَّتُه قد انتشر فيها القَمْل بعد عزله عن ولاية مصر؟! ولكنها ثقافة الكراهية السوداء التي تعمي وتصم أصحابها فتوقعهم في التناقضات الفجة الفاضحة للأكاذيب!

١٠ـ وفي الحط من قيمة الفتح الإسلامي، يذهب الكَذَبَةُ المرجفون إلى وصف الجيش الفاتح «بأن أكثره كانوا من ضعاف الإيمان المرتدين، مع الأسود العنسي في اليمن! ومن العاطلين المتنطعين في أسواق مكة ومن الصعاليك وقطاع الطرق من مثل أبي ذر الغفاري»[٥].

هكذا وصف الكذَبَةُ الجيش الإسلامي الذي أنجز فتح الفتوح ـ بمصر ـ في صدر الإسلام!.

ونحن نسأل أصحاب هذه الافتراءات:

هل كان الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري (٣٢هـ ـ ٦٥٢م) الذي قال فيه الرسول ﷺ: «ما أقلّت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر» والذي عاش مجاهدًا في الفتوحات الإسلامية، ومناضلًا في سبيل العدل الاجتماعي؛ هل كان صعلوكًا؟!

(١) البهار: شيء يوزن به، يتراوح بين ثلاثمائة وألف رطل. كما يطلق على إناء كالإبريق.
(٢) بالطائف.
(٣) (حكايات الدخول) ص٧٥.
(٤) المرجع السابق. ص٨٢.
(٥) (الوطن الأم) ص١٢٧، ١٢٩. و(حكايات الدخول) ص٥٨.

وإذا كان الجيش الفاتح لمصر قد ضم بعضًا من الذين سبق أن ارتدوا عن الإسلام ـ باليمن ـ مع الأسود العنسي (١١هـ ٦٣٢م) فإن هذه الردة قد طويت صفحتها، وعاد الناس ـ في اليمن ـ جميعًا إلى الإسلام، وحسن إسلامهم، وأسهموا في الفتوحات، وكان فتح مصر ـ الذي شاركوا فيه ـ بعد تاريخ هذه الردة بأكثر من عشر سنوات. ثم، ألم يكن جمهور جيل الصحابة الفريد الذين أقاموا الدين، وأسسوا الدولة، ومهدوا للحضارة ـ ممن عبدوا ـ قبل الإسلام ـ اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى؟! ثم أصبحوا التجسيد للتوحيد والتنزيه والمثل الأعلى للشمائل الإسلامية التي بهرت حتى الأعداء؟!

وخالد بن الوليد (٢١هـ ٦٤٢م) ألم يكن هو قائد الشرك والوثنية الذي هزم المسلمين في أحد، ثم أصبح سيف الله منذ اللحظة التي اهتدى فيها إلى الإسلام، ومثله في ذلك عمرو بن العاص؟ ثم ألم يكن عمر بن الخطاب ـ في الجاهلية ـ هو الفظ الغليظ، ثم أصبح منذ أن هداه الله للإسلام؛ الملهم الفاروق؟!.

لقد شارك في هذا الجيش الفاتح عشرات من الصحابة الذين تربوا في مدرسة النبوة، والذين سبق لكثيرين منهم المشاركة في فتوحات الشام والعراق والخليج وفارس، كما وصف رسول الله ﷺ أجناد هذا الجيش ـ تحديدًا ـ بأنهم خير أجناد الأرض عندما قال: «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض». فقال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: ولم ذلك يا رسول الله؟. فقال: «لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة»[١] فهل خير أجناد الأرض ـ أهل الرباط في سبيل الله ـ هم «العاطلون المتنطعون الصعاليك قطاع الطرق!! ـ كما زعم المرجفون؟!

وهل من المعقول أن ينهض آلاف الصعاليك المتنطعين بطي صفحة الاستعمار الروماني الذي هيمن على الشرق لعشر قرون؟!

١١ـ ويبلغ الكذب على الفتح الإسلامي لمصر الذروة عندما يزعم المرجفون «أن الجيش العربي الفاتح قد أسر أعدادًا كبيرة من المصريين، وأن صفوف العبيد الأسرى من القبط امتدت من مصر إلى المدينة وأن صفوف السبايا قد بلغت المدينة ومكة واليمن»![٢] وإذا كان تعداد الشعب المصري ـ عند الفتح ـ قد

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٣،٤. و(النجوم الزاهرة) جـ١ ص٢٩.
(٢) (حكايات الدخول) ص١٤٩.

كان ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة، وطول الطريق البري من مصر للمدينة يبلغ ١,٦٠٠ ك؛ فإن الصف الواحد من مصر إلى المدينة يسع ٣,٢٠٠,٠٠٠ نسمة والصفوف ـ وأقلها ثلاثة ـ تسع ٩,٦٠٠,٠٠٠ نسمة ـ أي قرابة أربعة أضعاف سكان مصر في ذلك التاريخ!! فهل وعى هؤلاء الكذَبَةُ المرجفون معنى هذا الذي كتبوا؟! وأما كان لهم أن يحترموا عقول القراء؟! فضلاً عن احترام حقائق التاريخ؟! وأمانة الكلمة التي تخطها الأقلام؟!

إن مصادر التاريخ ـ وقد رجع إليها هؤلاء الكذبة- تقول: إن بعض القرى المصرية ـ مثل «بهليت» و«الخيس» و«سلطيس» قد أخطأت وقاتلت مع الروم، فأسر منها المسلمون عددًا من هؤلاء المقاتلين، لكن عمر بن الخطاب حرر هؤلاء الأسرى، وردهم إلى مصر؛ ليسْري عليهم الصلح الذي صالحه المصريون ـ بواسطة المقوقس ـ عظيم القبط ـ قبل فتح الإسكندرية، وهزيمة الروم[١].

لكن ثقافة الكراهية السوداء قد أعمت أبصار هؤلاء الكذبة، فوقعوا في هذه التناقضات التي قادتهم إلى الحديث العبثي عن صفوف الأسرى والسبايا التي امتدت من مصر إلى المدينة ومكة واليمن!!

١٢ـ وتأبى ثقافة الكراهية السوداء ـ للفتح الإسلامي لمصر ـ إلا أن تمتد بالكذب والحقد إلى ما قبل الفتوحات فتتحدث هذه الأكاذيب عن مارية القبطية، التي أهداها المقوقس إلى الرسول ﷺ سنة ٧هـ، أي قبل الفتح الإسلامي لمصر بأكثر من عشر سنوات، فتصور الأكاذيب حياة مارية في بيت النبوة بالكارثة التي «اقتلعت مارية من جذورها عندما اقتيدت إلى رحلة إجبارية يغلب عليها طابع القسر والاستعباد وأحاط بها اللون الأصفر ـ لون الرمل ـ بدلاً من اللون الأخضر، والجفاف بدلاً من المياه الجارية. لقد ذهبت إلى المدينة؛ حيث حوّلها الحجاب المفروض على النساء إلى مواطن الغربان تاركة وراءها التماثيل الصغيرة ـ المساخيط ـ وأدوات حضارية كثيرة كان من الصعب تعويضها»! [٢].

(١) المرجع السابق. ص١٥٠ ـ وهو ينقل عن البلاذري وابن عبد الحكم.
(٢) المرجع السابق. ص٢٥، ٣١، ٣٣، ٤٣.

وهنا نسأل:

ألم تكن بالمدينة ـ يومئذ ـ واحات زراعية وبساتين وجنان؟

وهل كان الرمل، ولونه الأصفر وقفًا على المدينة والجزيرة العربية؟ أم أن مساحة الرمل والصحراء كانت ولا تزال تمثل ٩٦٪ من مساحة مصر؟!.

وهل كانت مارية القبطية ـ النصرانية التي تقدس مريم العذراء ـ عليها السلام ـ متبرجة تبرج الجاهلية الأولى، حتى تتأذى من حشمة الحجاب؟!

وألم يكن بين نساء النبي ﷺ وخاصة عائشة ـ من تلعب بالتماثيل الصغيرة ـ والتي تسمى خيل سليمان ـ كما جاء في السيرة والأحاديث التي صورت هذا الجانب الإنساني والراقي في بيت النبوة؟![1]

أم أن ثقافة الكراهية السوداء قد جعلت الغشاوات والأقفال على أبصار وبصائر هؤلاء الكذبة المرجفين؟!

ويا ليت أمر مارية القبطية ـ في بيت النبوة ـ قد وقف به المرجفون عند هذه الحدود، فلقد ذهبوا إلى القول الغريب والعجيب؛ فقالوا: «إن النبي كان معجبًا بها ويكاد يقضي معها معظم الليل والنهار، ويكاد يتفرغ لها»!![2].

فإذا علمنا أن مارية القبطية قد أُهديت إلى رسول الله ﷺ سنة ٧ هـ ـ وهو عام المراسلات التي بدأت بها السياسة الخارجية للدولة الإسلامية، وعام غزوة خيبر وغزوة وادي القرى، وبعدها كانت غزوة «مؤتة» وفتح مكة وغزوة حنين وغزوة الطائف سنة ٨ هـ وبعدها كانت غزوة تبوك سنة ٩هـ..

فهل كان القائد لكل هذه الغزوات، الذي يحمل على عاتقه هموم الدين والدنيا وشئون السلم والحرب «يقضي مع مارية القبطية معظم الليل والنهار، ويكاد يتفرغ لها» تاركًا الدين والدنيا، والدولة والحروب وتاركًا زوجاته الأخريات أيضًا؟!

أم أن ثقافة الكراهية السوداء قد قادت أصحابها إلى هذا العبث اللامعقول؟!

ثم ألا يستحق هؤلاء الذين يتشدقون بادعاء المناهج العلمية والموضوعية في البحث والدرس والتأريخ، عندما يتركون النصوص قطعية الثبوت والدلالة التي تحدثت عن خُلق الرسول

(١) انظر ذلك في البخاري ومسلم وابن ماجه والقرطبي (الجامع لأحكام القرآن) جـ٤ ص٢٧٢. طبعة دار الكتب المصرية ـ وابن سعد (الطبقات الكبرى) جـ ٨ ص٤٣. طبعة دار التحرير. القاهرة.

(٢) (حكايات الدخول) ص٣٦، ٣٩.

ﷺ وسيرته ونمط حياته ومنـها آيات سورة المزمل، التي تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾ (المزمل: ١ ـ ٨).

وهو الخلق والسلوك الذي جعل إمام أولي العزم من الرسل قرآنًا يمشي على الأرض، وعابدًا تتورم قدماه من طول الوقوف بين يدي ربه، والراعي الصالح لكل المستضعفين في الأرض، وفي ذات الوقت الفارس الذي إذا حمي الوطيس واحمرت الحدق في القتال يحتمي به صناديد فرسان الصحابة، حتى ليكون هو الأقرب إلى الأعداء من هؤلاء الصناديد الفرسان.

هل هذا النموذج الأمثل لهذه التربية الربانية التي أشار القرآن إلى تجسيدها في هذا النبي عندما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ (المزمل: ٢٠).

هل هذا النموذج لهذا الخلق الرباني، الذي حمل أعباء «القول الثقيل». والذي قاد تغيير اتجاه الدنيا والدين والحضارة والتاريخ هو الذي يستحق أن يفتري عليه المفترون، فيقولون عنه: إنه كان يقضي حياته مفتونًا بمارية القبطية، يكاد يقضي في مخدعها «معظم الليل والنهار، ويكاد يتفرغ لها» ثم ينشرون هذا الافتراء السفيه زاعمين أنه من ثمرات المناهج العلمية التقدمية في دراسة التاريخ؟!.

١٣ ـ وبعد الافتراء على الفتح والفاتحين، جاء الافتراء على التاريخ الإسلامي لمصر، ومن نماذج هذا الافتراء:

تصوير الفتح الإسلامي في صورة الجناية على سكان مصر، وذلك بزعم أنه «عندما سقطت مصر في أيدي العرب، كان الأقباط يمثلون جملة عدد السكان تقريبًا، أي حوالي ٢٠ مليونًا على الأقل»[١] وهناك من جعل رقم التعداد ١٢ مليونًا[٢].

(١) د. سليم نجيب (الأقباط عبر التاريخ) ص١٧٤. طبعة دار الخيال. القاهرة سنة ٢٠٠١م.
(٢) (الوطن الأم) ص٢٣٤.

ثم يوجهون الاتهام للعصر الإسلامي الذي جعل تعداد المصريين ـ بعد ثلاثة عشر قرنًا ـ وعند الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م ـ فقط ٢,٤٤٩,٠٠٠ نسمة[١].

وفي الرد على هذه الدعاوى نلفت النظر إلى كم التناقضات التي وقع فيها المناوئون لإسلام مصر وإسلامية تاريخها:

– فالدكتور جاك تاجر يقول: «إن إحصائية مسيحية تذكر أن ستمائة ألف شخص كانوا يدفعون رسمًا للبطرك عند الفتح الإسلامي لمصر»[٢].

فإذا افترضنا أن رب الأسرة هو الذي كان يدفع الرسم للبطريرك، وأن الأسرة كانت مكونة ـ في المتوسط ـ من خمسة أفـراد، فمعنى ذلك أن تعداد السكان الأقباط كان حوالي ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة ـ عند الفتح الإسلامي ـ.

وإذا نحن عدنا إلى أقدم مصادر التأريخ للفتح الإسلامي لمصر ـ يوحنا النقيوسي ـ نجده يتحدث عن أن قمبيز ـ الفارسي (٥٢٩ ـ ٥٢٢ ق.م) قد غزا مصر **«وأحرق أهلها بالنار حتى صارت كل البلاد قفرًا» ولم يوجد من يسير بها من الناس، وحتى طيور السماء، ولما جاء الملك الفارسي قورش (٥٥٧ ـ ٥٢٨ ق.م)، ردّ الأسرى المصريين إلى بلادهم، بعد العام الحادي والأربعين من أسرهم وتدمير بلادهم، وبعد ثمانية وأربعين عامًا من عودة الأسرى المصريين من فارس إلى بلادهم؛ كان عدد المصريين ٥٠٠,٠٠٠ نسمة[٣] أي أن تعداد مصر كان نصف مليون بعد نحو قرن من غزو قمبيز.**

لكننا ـ لحسم هذا الأمر ـ أمر التعداد ـ علينا أن نتوجه إلى المصدر الحجة والعمدة، الذي صدر عن المعهد الوطني للدراسات الديموجرافية ـ بباريس ـ والذي كتبه اثنان من علماء الديموجرافيا الفرنسيين، والذي يمثل كنزًا من الإحصاءات حول السكان في مصر وبلاد المشرق ـ العربي والتركي ـ عبر التاريخ الإسلامي، ففي هذا المصدر سنجد أن سكان مصر قد كان تعدادهم:

(١) المرجع السابق. ص٢٨٥.
(٢) د. جاك تاجر (أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م) ص٢٠٢، ٢٠٣. طبعة الهيئات القبطية بالمهجر ـ أمريكا ـ كندا ـ أستراليا ـ مدينة جرسي ـ أمريكا سنة ١٩٨٤م.
(٣) (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي) ص٧٠ ـ ٧٣.

في القرن الأول الميلادي	٤,٥٠٠,٠٠٠ نسمة
وفي القرن الرابع الميلادي	٣,٠٠٠,٠٠٠ نسمة
وفي سنة ٦٠٠ م	٢,٦٠٠,٠٠٠ نسمة
وعند الفتح الإسلامي سنة ٦٤١م	٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة
وفي عهد هشام بن عبد الملك سنة ٧٤٣م	٢,٢٠٠,٠٠٠ نسمة
وفي عهد هارون الرشيد سنة ٨١٣ م	٢,٦٧١,٠٠٠ نسمة
وفي عهد المأمون سنة ٨١٣ ـ ٨٣٣م	٢,٣٦٥,٠٠٠ نسمة
وفي عهد المعتز بالله سنة ٨٦٩م	٢,٦٤٠,٠٠٠ نسمة
وفي عهد ابن طولون سنة ٨٨٤م	٢,٣٦٥,٠٠٠ نسمة
وفي عهد المعز لدين الله الفاطمي سنة ٩٧٥م	١,٧٦٠,٠٠٠ نسمة
وفي عهد المستنصر الفاطمي سنة ١٠٩٠م	١,٦٨٣,٠٠٠ نسمة
وفي عهد صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٩م	٢,٣٥١,٠٠٠ نسمة
وفي عهد السلطان المملوكي محمد سنة ١٣١٥م	٤,٢٠٠,٠٠٠ نسمة
وفي عهد السلطان المملوكي برقوق سنة ١٣٨٢م	٣,١٥٠,٠٠٠ نسمة
وفي عهد الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م	٢,٤٩٨,٠٠٠ نسمة[١]

وهنا يبقى السؤال ـ الشبهة ـ: كيف ظل تعداد الشعب المصري ـ عبر ثلاثة عشر قرنًا ـ حول هذا الرقم شبه الثابت بل كيف هبط التعداد زمن الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ إلى ٢,٤٩٨ نسمة، بينما كان قبل ثلاثة عشر قرنًا ـ عند الفتح الإسلامي ـ ٢,٥٠٠٠,٠٠٠.. أي أنه هبط ١٠٠,٠٠٠ نسمة!!

كيف حدث هذا الأمر الغريب؟ وهل كان الحكم الإسلامي وبالًا على مصر؟ ـ كما يزعم المرجفون ـ؟ أم أن لهذا الأمر تعليلًا علميًّا معقولًا؟!

إن مصر هبة النيل، ارتبطت حياتها بفيضانه، وارتبطت تعاستها بانخفاض جريانه.

ومنذ عصر سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ سجل التاريخ ارتفاع النيل ـ ورخاء مصر ـ سبع سنوات وانخفاض مياه النيل ـ وفقر مصر ـ سبع سنوات، ومن يتابع مقاييس النيل وأرقام وفائه في كتب التاريخ ـ ومنها (التوفيقات الإلهامية) ـ سيجد هذه الحقيقة ظاهرة للعيان[٢] .

(١) فيليب فارج، يوسف كرياج (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي) ص٤٦. ترجمة: بشير السباعي. طبعة دار سينا. القاهرة سنة ١٩٩٤م.

(٢) لقد قمنا بتحقيق هذا الكتاب ـ وهو من تأليف محمد مختار باشا المصري ـ ونشرناه ببيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ سنة ١٤٠٠ هـ سنة ١٩٨٠م.

ونحن إذا رجعنا إلى المصادر التاريخية المعتبرة، سنجد أن تعداد المصريين قد ارتبط بحال النيل، عندما يوافي يزرع الناس ويتوالدون، وعندما يشح ماؤه تقفر الأرض وتنتشر الطواعين والأوبئة ويتناقص عدد السكان، ولقد ظل هذا الأمر ضربة لازب حتى عصر محمد علي باشا الكبير (١١٨٤ ـ ١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م) الذي أنشأ القناطر الخيرية، والرياحات والترع، فعرفت مصر الري الدائم، وتخزين المياه ـ بعد ذلك ـ في خزان أسوان ثم في السد العالي، ومنذ ذلك التاريخ، زادت مساحة الأرض المزروعة، وتوالت زيادة السكان باطراد.

إن المصدر العمدة الذي يضع يدنا على هذه الحقيقة، والذي يفسر لنا ـ ويحل ـ لغز ثبات تعداد السكان في مصر عبر تاريخها القديم والوسيط ـ هو المقريزي (٧٦٦ـ٨٤٥هـ ١٣٦٥ـ١٤٤١م) في كتابه الفذ (إغاثة الأمة بكشف الغمة)، أو (تاريخ المجاعات بمصر) وفي هذا الكتاب عدّد المقريزي المجاعات التي انتابت مصر قبل الإسلام وبعده، وعددها ـ حتى عصره ـ ست وعشرون مجاعة وقع منها ست مجاعات قبل الإسلام وعشرون بعده، ولقد ذكر المقريزي في أسباب هذه المجاعات ثلاثة أسباب:

أولها: الآفات السماوية، كقصور النيل بمصر، وعدم نزول المطر بالشام، والعراق، والحجاز، أو آفة سماوية تصيب الغلال، من سمائم تحرقها، أو رياح تهيفها، أو جراد يأكلها، أو ما شابه ذلك.

وثانيها: شراء المناصب والمراكز الحكومية بالمال.

وثالثها: العامل النقدي[١].

ويشير المقريزي إلى جهل من يظن أن هذه المحن والكوارث قد طرأت علي مصر في العهد الإسلامي، فيقول: «**ولقد ظن كثير من الناس أن هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها، ولا مرّ في زمن شبهها، وتجاوزوا الحد فقالوا: لا يمكن زوالها، ولا يكون أبدًا عن الخلق انفصالها، وذلك لأنهم قوم لا يفقهون، وبأسباب الحوادث جاهلون**»[٢].

ثم يعدد المقريزي المجاعات حسب تواريخها التي سبقت ظهور الإسلام والفتح الإسلامي لمصر:

(١)المقريزي (إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات بمصر) ص ٤١. طبعة دار ابن الوليد. دمشق سنة ١٩٥٦م.
(٢) المصدر السابق. ص٤.

١- فأول غلاء وقع بمصر كان في زمن الملك السابع عشر من ملوك مصر قبل الطوفان **وكان سبب الغلاء ارتفاع ـ (انقطاع) ـ الأمطار، وقلة ماء النيل، فعقمت أرحام البهائم، ووقع الموت فيها.**

٢- ثم وقع غلاء في زمن الملك التاسع عشر من ملوك مصر قبل الطوفان، **وسببه أن الظلم والهرج كثر حتى لم ينكره أحد، فأجدبت الأرض وفسدت الزروع.**

٣ـ ثم وقع غلاء في زمن الملك الثالث عشر من ملوك مصر قبل الطوفان، **وكان سببه أن ماء النيل توقف جريه فأكل الناس البهائم حتى فنيت كلها.**

٤ـ ثم وقع الغلاء في زمن الملك الثاني والثلاثين من ملوك مصر بعد الطوفان وهذا الغلاء دبـر أمر البلاد فيه يوسف ـ عليه السلام ـ.

٥ـ ثم وقع غلاء وجدب هلكت فيه الزروع والأشجار، وفقدت فيه الحبوب والثمار، وعم الموت الحيوانات كلها، وذلك عند مبعث موسى ـ عليه السلام ـ إلى فرعون، وكفى إشارة إليه ودلالة عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ (الأعراف: ١٣٠).

٦ـ ثم وقع بالأرض، قبل مبعث النبي ﷺ أنواع من البلاء والمحن عمت المعمور من الأرض، وخص مصر منها كثير من الغلاء.

٧ـ ثم جاء الله سبحانه بالإسلام، فكان أول غلاء وقع بمصر في سنة سبع وثمانين من الهجرة ـ (سنة ٧٠٦) ـ والأمير يومئذ بمصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان ـ من قبل أبيه ـ فتشاءم به الناس؛ لأنه كان أول غلاء وأول شدة رآها المسلمون بمصر[(١)].

٨ـ ثم وقع غلاء في الدولة الإخشيدية ـ في محرم سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة ـ والأمير يومئذ أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد، فثارت الرعية، ومنعوه من صلاة العتمة ـ (العشاء) ـ في الجامع العتيق.

٩ـ ثم وقع غلاء في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة[(٢)]، فكثر الفأر في أعمال مصر[(٣)]، وأتلف الغلات والكروم وغيرها، ثم قصر النيل، فنزع السعر في شهر رمضان.

(١) في (التوفيقات الإلهامية) سنة ٨٦ هـ سنة ٧٠٥م وقف النيل عند ١٨ قيراط ـ ١٣ ذراع.

(٢) في (التوفيقات الإلهامية) أن النيل سنة ٣٣٦هـ سنة ٩٤٧م قد وقف عند ١٧ قيراط ـ ١٤ ذراع ـ وفي السنة التالية ١٥ ذراع.

(٣) في (التوفيقات الإلهامية): فيها كثر الفأر بأعمال مصر، فأتلفت الغلات والكروم، ثم قصر النيل فنزل السعر ثم ارتفع.

١٠ـ وفي سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، عظم الغلاء، حتى بيع القمح كل ويبتين[1] ونصف بدينار، ثم طُلب فلم يوجد، وثارت الرعية وكسروا منبر الجامع بمصر[2].

١١ـ ثم وقع غلاء في الدولة الإخشيدية أيضًا، واستمر تسع سنين متتابعة، وابتدأ في سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة. **وكان سبب الغلاء أن ماء النيل انتهت زيادته إلى خمسة عشر ذراعًا وأربع أصابع، فنزع السعر بعد رخص، فما كان بدينار واحد صار بثلاثة دنانير، وعز الخبز فلم يوجد، وزاد الغلاء حتى بلغ القمح ويبتان بدينار.**

١٢ـ وقصر النيل في سنة ثلاث وخمسين (وثلاثمائة) فلم يبلغ سوى خمسة عشر ذراعًا وأربعة أصابع، واضطرب فزاد مرة ونقص أخرى، حتى صار في النصف من شهر بابه إلى قريب من ثلاثة عشر ذراعًا، ثم زاد قليلًا وانحط سريعًا، فعظم الغلاء، وانتقضت الأعمال لكثرة الفتن، ونهبت الضياع والغلات، وماج الناس في مصر بسبب السعر، فدخلوا الجامع العتيق بالفسطاط في يوم جمعة، وازدحموا عند المحراب فمات رجل وامرأة في الزحام، ولم تُصَلّ الجمعة يومئذ. وتمادى الغلاء إلى سنة أربع وخمسين (وثلاثمائة). وكان مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعًا وأصابع. وفي سنة خمس وخمسين (وثلاثمائة) كان مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعًا وأصابع، وقصر مده وقلت جريته.

وفي سنة ست وخمسين (وثلاثمائة) لم يبلغ النيل سوى اثني عشر ذراعًا وأصابع، ولم يقع ذلك في الملة الإسلامية وكان على إمارة مصر حينئذ الأستاذ كافور الإخشيدي، فعظم الأمر من شدة الغلاء واستمر الغلاء إلى سنة ستين (وثلاثمائة) فاشتد فيها الوباء، وفشت الأمراض، وكثر الموت حتى عجز الناس عن تكفين الأموات ودفنهم، فكان من مات يطرح في النيل، فلما دخلت سنة إحدى وستين (وثلاثمائة) انحل السعر فيها، وأخصبت الأرض، وحصل الرخاء.

١٣ـ ثم وقع الغلاء في أيام الحاكم بأمر الله في سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، **وكان سببه قصور النيل، فإن الزيادة بلغت إلى ستة عشر ذراعًا وأصابع**[3].

(١) الويبة: ستة عشر قدحًا ـ أي كيلتان ـ أي سدس أردب.
(٢) في (التوفيقات الإلهامية): إن قصور النيل في تلك السنة قد استمر تسع سنين متتابعات.
(٣) في (التوفيقات الإلهامية) أن العام السابق سنة ٣٨٦هـ سنة ٩٩٦م وقف النيل عند ٢٣ قيراط ـ ١٥ ذراع.

١٤ـ فلما كانت سنة خمس وتسعين وثلاثمائة **توقف النيل حتى كسر الخليج في آخر مسرى، والماء على خمسة عشر ذراعًا وسبعة أصابع، وانتهت الزيادة إلى ستة عشر ذراعًا وأصابع، فارتفعت الأسعار، ووقفت الأحوال في الصرف.** (صرف النقود).

١٥ـ وفي سنة ٤٠١ هـ قصر النيل حتى انتهت الزيادة إلى ثلاثة عشر ذراعًا وأصابع، فارتفعت الأسعار.

١٦ـ وفي سنة ٤٩٣هـ توقف النيل عن الزيادة، فاستسقى الناس مرتين[1]، وارتفع السعر، وكسر الخليج والماء خمسة عشر ذراعًا، فاشتد الأمر.

١٧ـ وبلغت زيادة النيل سنة ثمان وتسعين (وأربعمائة) أربعة عشر ذراعًا وأصابع، فلحقت الناس من ذلك شدائد، وتمادى الحال إلى سنة تسع وتسعين (وأربعمائة) فكسر الخليج في خامس عشر توت، والماء في خمسة عشر ذراعًا، فنقص في تاسع توت، وانحط، فعظم الأمر، وكظ الناس بالجوع.

١٨ـ ثم وقع غلاء في خلافة المستنصر وسببه قِصَر النيل، في سنة أربع وأربعين وأربعمائة، فاشتدت المسغبة.

١٩ـ ثم قصر النيل في سنة سبع وأربعين (وأربعمائة)، ونزع السعر إلى ثمانية دنانير للتليس[2]، واشتد الأمر على الناس، وصار الخبز طرفة فتلاشت الأمور، واضمحل الملك ودام ذلك بينهم سنوات خمسًا أو ستًّا، ثم قصر النيل، فنزعت الأسعار نزوعًا بدد شملهم.

٢٠ـ وفي سنة ٤٥٧هـ ـ (أي بعد أربع سنوات من المجاعة السابقة) ـ وقع ـ في أيام المستنصر ـ الغلاء الذي فحش أمره، وشنع ذكره، وكان أمده سبع سنين، وكان سبب ضعف السلطنة، واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتن بين العربان، وقصور النيل، وعدم من يزرع ما شمله الري، وكان ابتداء ذلك سنة سبع وخمسين وأربعمائة، فنزع السعر، وتزايد الغلاء، وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضي الزراعية.

٢١ـ ثم وقع غلاء في أيام الآمر بأحكام الله، بلغ القمح فيه كل مائة إردب بمائة وثلاثين دينارًا.

(١) أي صلوا صلاة الاستسقاء مرتين.
(٢) التليس ـ والتليسة ـ كيس من الصوف أو الخوص، تعبأ فيه الحبوب، ويسع ما زنته مائة وخمسين رطلًا. ـ (انظر في معاني المصطلحات الاقتصادية: د.محمد عمارة (قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية) طبعة دار السلام. القاهرة سنة ١٤٣٠هـ سنة ٢٠٠٩م.

٢٢ـ ثم وقع غلاء شنيع، وقحط ذريع، في أيام الحافظ لدين الله إلا أنه لم يستمر.

٢٣ـ ثم وقع غلاء في أيام الفائز، بلغ فيه الإردب خمسة دنانير؛ **لقصور النيل عن الوفاء.**

٢٤ـ ثم وقع الغلاء في الدولة الأيوبية، وسلطنة العادل أبي بكر بن أيوب، في سنة ست وتسعين وخمسمائة، **وكان سببه توقف النيل عن الزيادة، وقصوره عن العادة، فانتهت الزيادة إلى اثني عشر ذراعًا وأصابع، فتكاثر مجيء الناس من القرى إلى القاهرة من الجوع، ودخل فصل الربيع، فهب هواء أعقبه وباء وفناء، وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بني آدم من الجوع، فلما كان آخر الربيع احترق[1] ماء النيل في برمودة حتى صار المقياس في بر مصر، وانحسر الماء عنه إلى بر الجيزة[2]، وتغير طعم الماء وريحه، ثم أخذ الماء في الزيادة قليلًا قليلًا إلى السادس والعشرين من مسرى، فزاد إصبعًا واحدًا، ثم وقف أيامًا، وأخذ في زيادة قوية أكثرها ذراع إلى أن بلغ خمسة عشر ذراعًا وستة عشر إصبعًا، ثم انحط من يومه، ثم لم تنتفع به البلاد لسرعة نزوله، وكان أهل القرى قد فنوا، حتى أن القرية التي كان فيها خمسمائة نفس لم يتأخر بها سوى اثنين أو ثلاثة، ولم تعمر الجسور ولا مصالح البلاد لعدم البقر، فإنها فقدت حتى بيع الرأس الواحد من البقر بسبعين دينارًا، والهزيل بستين دينارًا، وجافت الطرق كلها[3]، بمصر والقاهرة، وسائر دروب النواحي بجميع الأقاليم، من كثرة الموتان، وما زرع، على قلته، أكلته الدودة، ولم يمكن رده لعدم التقاوي والأبقار، وكانت الأفران إنما يوقد فيها بأخشاب البيوت، وكانت الأزقة كلها بالقاهرة ومصر لا يرى فيها من الدور المسكونة إلا القليل. وكان الرجل بالريف، في أسفل مصر وأعلاها، يموت وبيده المحراث، فيخرج آخر للحرث فيصيبه ما أصاب الأول. واستمر النيل ثلاث سنين متوالية لم يطلع منه إلا القليل، فبلغ الإردب من القمح إلى ثمانية دنانير، وكان الواحد من أهل الفاقة إذا امتلأ بطنه بالطعام، بعد طول الطوى، سقط ميتًا، فيدفن منهم كل يوم العدة الوافرة، حتى أن الملك (العادل) قام في مدة يسيرة بمواراة نحو مائتي ألف وعشرين ألف ميت[4] فإن الناس كانوا يتساقطون في الطرقات**

(١) من التحاريق ـ أي الجفاف ـ.
(٢) أي جف النيل من حول جزيرة الروضة، حيث المقياس.
(٣) أي امتلأت بالجيف.
(٤) أي ربع مليون.

من الجوع، وتعطلت الصنائع وتلاشت الأحـوال، وفنيت الأقوات والنفوس، حتى قيل سنة سَبْع افترست أسباب الحياة، فلما أغاث الله الخلق بالنيل، لم يوجد أحد يحرث أو يزرع، فخرج الأجناد بغلمانهم وتولوا ذلك بأنفسهم. ولم تزرع أكثر البلاد لعدم الفلاح، وعدمت الحيوانات في جملة.

٢٥ـ ثم وقع غلاء بالدولة التركية[١]، بسلطنة العادل كتبغا، في سنة ست تسعين وستمائة، وذلك أن بلاد برقة لم تمطر، فقحطت بلادها، وجفت الأعين منها، وعمّ أهلها الجوع لعدم القوت، فخرج منها نحو ثلاثين ألف نفس بعيالهم وأنعامهم يريدون مصر، فهلك معظمهم جوعًا وعطشًا، ووصل اليسير منهم في جهد وقلة.

وتأخر الوسمي[٢]، ببلاد الشام حتى فات أوان الزرع، ووقف النيل بمصر عن الزيادة، فتحركت الأسعار. وتأخر المطر ببلاد القدس والساحل حتى فات أوان الزرع، وجفت الآبار، ونضب ماء عين سلوان بالقدس.

وكان مبلغ النيل في هذه السنة ـ أعني سنة أربع وتسعين (وستمائة) ـ ستة عشر ذراعًا وسبعة عشر إصبعًا، ونزل سريعًا، وكسر بحر أبي المنجاة[٣] قبل أوانه بثلاثة أيام خوفًا من النقص، فبلغ كل إردب من القمح مائة درهم، والشعير إلى ستين، والفول إلى خمسين، واللحم إلى ثلاثة دراهم للرطل.

ودخلت سنة خمس وتسعون (وستمائة) وبالناس شدة من الغلاء، إلا أنهم يمنون أنفسهم بمجيء الغلال الجديدة، وكان قد قرب أوانها، فعند إدراك الغلال هبت ريح سوداء مظلمة من نحو بلاد برقة هبوبًا عاصفًا، وحملت ترابًا أصفر كسا زروع تلك البلاد، فهافت كلها، وعمت تلك الريح والتراب إقليم البحيرة والغربية وإقليم الشرقية، ومرت إلى الصعيد الأعلى، فهاف الزرع، وفسد الصيفي من الزرع، فتزايدت الأسعار، وأعقبت تلك الرياح أمراض وحميات عمت الناس، وأقحطت مكة، ورحل أهلها، ونزحت سكان قرى الحجاز، وعُدم القوت ببلاد اليمن، واشتد الوباء، وقحطت بلاد الشرق، وعظم الوباء في الأرياف والقرى،

(١) أي المملوكية.
(٢) أي الخريف.
(٣) ترعة لري أراضي الجنوب الشرقي للدلتا.

وفشت الأمراض بالقاهرة ومصر، وعظم الموتان، ثم أعيا الناس كثرة الموت، فبلغت عدة من يرد اسمه في الديوان السلطاني في اليوم ما ينيف عن ثلاثة آلاف نفس، وأما الطرحاء فلم يحصر عددهم، بحيث ضاقت بهم الأرض، وحفرت لهم الآبار والحفائر وألقوا فيها، وجافت الطرق والنواحي والأسواق من الموتى، وخلت الضياع من أهلها، حتى أن القرية التي كان بها مائة نفس لم يتأخر بها إلا نحو العشرين.

٢٦ـ وفي أول شهر رجب سنة ست وثلاثين وسبعمائة وقع الغلاء بالديار المصرية في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، وعز القمح، ووصل كل إردب إلى سبعين درهمًا، والفول إلى خمسين، والخبز كل خمسة أرطال بدرهم، ولا يكاد يوجد، وعدم القمح من الأسواق.

٢٧ـ ثم وقع الغلاء في أيام الأشرف شعبان، وسببه قصور النيل سنة ست وسبعين وسبعمائة، فلم يبلغ ستة عشر ذراعًا في الخليج، فانحط الماء، وارتفع السعر، فبلغ القمح كل إردب إلى مائة وخمسين درهمًا، والشعير إلى مائة، والخبز إلى رطل ونصف بدرهم، وعزت الأقوات وقل وجودها، فمات الكثيرون من الجوع حتى امتلأت الطرقات، وأعقب ذلك وباء مات فيه كثير من الناس. ودام هذا الغلاء سنتين، ثم أغاث الله الخلق وجرى النيل، فارتوت الأراضي، وحصل الرخاء، بعدما خامر اليأس القلوب، وظن كثير من الناس دوام تلك الشدة، واستبعد حصول الفرج، وهي حادثة شاهدناها، ومحنة أدركناها.

٢٨ـ وفي سنة ست وتسعين وسبعمائة قصر جري النيل، فشرق أكثر الأراضي، وتعطلت من الزراعة، فارتفعت الأسعار، ثم أغاث الله سبحانه وتعالى الخلق بكثرة ماء النيل، حتى عم الإقليم كله، فأحب الناس لذلك الكثير من البذر، وكانت الغلات بأيديهم قليلة، لعدم زراعة أكثر البلاد في سنة ست وتسعين (وسبعمائة).

وهذه عادة بلاد مصر من الزمن القديم، إذا تأخر جري النيل بها أن يمتد الغلاء سنتين.

٢٩ـ وفي سنة ست وثمانمائة قصر مد النيل، فشنع الأمر، وارتفعت الأسعار حتى جاوز الإردب القمح أربعمائة درهم، وسرى ذلك في كل ما يباع من مأكول ومشروب وملبوس، وعمت البلية وطمت حتى مات من أهل الإقليم بالجوع والبرد ما ينيف عن نصف الناس، وعم الموتان حتى نفقت الدواب سنة ست وسنة سبع (وثمانمائة) وعز وجودها، وبلغت أثمانها إلى حد نستحي من ذكره، ونحن الآن في أوائل سنة ثمان (وثمانمائة)[١].

* * *

هكذا حسم الواقع التاريخي لنهر النيل ذلك الجدل، عندما أجاب على التساؤل.

ـ كيف ظل تعداد سكان مصر شبه ثابت منذ ما قبل الفتح الإسلامي إلى حملة بونابرت سنة ١٧٩٨م طوال ثلاثة عشر قرنًا؟

فعلماء الديموجرافيا الفرنسيون كشفوا عن أن سكان مصر في القرن الأول الميلادي كانوا ٤,٥٠٠,٠٠٠ نسمة وفي القرن الرابع الميلادي كانوا ٣,٠٠٠,٠٠٠ نسمة وقبيل الفتح الإسلامي ـ سنة ٦٠٠ م ـ كانوا ٢,٦٠٠,٠٠٠ نسمة وعند الفتح ـ سنة ٦٤١م ـ كانوا ٢,٥٠,٠٠٠ نسمة.

والمقريزي ـ رائد التأريخ الاجتماعي في الحضارة الإسلامية، وفقيه الواقع ـ في الخطط ـ وفي إغاثة الأمة ـ كشف عن تاريخ المجاعات والأوبئة والطواعين التي سببها الجفاف الدوري للنيل منذ ما قبل الإسلام ـ بل منذ ما قبل طوفان نوح ـ عليه السلام ـ وذلك عندما رصد قرابة الثلاثين جفافًا صحبتها الأوبئة والطواعين وهلاك الناس مع هلاك الحرث والزرع، **حتى أن القرية التي كان تعدادها خمسمائة نفس هلكت كلها، ولم ينج منها إلا فرد أو اثنين أو ثلاثة، وحتى مات نصف سكان مصر في عام واحد بسبب جفاف النيل وانتشار المجاعات والأمراض**، ولقد كان الناس في تلك المحن يعجزون عن تكفين الموتى، فيلقون بهم في الآبار والحفر والمقابر الجماعية، وبعبارة المقريزي: «**فهذه عادة بلاد مصر من الزمن القديم، إذا تأخر جري النيل بها أن يمتد الغلاء سنتين**» ـ وليس فقط في السنة التي وقع فيها الجفاف ـ.

(١) المقريزي (إغاثة الأمة بكشف الغمة) ص ٧ ـ ٤٣.

لقد كانت الأرض تُزرع بنظام ري الحياض ـ أي مرة واحدة ـ عندما يوافي النيل، وكانت تشرق وتبور عندما لا يوافي، ولم يكن هناك تحكم في ماء النيل يخزّن فيضاناته لسنوات الجفاف والتحاريق؛ ولذلك ظل هذا هو حال سكان مصر منذ ما قبل الإسلام إلى أن قامت دولة مصر الحديثة في عهد محمد علي باشا، فتحكم المصريون بمياه النيل، وبدأ التخزين لمياه الفيضانات ـ بالقناطر الخيرية أولاً ـ وسد أسوان ثانيًا والسد العالي ثالثًا ـ ومنذ ذلك التاريخ عرفت مصر الري الدائم للأرض، الذي يجعلها تنتج ثلاث زرعات، وجعل السكان يتزايدون من أقل من ثلاثة ملايين ـ عند قيام دولة محمد علي ـ إلى أكثر من تسعين مليونًا ـ عند كتابة هذه السطور ـ!.

ولقد يسأل سائل:

ـ لماذا لم ينجز سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ الذي تولى خزائن الأرض، وأنقذ البلاد من غوائل جفاف السبع سنوات العجاف ـ لماذا وقفت إصلاحاته عند تخزين فائض حبوب سنوات الفيضانات السبع، ليأكل منها الناس في سنوات الجفاف السبع، ولم يقم بتخزين مياه الفيضانات لتروي الأرض في سنوات الجفاف؟

والجواب عن هذا التساؤل كان في طبيعة جغرافية البقعة التي قامت فيها دولة الهكسوس التي عاش فيها يوسف ـ عليه السلام ـ فالهكسوس قبائل سامية، غزت مصر (١٦٥٠ ـ ١٥٦٠ ق.م) وعاشوا في قطعة من أرض مصر ـ بالشمال الشرقي ـ وكانت عاصمتهم «أواريس» في محافظة الشرقية الحالية ـ ولم يكن لإصلاحات يوسف ـ عليه السلام ـ أن تتحكم بمياه النيل؛ لأن ذلك لا يتم إلا بجنوب مصر ـ عند أسوان ـ حيث كان الحكم للفراعنة، وليس للهكسوس ويوسف ـ عليه السلام ـ.

ولذلك وجدنا السيطرة على مياه النيل، وتخزين فيضاناته الهاجس الذي راود الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٧٥ـ ٤١١هـ ٩٨٥ ـ ١٠٢١م) فاستدعى عالم الهندسة والبصريات الحسن بن الهيثم (٣٥٤ ـ ٤٣٠ه‍ ٩٦٥ ـ ١٠٣٨م) ليدرس طوبوغرافية أسوان، بهدف إقامة السد الذي يخزن مياه النيل، وينقذ مصر من المجاعات

والأوبئة والفناء، لكن الحسن بن الهيثم ـ بعد أن درس طوبوغرافية النيل عند أسوان ـ خاف من «أطوار» الحاكم بأمر الله، فهرب!. وظل النيل على حاله وظلت التحاريق والمجاعات والأوبئة تفتك بسكان مصر حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي.

وجدير بالذكر أن فقه الواقع التاريخي لتعداد السكان المصريين، والذي ارتبط بوفاء النيل وجفافه، ذلك الذي أرخ له رائد التأريخ الاجتماعي تقي الدين المقريزي، قد وجد صداه في كتابات علماء الديموجرافيا الفرنسيين الذين رصدوا «**العجز المتصل الذي سجله مقياس الروضة لمياه النيل ـ في العصر الفاطمي ـ من سنة ١٠٢٢م إلى سنة ١١٢١مـ والذي أدى إلى أن تفقد مصر ثلث سكانها**»[١].

كما رصدوا تكرار هذه الظاهرة في دولة المماليك البحرية (٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢م) **عندما «تجاوز سكان مصر رقم ٤ مليون سنة ١٣٤٥م ثم جاء الطاعون الكبير سنة ١٣٤٨م الذي أفنى آنذاك ثلث السكان وهبط بسكان القاهرة من ٦٠٠,٠٠٠ نسمة سنة ١٣٤٠م إلى ٤٣٠,٠٠٠ نسمة سنة ١٣٤٨م»**[٢].

كما يشيرون إلى أن الطاعون الكبير ٥٤٢ ـ ٦٠٠م قد أدى إلى حرمان مصر من خمس سكانها[٣].

كما يتخذون من مقياس حجم الجزية ـ ضريبة الرأس ـ عند الفتح الإسلامي ـ دليلًا على أن سكان مصر ـ يومئذ ـ كان تعدادهم ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة ـ وليس ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ (عشرون مليونًا) ـ كما يرجف المرجفون ـ فيقول هؤلاء العلماء ـ الفرنسيون: «**إن الجبايات الضريبية الأولى المسجلة على أوراق البردي تبين المبلغ الإجمالي للإيرادات السنوية للجزية، ضريبة الرأس المفروضة على غير المسلمين، وهي ١٢ مليونًا من الدراهم غداة الفتح سنة ٦٤١م: تشير شواهد متباينة إلى مبلغها بالنسبة للفرد ٢٤ درهمًا مصريًّا. ولما كان دافع الضريبة يمثل في المتوسط أسرة من خمسة أفراد، فلابد أن مصر كانت مأهولة آنذاك بنحو ٢,٥ مليون من السكان، كلهم غير مسلمين**»[٤].

ولم يخلط هؤلاء العلماء «الجزية» «بالخراج» على الأرض الزراعية فخراج الأرض ثابت بثبات المساحة، وبصرف النظر عن دين من يزرع هذه الأرض أما «الجزية» ـ ضريبة الرأس ـ والتي

(١) (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي) ص ٣٤.
(٢) المصدر السابق. ص ٣٥، ٣٦.
(٣) المصدر السابق. ص ٢٢. (ولقد سبق وأوردنا ما ذكره المقريزي من فقد مصر سنة ٨٠٦هـ نصف سكانها بسبب جفاف النيل).
(٤) المصدر السابق. ص٢٢

هي بدل عن الجندية بالنسبة لغير المسلمين ـ فلقد تناقصت بتناقص عدد غير المسلمين وتزايد من دخل منهم في الإسلام، وبعبارة هذا المصدر الفرنسي: «**فلقد فُتحت مصر وهي بلد منخفض السكان، أصابه الوهن، وبعد الفتح.. رأينا الجزية تهبط، بينما يحافظ الخراج على مركزه، بما يشير إلى انهيار الجماعة المسيحية، بالرغم من الاستقرار الديموجرافي المحيط. إن أكثر من نصف الأقباط سوف يتحولون إلى اعتناق الإسلام في أقل من أربعين سنة ـ ٢٦٪ بين عامي سنة ٦٤٤م وسنة ٦٦١م، ثم ٣٣٪ في عهد معاوية (٢٠ ق.هـ ـ ٦٠هـ ٦٠٣ ـ ٦٨٠م) وحده، بين عامي سنة ٦٦١م وسنة ٦٨٠م وفي سنة ٨٠٠ م لم تكن مصر تضم بالفعل غير ٢٢٪ من المسيحيين، إلى جانب ٧٧٪ من المسلمين، و١٪ من اليهود وفي سنة ١٨٨٢م وصلت نسبة المسيحيين بمصر إلى ٨٪ من السكان**»[(١)].

هذا هو علم علماء التاريخ والاجتماع والديموجرافيا.

كان تعداد سكان مصر عند الفتح الإسلامي ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة وبسبب الجفاف الدوري للنيل؛ ظل هذا هو متوسط السكان بها حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، عندما تحكمت مصر في مياه النيل.

أما المرجفون، فلقد زعموا أن سكان مصر ـ عند الفتح ـ كان ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ (عشرون مليونًا).. و«أن فيضان النيل بريء من المجاعات والتصحر» وأن الإسلام والحكم الإسلامي «كان له الدور الأول والأخير في تحويل مصر من سلة غلال العالم إلى بلد يستجدي قوت يومه»[(٢)].

فمن نصدق؟.. علم العلماء؟ أم أكاذيب المرجفين؟!

ثم من قال إن مصر ـ قبل الفتح ـ كانت سلة غلال العالم؟

لقد كانت مصر ـ كما سيأتي ـ تطعم مدينة روما وليس الإمبراطورية الرومانية، ـ فضلًا عن العالم ـ أربعة أشهر في العام وليس كل العام.

ولكنها ثقافة الكراهية السوداء، التي تعدت الإسلام، إلى الفتح الإسلامي، إلى حقائق التاريخ.

(١) المصدر السابق، ص٣٢.
(٢) (الوطن الأم) ص١٩٧.

١٤ـ ولأن الكذب عند خصوم الإسلام وأعداء الفتوحات الإسلامية، قد غدا حرفة تغذي ثقافة الكراهية السوداء ومنها يرتزق الكذبة المرجفون ـ وذلك مصداقًا لقول لقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأمثالهم: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨٢) فلقد ارتفع سقف الأكاذيب على الفتح الإسلامي حتى رأينا ـ في القرن العشرين ـ من يحيي أكذوبة ـ فنَّدها علماء التاريخ ـ تقول: إن العرب الفاتحين لمصر هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية بأمر الراشد الفاروق عمر بن الخطاب!!. «**وأن الفتح العربي كان من الوجهة الثقافية، أشد إيذاء للإنسانية من الانقضاض المغولي. الأمر الذي يدعونا إلى تصديق صحة إحراق العرب للمكتبة، وذلك استنادًا إلى هذا المسلك المدمر الذي أبداه العرب في فترات مختلفة في ظل حكومات مختلفةـ يدعونا إلى تصديق الكُتّاب الذين اتهموا الخليفة عمر بن الخطاب بأنه هو الذي أصدر الأمر إلى عمرو بن العاص بإحراق مكتبة الإسكندرية**»[١].

ويبدو أننا بـإزاء هذه «الأسطورة المكذوبة» و«الكذبة الأسطورية» مطالبون بأن نعيد تذكير القراء بما كتبه أساطين المؤرخين الغربيين، والذين كانوا ـ في تأريخهم للفتح الإسلامي ـ في معسكر المناوئين للإسلام وفتوحات المسلمين، على وجه الخصوص!؛ فالحق ما شهدت به الأعداء.

إن المؤرخ الإنجليزي الشهير «بتلر»ـ صاحب كتاب (فتح العرب لمصر)ـ يحكي موقفه إزاء حرق مكتبة الإسكندرية، فيقول: «**لقد بدأنا درسنا على الاعتقاد الشائع أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية. غير أننا اضطررنا إلى أن نرى أن التاريخ قد ظلم العرب في ذلك ظلمًا فاحشًا؛ إنه لم يرد للمكتبة ذكر مكتوب قبل مضي خمسة قرون ونصف قرن على فتح الإسكندرية. ولقد روى بعض المؤرخين ضياع هذه المكتبة في حريق سنة ٤٨م عندما كان قيصر محصورًا في حي البروكيون، يحيط به المصريون من كل جانب، وعليهم قائدهم «أخيلاس»، فأحرق السفن التي في الميناء، وقيل إن النار امتدت من هناك فأحرقت المكتبة وأفنتها، ولقد أكد**

(١) (الأقباط عبر التاريخ) ص١٧٢ ـ ١٧٤.

ذلك المؤرخ «بلوتارك» (٥٠ ـ ١٢٥م)، وصدق على ذلك المؤرخ (سنيكا) (٤ ق.م ـ ٦٥م)، وذكر أن عدد الكتب التي كانت بها وأحرقت ٤٠٠,٠٠٠»، وأكد ذلك ـ أيضًا ـ «ديوكاسيوس» كما أكده كذلك المؤرخ «أميانوس سلينوس» (٣٣٠ ـ ٤٠٠م).. الأمر الذي يجعلنا نصدق ما جاء من أخبار ضياع المكتبة في حريق الإسكندرية على يد قيصر سنة ٤٨م».

ولقد أنشئت مكتبة (أخرى) أصغر في معبد السرابيوم أوائل التاريخ المسيحي، ولقد قُضي عليها أواخر القرن الرابع على يد المسيحيين، يقودهم «تيوفيلوس» (٣٨٥ ـ ٤١٢م) إبان النضال الديني ضد الوثنية سنة ٣٩١م ـ عندما ثار غوغاء المسيحيين وعامتهم ممن أعماهم التعصب للدين المسيحي.

ولو كان بالإسكندرية مكتبة عامة كبرى قبل الفتح، ثم أحرقها العرب عند فتحهم لها؛ لما أغفل ذكر هذا الحادث رجل مثل «النقيوسي»، وهو كاتب قريب العهد بالفتح، وقد أفاض في ذكر الإسكندرية، وفصّل في وصف فتحها.

إن قصة إحراق العرب لمكتبة الإسكندرية لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من الفتح. ونحن إذا حللنا هذه القصة ألفيناها سخافات مستبعدة، ينكرها العقل. وإن الرجل الذي تذكر القصة أنه كان أكبر عامل بالمكتبة قد مات قبل غزوة العرب للإسكندرية بزمن طويل».

وإن رواية ابن العبري (١٢٢٦ ـ ١٢٨٦م) لهذه القصة لا تعدو أن تكون من **أقاصيص الخرافة التي ليس لها أساس في التاريخ** فهو أول من ذكر هذه القصة ـ في كتابه (تاريخ الدول) ـ وهو مسيحي يعقوبي، من أصل إسرائيلي، صار أسقفًا ثم بطريقًا لطائفته[1].

هكذا شهد «بتلر» ومن قبله «بلوتارك» و«سنيكا» و«ديوكاسيوس»ـ من كبار المؤرخين الغربيين ـ على أن القول بحرق العرب لمكتبة الإسكندرية هو «**سخافات مستبعدة» ينكرها العقل، وأقاصيص خرافية ليس لها أساس في التاريخ»**.

لكننا رأينا قاضيًا قبطيًّا ـ هاجر إلى كندا وتزعم النشاط القبطي هناك ـ يردد هذه السخافات والخرافات، ويضعها في رسالة

(١) د. الفريد بتلر. (فتح العرب لمصر) ص٤٢٠، ٤٢٤ ـ ٤٣٠، ٤٣٩ ـ ٤٤١، ٣٩٣، ٣٨، ترجمة: محمد فريد أبو حديد. طبعة مكتبة مدبولي. القاهرة سنة ١٤١٦هـ سنة ١٩٩٩م.

دكتوراه، يقدمها في باريس!! وذلك حتى يلقي جريمة حرق مكتبة الإسكندرية على عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص والعرب والمسلمين ويبعدها عن الوثنية الرومانية وعن «غوغاء المسيحيين وعامتهم» الذين قادهم أسقف كنيسة الإسكندرية «ثيوفيلوس» سنة ٣٩١م ـ كما قال صاحب (فتح العرب لمصر) وكما فصّل ذلك صاحب (تاريخ مصر في العصر البيزنطي) الذي قال: «لقد أنشأ بطليموس الثاني (٢٨٣ ـ ٢٤٦ ق.م) مكتبة السرابيوم التي حوت ما يقرب من ٥٠٠,٠٠٠ مجلدًا، وأحرق معظم هذه الكتب أثناء حصار «قيصر» للإسكندرية، مما جعل أنطونيو (٨٣ ـ ٣٠ ق.م) يقوم بإهداء «كليوباترا السابعة» (٦٩ ـ ٣١ ق.م) ٢٠٠,٠٠٠ مجلدًا من مكتبة برجامة، وللمرة الثانية تم إحراق جزء من هذه المكتبة ـ أثناء الحريق الذي أشعله الإمبراطور «ماركوس أورليوس» (٢٧٠ ـ ٢٧٥م) في الحي الملكي بالإسكندرية سنة ٢٧٢، وفي عهد الإمبراطور «ثيورسيوس الأول» (٣٧٩ ـ ٣٩٥م) سنة ٣٩١م، ثم الإحراق الكامل لمكتبة السرابيوم على يد المسيحيين، حتى يقضوا على التراث الوثني تمامًا. فقد قام «ثيوفيلوس» (٣٨٥ ـ ٤١٢م) أسقف كنيسة الإسكندرية بحملة اضطهاد عنيفة ضد الوثنيين، واتجه للقضاء على مدرسة الإسكندرية الوثنية وتدمير المكتبة وإشعال النار فيها باعتبارها أكبر مركز للثقافة الوثنية، كما هلكت أثناء هذه الحملة مكتبات المعابد الأخرى، وقد نجا من هذا الحريق بعض الكتب، مما جعل مكتبة الإسكندرية ومتحفها مركزًا للمعرفة والتعليم حتى الفتح الإسلامي.

وبعد الفتح الإسلامي، واصل المسلمون ـ ضمن إحيائهم مواريث الحضارات السابقة ـ التعليم في الإسكندرية، فوفد يعقوب الإدريسي (٤٩٣ ـ ٥٦٠هـ ـ ١١٠٠ ـ ١١٦٥م) إلى الإسكندرية ليتم تعليمه بجامعتها»[١].

ولقد استخار خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز (٦١ ـ ١٠١هـ ـ ٦٨١ ـ ٧٢٠م) ربه، ثم أمر بترجمة كتب الطب الموجودة بمكتبة الإسكندرية، وعمم تدريس الطب بالحواضر الإسلامية، بعد أن كان الطب حكرًا على الملوك والخاصة فيما قبل الإسلام!.

(١) د. صبري أبو الخير سليم (تاريخ مصر في العصر البيزنطي) ص١٦٧. طبعة دار عين، القاهرة سنة ٢٠٠١م.

تلك هي قصة مكتبة الإسكندرية، بين حقائق التاريخ والسخافات الخرافية التي ينكرها العقل ـ التي يرددها الآن من يحملون الدكتوراه ـ التي تُناقش وتجاز في باريس؟!.

١٥ ـ وفرية أخرى تجاوزت الفتوحات الإسلامية لتطال الإسلام وحضارته وتاريخه، ولتطعن في السماحة والتعددية اللتين تميز بهما الإسلام وتفرد دون غيره من الديانات تلك هي الفرية التي تزعم أن هناك «**إجماعًا على حظر بناء معابد أو كنائس جديدة في المدن والتجمعات السكانية الهامة في العالم الإسلامي، ويعزو البعض منشأ تعليمات هذا الحظر إلى عمر بن الخطاب، في حين ينسبها آخرون إلى النبي محمد نفسه**»[(١)].

وهذه الفرية الغريبة عن فكر الإسلام وواقع تاريخه، تتجاهل أن القرآن الكريم قد جعل التدافع بين الحق والباطل سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل، وأن من ميادين هذا التدافع الحفاظ على دور العبادة، لا الإسلامية وحدها، وإنما دور عبادة كل الديانات، حتى لقد رتب النص القرآني دور العبادة هذه وفق التتابع التاريخي، فقال: ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ** ﴿٤٠﴾﴾ (الحج: ٤٠).

كما تتجاهل هذه الفرية نص الوثيقة الدستورية النبوية ـ (صحيفة المدينة) ـ التي عقدها رسول الله ﷺ دستورًا لدولة المدينة، كدولة رعيتها متعددة الديانات والتي جاء فيها: «.. وأن يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، وأن لهم البرّ دون الإثم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحصن دون الإثم»[(٢)].

كما تتجاهل هذه الفرية الوثيقة الدستورية التي عقدها رسول الله ﷺ مع نصارى نجران ـ باليمن سنة ١٠ هـ ـ والتي تجاوزت إعطاء الأمان على المقدسات ودور العبادة للنصارى ـ فضلًا عن الأنفس والأموال ـ تجاوزت ذلك إلى حماية هذه المقدسات ودور العبادة بما تتم به حماية الأنفس والمقدسات الإسلامية سواء بسواء.

(١) (الأقباط عبر التاريخ) ص١٥٧، ١٥٨.

(٢) (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ص١٥ ـ ٢١.

فلقد نصت هذه الوثيقة الدستورية ـ بعبارات لا نظير لها في تاريخ الحقوق على امتداد تواريخ الأمم والديانات والحضارات ـ نصت على عهد الرسول ﷺ ـ **«لنجران وحاشيتها وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض، جوار الله وذمة محمد رسول الله، على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير أن أحمي جانبهم، وأذب عنهم، وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم ومواضع الرهبان، ومواطن السياح، وأن أحرس دينهم وملتهم أينما كانوا بما أحفظ به نفسي وأهل الإسلام من ملتي؛ لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم، وإن احتاجوا في مرمّة بيعهم وصوامعهم، أو شيء من مصالح أمورهم ودينهم إلى رِفْد من المسلمين وتقوية لهم على مرمتها، أن يُرفدوا على ذلك ويَعاونوا، ولا يكون ذلك دَينًا عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاء بعهد رسول الله لهم، ومنّة لله ورسوله عليهم»**[(١)].

وحتى لا تكون هناك شبهة تقْصُر هذه الحماية على المقدسات التي كانت موجودة قبل الفتوحات الإسلامية ـ خصوصًا وأن بعض مصادر الفقه الإسلامي قد نهت عن استحداث كنائس في المدن الجديدة التي مصّرها المسلمون بعد الفتوحات ـ حتى لا يكون هناك سبيل لهذه الشبهة؛ نشير إلى حقيقة أن المدن التي مُنع فيها استحداث الكنائس، كانت ـ يومئذ ـ خططًا ومعسكرات ومساكن للجنود المسلمين الفاتحين ـ وذلك مثل «الفسطاط» ـ بمصرـ و«كوفة» و«البصرة» ـ في العراق ـ. وبديهي أن لا تبنى كنائس في مدن ليس بها نصارى، وهي خطط ومعسكرات لجيوش الإسلام والدليل على هذا الذي نقول، إن هذه المدن عندما تحولت من معسكرات لجيوش المسلمين إلى حواضر سكنية، أقام فيها النصارى، أقيمت فيها دور العبادة لغير المسلمين حدث ذلك في «الفسطاط» و«الكوفة» و«البصرة» وكل المدن التي بدأت خالصة للمسلمين، ثم سكن فيها غير المسلمين ـ مثل القطائع والقاهرة ـ والتي تقوم فيها الكنائس ومعابد اليهود حتى الآن شاهدة على هذا الذي نقول.

(١) المصدر السابق. ص١١١ وما بعدها.

ولقد شهد المؤرخ القبطي «يعقوب نخلة روفيلة»ـ صاحب كتاب «تاريخ الأمة القبطية» بذلك فقال: «ولما شرع عمرو بن العاص في بناء مدينة الفسطاط كان القبط من أهم العاملين في عمارتها، ولا سيما رجال الحكومة، الذين كان معظمهم إن لم نقل كلهم من الأقباط، **فشيدوا بها القصور العالية والدور الرحبة والكنائس والديارات الواسعة،** والمنتزهات والبساتين النضرة، وكان العرب يشجعونهم على ذلك لما فيه من العمران، وهكذا أصبحت الفسطاط بهمة الأقباط الذين بذلوا النفس والنفيس في تشييدها مدينة زاهية زاهرة تحاكي في البهجة والرونق مدينة منف القديمة التي شيدتها أيادي الفراعنة، وفي هذا دليل على إحكام الوفاق وتمكين العلاقات بين القبط والعرب في ذلك الزمن، **حتى أباحوا لهم بناء كنائس ومعابد متعددة في وسط الفسطاط التي هي مقر جيش الإسلام، على حين أن المسلمين كانوا يصلّون ويخطبون في الخلاء، وأنه لم يكن لهم غير جامع واحد الذي بناه عمرو بن العاص**»[1].

وعندما كان والٍ من الولاة يحيد عن هذا المبدأ الإسلامي وهذه السنة الشرعية ـ مثلٌ والي مصر يزيد بن حاتم، الذي هدم الكنائس المستحدثة بعد الفتح ـ عقب ثورة مسيحية بمدينة «سخا» سنة ١٥٠هـ سنة ٧٦٧م ـ وقف فقهاء الإسلام إلى جوار المسيحيين مطالبين بإعادة بناء الكنائس التي هدمت، ومن هؤلاء الفقهاء الإمام الليث بن سعد (٩٤ ـ ١٧٥هـ ٧١٣ ـ ٧١٩م) والقاضي عبد الله بن لِهَيعة (٩٧ ـ ١٧٤هـ ٧١٥ ـ ٧٩٠م). وفي فتواهما قالا: «**إن جميع كنائس مصر قد بنيت وحدثت بعد الفتح**»؛ لأن اليعاقبة ـ «القبط» ـ كانوا مضطهدين في عهد الاحتلال البيزنطي، وكان الروم الملكانيون يسيطرون على الكنائس جميعها، ولقد حرر الفتح الإسلامي هذه الكنائس والأديرة من الاغتصاب الروماني، لا ليتخذها مساجد للمسلمين، وإنما ردها للقبط الذين كانوا محرومين منها، فهي هبة الإسلام لنصارى مصر ـ بعد الفتح الإسلامي ـ.

ولقد جاء في هذه الفتوى ـ التي وضعت في التطبيق ـ تلك العبارة الجامعة والبالغة: «**إن بناء الكنائس يعد من عمارة البلاد**»[2].

(١) (تاريخ الأمة القبطية) ص٥١، ٥٢.

(٢) المقريزي (الخطط) جـ ٣ ص٥٣٧، ٥٣٨. طبعة دار التحرير. القاهرة. والكندي ـ أبو عمر محمد بن يوسف (كتاب الولاة وكتاب القضاة) ص ١٣٢. تحقيق: رفن كست. طبعة بيروت سنة ١٩٠٨م. ويذكر آدم متز ـ في (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) جـ١ ص٩١. أن المنع من إنشاء دور عبادة جديدة كان تشريعًا رومانيًّا طبقه الرومان على اليهود، فكانوا يسمحون لهم بترميم ما تهدم فقط دون بناء كنائس جديدة. ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة. طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

ويزكي هذا الذي نقول، واقع انتشار الكنائس النصرانية والمعابد اليهودية على امتداد أرض عالم الإسلام، عبر تاريخ الحضارة الإسلامية، وكذلك شهادة الأنبا شنودة الثالث (١٩٢٣ ـ ٢٠١٢م) في خطاب أمام الرئيس محمد أنور السادات (١٣٣٧ ـ ١٤٠١هـ ـ ١٩١٨ ـ ١٩٨١م) ـ أثناء وضع حجر الأساس لمستشفى «مار مرقس» ـ بالقاهرة ـ في ١١ - ١٠ - ١٩٧٧ وهي الشهادة التي تحدث فيها الأنبا شنودة الثالث عن الفاروق عمر بن الخطاب ـ الذي يفترى عليه الكذبة فينسبون غليه منع استحداث الكنائس ـ فقال البابا شنودة: «**إن الخليفة عمر بن الخطاب حينما اقترب من الموت أوصى من يأتي بعده في الخلافة من جهة أهل الكتاب بأمرين:**

الأول: وفاء العهود التي أعطيت لهم.

والأمر الثاني، قال فيه: ولا تكلفوهم فوق ما يطيقون.

ولقد انتهت حياة عمر بن الخطاب على الأرض، وانتهت مدة خلافته، ولكن الخير الذي عمله لم يمت بموته إطلاقًا وما يزال حيًّا الآن يملأ الآذان، ويملأ الأذهان ويحيا مع الناس على مدى الأزمان».

كما شهد البابا شنودة للخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (٧١ ـ ١٢٥هـ ٦٩٠ ـ ٧٤٣م) فقال: إنه ابتنى للبطريرك في أيامه بيتًا إلى جوار قصره، وكان يستمع منه إلى صلواته وعظاته».

وشهد للإخشيد محمد بن طغج (٢٦٨ ـ ٣٣٤هـ ٨٨٢ ـ ٩٤٦م) فقال: «إنه كان يبني الكنائس بنفسه، ويتولى ترميمها. وكنيسة أبي سرجة ـ في مصر القديمة ـ اهتم ببنائها الخلفاء المسلمون، وكنيسة أبي سيفين ـ للقديس مار مرقيوس ـ بمصر القديمة ـ تولى الاهتمام بها الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ ٩٧٥ ـ ٩٩٦م)»[1].

هكذا شهد البابا شنودة الثالث على أن تاريخ الإسلام قد جسد عهد الرسول ﷺ بحماية وصيانة مقدسات غير المسلمين، وهي شهادة تدحض الفرية التي زعم أصحابها أن رسول الإسلام وعمر بن الخطاب قد فرضا حظر بناء المعابد والكنائس الجديدة في المدن والتجمعات السكانية الهامة في العالم الإسلامي.

(١) مجلة (وجهات نظر) عدد ١٣٣ ـ فبراير سنة ٢٠١٠م ـ ص ٢٦، ٢٧.

وغير شهادة التاريخ فإن شهادة الواقع المعاصر والمعيش تنقض هذا الافتراء.

فمصر الإسلامية، بنت ـ من أموال الدولة ـ أكبر كاتدرائيات الشرق الأوسط للأقباط الأرثوذوكس، تلك التي وضع حجر أساسها الرئيس جمال عبد الناصر (١٣٣٦ ـ ١٣٩٠هـ ـ ١٩١٨ ـ ١٩٧٠م) في ٢٤ يوليو سنة ١٩٦٥م، وافتتحها في ٢٥ يونيو سنة ١٩٦٨م.

وعلى أرض مصر الإسلامية تبلغ مساحة دور العبادة المسيحية ـ كنائس وأديرة ـ ما يسع صلاة ٣٤,٠٠٠,٠٠٠ من المصلين ـ وفق مقاييس الأمم المتحدة ـ التي تجعل للمصلي من ٤٦ سم إلى ١٠٠ سم ـ بينما تعداد المسيحيين ـ بمصر ـ وفق إحصاء «مركز بيو» الأمريكي ـ في أكتوبر سنة ٢٠٠٩م ـ أربعة ملايين ونصف المليون! نصفهم مهاجرون في الخارج!.

أما المسلمون المصريون ـ وفق تعداد ومقياس الأمم المتحدة ـ فإن لديهم عجزًا في عدد المساجد ومساحتها ـ يحتاجون بسببه إلى ٥٢,٠٠٠ مسجد، مساحة كل مسجد ٥٠٠ مترًا أي يحتاجون إلى مساجد مساحتها ٤٨,٠٠٠,٠٠٠ مترًا مربعًا؛ كي يتساوى المسلمون المصريون بالمسيحيين المصريين، وحتى تتساوى مساجد مصر بكنائسها!![1].

١٦ ـ ورغم ما تواتر في تاريخ الفتح الإسلامي لمصر، من ترحيب القبط ـ بتعليمات من البطرك الوطني الهارب من الرومان ـ «بنيامين» (٣٩هـ ٦٥٩م) ـ وتقديمهم المساعدات للجيش الفاتح منذ المعركة الأولى ـ معركة «الفرما» في شمالي سيناء ـ ثم في مختلف معارك هذا الجيش ضد الرومان رغم تواتر الأخبار بذلك، وشهرة هذه الوقائع؛ فإن بعض المرجفين يزعمون أن القبط لم يرحبوا بالفاتحين العرب، وأنهم في الحدود القصوى ـ قد وقفوا مترقبين!

ولكن مصادر التاريخ تأبى إلا أن تشهد على أن القبط قد تجاوزوا «مساعدة» الجيش الفاتح إلى «الاشتراك معه في قتال الروم».

(١) بهاء علي قرنة: (دراسة مساحة الكنائس والأديرة) ـ شبكة المعلومات العالمية. وانظر ـ كذلك ـ د. محمد عمارة (الاستغلال الأمريكي للأقليات) ص٨٦ ـ ٩٦. طبعة مكتبة وهبة ـ القاهرة سنة ٢٠١١م.

فبعد تمام الفتح، حاول الرومان العودة لاسترداد مصر مرة أخرى، وجاء الأسطول الروماني بقيادة «مانويل» واقتحم الإسكندرية سنة ٢٥هـ، وقتل كل من وجدهم بها من المسلمين، فأسرع القبط ـ بقيادة البطرك الوطني «بنيامين» ـ إلى طلب النجدة من الخليفة عثمان بن عفان، وطلبوا منه إعادة عمرو بن العاص ليقود معركة التحرير من جديد، فعاد عمرو إلى مصر، وانخرط القبط في الجيش الذي قاده، واستعادوا تحرير الإسكندرية وما حولها من جديد، ويشهد على هذه الحقيقة ـ حقيقة انخراط القبط في القتال ضمن الجيش الإسلامي ـ المؤرخ القبطي يعقوب نخلة روفيلة، فيقول: «وكان الروم في القسطنطينية يفكرون في استرجاع مصر فجردوا حملة لإنقاذها من يد العرب، فساروا بمراكبهم حتى دخلوا الإسكندرية ـ (سنة ٢٥ هـ)ـ وحاولوا النزول بها، **فمنعهم المقوقس من ذلك، فنزلوا بساحلها، وانضم إليهم من كان بها من الروم الذين نقضوا العهد. أما المقوقس والقبط فتمسكوا بعهدهم مع المسلمين، ودافعوا عن المدينة ما استطاعوا، فخرج الروم منها،** وصاروا يعيثون فسادًا في القرى وينهبون ما بها ويقتلون سكانها، فخاف أهل مصر سوء العاقبة، **واجتمعت كلمة القبط والعرب على أن يطلبوا من الخليفة أن يأذن لعمرو بن العاص في العودة إلى مصر لمقاتلة الروم**؛ لتدربه على الحرب وهيبته في عين العدو، فأجاب طلبهم، وأرسله فصار يحاربهم ويقاتلهم حتى أبعدهم عن المدينة، فركبوا سفنهم وعادوا إلى بلادهم بالخيبة، ولم يرجعوا. **وكان القبط يحاربون مع العرب، ويقاتلون الروم خوفًا من أن يتمكنوا من البلاد ويأخذونها فيقع القبط في يدهم مرة أخرى**»[١].

ويؤكد هذه الحقيقة، المؤرخ الإنجليزي «بتلر» فيقول: «**لقد وقف «بنيامين» مع قومه القبط يشدون أزر العرب ويساعدونهم، ويظهرون الود، حافظين بذلك عهدهم الذي تعاهدوا عليه، وكان عمرو بن العاص في أثناء سيره ببلاد مصر السفلى ـ (إبان الفتح) ـ يلقى مساعدة من قرى القبط حيث سار، فكانوا يأتون إليه بمن يقيم الجسور، ويقدمون له ما كان في استطاعتهم تقديمه، بعدما حل بهم من نهب الروم وغصبهم**»[٢].

(١) (تاريخ الأمة القبطية) ص٥٨ـ ٥٩.
(٢) (فتح العرب لمصر) ص٤٨٥، ٤٨٧، ٤٨٨.

١٧ـ وأمام غرابة هذه المفتريات ـ على الفتح الإسلامي ـ والتي تهاوت الواحدة تلو الأخرى أمام حقائق التاريخ التي قدمناها ـ لابد للقارئ من أن يتساءل عن الدوافع التي دفعت أصحاب هذه الأكاذيب والمفتريات إلى كتابة ما كتبوا ونشر ما نشروا وإذاعة ما أذاعوا ـ رغم الحقائق الساطعة سطوع الشمس، والتي تدحض هذا الذي كذبوا؟!

ونحن لا نجد جوابًا على هذا التساؤل المشروع، سوى أن مخزون الكراهية السوداء للإسلام وحضارته وتاريخه عند هؤلاء الكذبة المفترين قد أعمى منهم البصائر والأبصار، فكانت هذه المفتريات.

ويكفي أن نضرب مثلًا على ذلك بالكاتبة الماركسية/ اللينينية/ الستالينية/ الماوية/ التي تؤمن إيمانًا راسخًا بالمادية الجدلية، والمادية التاريخية. وكيف قادها الحقد على الإسلام، والكراهية لتاريخه، إلى التنكب بأبسط مناهج البحث العلمي والتاريخي فبدلًا من البحث عن تاريخ الخلفاء في المصادر التي أرخت لهذا التاريخ، رأيناها تستبدل تاريخ (حياة الحيوان) بتواريخ الخلافة والخلفاء!. فتقدم صورة خرافية وعبثية ولا معقولة للخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (٥٤ ـ ٩٩ هـ ٦٧٤ ـ ٧١٧م) تقول فيها: «إنه كان نهمًا في الأكل. وقد نُقل عنه أنه اصطبح في بعض الأيام بأربعين دجاجة مشوية، وأربعين بيضة، وأربع وثمانين كلوة بشحمها، وثمانين جردقة (رغيفًا)، ثم أكل مع الناس في السماط العام».

وأنه دخل ذات يوم بستانًا له، وكان قد أمر قيِّمه أن يجني ثماره، ويستطيب له، وكان معه أصحابه، فأكل القوم حتى اكتفوا، واستمر هو يأكل، فأكل أكلًا ذريعًا، ثم استدعى بشاة مشوية فأكلها، ثم أقبل على الفاكهة فأكل أكلًا ذريعًا، ثم أتى بقَعْب ـ (قدح ضخم) ـ مملوء سمنًا وسويقًا وسكر فأكله أجمع، ثم سار إلى دار الخلافة، وأتى بالسماط»[١]!!

هكذا كتبت صاحبة المادية الجدلية والمادية التاريخية، عن الخلافة والخلفاء، كما كتبت عن صفوف الأسرى والسبايا المصريين ـ أثناء الفتح ـ التي امتدت من مصر للمدينة ومكة واليمن، وهي

(١) (حكايات الدخول) ص١٩٤.

صفوف تعني أن تعداد هؤلاء الأسرى والسبايا يزيد على العشرة ملايين بينما كان تعداد جميع سكان مصر ـ يومئذ مليونان ونصف المليون!!

ونموذج آخر من نماذج تشويه التاريخ الإسلامي قدمه صاحب كتاب (الوطن الأم) عن الدولة الفاطمية، عندما زعم أن «الهبات التي كانت تمنح لأبواق النظام ـ من أدباء وشعراء وفقهاء وقراء القرآن ـ كان العطاء فيها ما بين ٥٠٠ دينارًا و ٢,٠٠٠ دينارًا»[١].

فإذا علمنا أن ذات الكاتب يذكر أن إيجار الفدان ـ يومئذ ـ كان ١,٥ دينارًا[٢] فهل كانت هبة قارئ القرآن تساوي إيجار أكثر من ٦٦٦ فدانًا؟!

كما يذكر أن ميزانية الأزهر ـ في عهد الحاكم بأمر الله ـ كانت ٦٣,٣٥٠ دينارًا[٣] فهل كانت الميزانية السنوية للأزهر لا تزيد عن عطاء ٣١ من قراء القرآن الكريم؟!

فهل هذه «أبحاث»؟! وهل في ذلك أثارة من قواعد البحث التاريخي التي تعارف عليها المؤرخون؟!

أم أن مخزون الكراهية السوداء ـ للإسلام وتاريخه وحضارته وللفتوحات الإسلامية ـ هو الذي جعل حتى أدعياء العلم والمنهج العلمي يسلكون سبيل العبث اللامعقول؛ لتشويه هذا الفتح المبين لكنانة الله في أرضه ـ على النحو الذي عرضناه وفنَّدْناه فيما تقدم من صفحات ـ؟!

(١) (الوطن الأم) ص١٩٥.
(٢) المرجع السابق. ص١٨٥.
(٣) المرجع السابق. ص١٩٥.

الفصل الثاني
العالم قبل الإسلام

قبل ظهور الإسلام، كان العالم قد وصل إلى حال من البؤس والظلم والفساد والاستبداد والكآبة والقنوط، طرح الحديث عن ضرورة التغيير.

ولقد كان اليهود ـ في يثرب ـ يستفتحون على العرب ـ من الأوس والخزرج ـ بأن نبيًّا قد أظل زمانه، وأنهم سيحاربون معه ضد العرب، وينتصرون به عليهم، وأن هذا التغيير قد أصبح حتميًّا ووشيكًا.

ولم يكن هذا الاعتقاد وقفًا على اليهود، ذلك أن عددًا من قساوسة النصرانية كانوا يتنبؤن بهذا التغيير، الذي سيتم على يد النبي المنتظر، ويبدو أن بقايا البشارات التي تناثرت في الكتاب المقدس قد أسهمت في تحريك هذه النبوءات.

أما حال العالم، الذي طرح على الفكر هذه النبوءات، فلقد كان في الذروة من الظلم والفساد والاستبداد والصراعات الدموية التي لا تنتهي بين الإمبراطوريات الطبقية المستبدة ـ الروم والفرس ـ وبين الحكام والمحكومين وبين أصحاب الديانات وبين المؤسسات الدينية ورعايا هذه المؤسسات.

كان ذلك العالم مليئًا بصراعات الروم والفرس على افتراس بلاد الشرق واستعباد شعوبه، ونهب ثرواته، وقهر ثقافاته، وبصراعات اليهود والنصارى، وصراعات الآريوسيين النصارى الموحدين ـ مع المثلثة ـ اليعاقبة الأرثوذكس والروم الملكانيين، وبصراعات الأقباط ـ في مصر ـ مع الملكانيين الرومان، وبصراعات النصارى مع الوثنيين.

ولقد عرض المقريزي ـ في (الخطط) ـ لطرف من هذه الصراعات، فقال: «إنه في أيام «فوقا» ملك الروم (٦٠٢ ـ ٦١٠م) بعث كسرى ـ ملك فارس ـ جيوشه إلى بلاد الشام ومصر، فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام، وقتلوا النصارى بأجمعهم، وأتوا إلى مصر في طلبهم، فقتلوا منهم أمة كبيرة، وسبوا منهم سبايا لا يدخل تحت حصر.

وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم، وأقبلوا ـ (اليهود) ـ نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل وقرية الناصرة ومدينة صور وبلاد المقدس، فنالوا من النصارى كل منال، وأعظموا النكاية فيهم، وخربوا لهم كنيستين بالقدس، وحرقوا أماكنهم، وأخذوا قطعة من عود الصليب، وأسروا بطرك القدس، وكثيرًا من أصحابه.

ثم مضى كسرى بنفسه من العراق لغزو قسطنطينية ـ تحت ملك الروم ـ فحاصرها أربع عشرة سنة.

وثار اليهود بمدينة صور، وراسلوا بقيتهم في بلادهم، وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم، فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفًا، وهدموا كنائس النصارى خارج صور، فقوي النصارى عليهم وكاثروهم، فانهزم اليهود هزيمة قبيحة، وقتل منهم خلق كثير.

وبعد انتصار هرقل على الفرس، أوقع هرقل باليهود وقيعة شنعاء، أبادهم جميعًا فيها، حتى لم يبق في ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من اختفى.

وكان بين القبط والملكانية ـ أهل الدولة ـ من العداوة ما يمنع مناكحتهم، ويوجب قتل بعضهم بعضًا»[١].

ويتحدث المؤرخ الإنجليزي «بتلر» عن هذه الصراعات الدموية التي دامت ردحًا طويلًا من الزمن، والتي أشاعت الخراب في مختلف الأنحاء، فيقول: «لقد عصفت بالبلاد ـ مصر ـ جراء القتال بين الفرس والروم مخالب الخراب، فلم تكد تنجو من السيف حتى أصابتها مجاعة دفعت بالناس إلى الثورة، وخرج اللصوص في عصابات منظمة، وكثرت غارات البدو وقبائل السودان يهددون حدود البلاد[٢].

وفي السنة الأخيرة من حكم «فوكاس» (٦٠٢ ـ ٦١٠م) أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية، وفي السنة التي تلت ذلك ساعد يهود أنطاكية الفرس وكذلك فعلوا في بيت المقدس وعندما خضعت فلسطين للفرس؛ ثار العبرانيون بالمسيحيين، ودفعهم حقدهم الموروث إلى أن ينكلوا بالمسيحيين تنكيلًا عظيمًا، ثم لحقوا بالفرس، ونبتت بينهم مودة وثيقة[٣].

(١) المقريزي (الخطط) جـ٣ ص٥٣٣ ـ ٥٣٥.
(٢) بتلر (فتح العرب لمصر) ص٧٢، ٧٣.
(٣) المرجع السابق، ص١٠٠.

وكان القبط والسوريون يكرهون الروم، وكان اليهود يمقتون أتباع المسيح[١].

ولما فتح هرقل القدس، أمر أن يُجلي اليهود منها، ويمنعوا أن يعودوا بعد ذلك إلى ما بعد أسوار المدينة بثلاثة أميال، ولم يكن ذلك النفي أشد ما نزل بهم، وإنما وقعت بهم مقتلة تشبه أن تكون عامة، ولقد اشترك القبط في تلك المقتلة لما كان بهم من الموجدة على اليهود منذ فتح الفرس للإسكندرية، وكانت هذه المقتلة أول عام ٦٣٠م[٢].

ويقول المؤرخ الأرمني «جيفوند»: إن اليهود دعوا العرب ليخرجوا الـروم من فلسطين، ولقد ورد هذا الخبر أيضًا في «سبيوس»[٣].

وبانتصار هرقل على الفرس فرح المسيحيون ـ القبط والملكانيون ـ وأظهروا سرورهم جميعًا بما حل باليهود من النقمة[٤].

ولقد زحف الفرس سنة ٦١٦م فغزوْا مصر، وأخذوها كلها هي والإسكندرية وليبيا إلى حدود أثيوبيا، ثم عادوا ومعهم عدد عظيم من الأسرى وغنائم جليلة المقدار[٥].

ولقد قتل الفرس من بالإسكندرية من الرجال، ولم يكد يفلت منهم أحد إلا النزر اليسير ممن دخلوا الجحور والثنايا، ونهبوا ما في الأديرة جميعه من مال ومتاع، وهدمت الكنائس والأبنية، أو أحرقت وأصبحت خاوية على عروشها، وظلت أطلالًا إلى زمن فتح العرب لمصر.

ولقد فرضوا على الكنائس جزية تؤديها ـ واستصفوا ما للكنائس الملكانية الطريدة من أوقاف وأرزاق[٦].

ويقول صاحب كتاب (الوطن الأم): إن الفرس قد دمروا بالإسكندرية وحدها ٦٠٠ ديرًا، وبلغ عدد قتلاهم ٨٠ ألفًا وتكرر ذلك بالدلتا وبعض مدن الصعيد[٧].

ولقد كان نصارى مصر ضحايا للفرس ـ عند غزوتهم ـ وللروم ـ عند انتصارهم على الفرس ـ ويؤكد هذه الحقيقة صاحب كتاب (تاريخ الأمة القبطية) فيقول: «إن الملك هرقل ـ عندما انتصر على الفرس ـ لم يقتصر فقط على اضطهاد النصارى الذين كانوا على غير

(١) المرجع السابق. ص١١٣.
(٢) المرجع السابق. ص١٧٠.
(٣) المرجع السابق. ص١٩٥
(٤) المرجع السابق. ٨٠٢.
(٥) المرجع السابق. ص١١١.
(٦) المرجع السابق. ص١١٤.
(٧) (الوطن الأم) ص١٠٨.

مذهبه ومعتقده، بل اشتد على اليهود أيضًا، وذلك أنه لما انتصر على الفرس أغراه بعض أئمة النصارى على الإيقاع بهم بعلة أنهم كانوا يعاونون ويحرضون الفرس على قتل المسيحيين، وأنهم كانوا يشترون منهم الأسرى النصارى بمبالغ طائلة ويقتلونهم، فاحتدم عليهم الملك غيظًا، وأباح للنصارى قتلهم وسلب أموالهم وسبي نسائهم، فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، ولا سيما في مدينة القدس[١].

ويحدثنا النقيوسي عن دور النصارى المصريين ـ وليس فقط الدولة الرومانية ـ في اضطهاد اليهود، فيقول: «لقد اجتمع كل المسيحيين عند البطريرك، وخرجوا في غضب، وجاءوا إلى محاريب اليهود، واستولوا عليها، واتخذوها كنائس، وسموا إحداها باسم القديس جيرجيوس، وطردوا اليهود القتلة وأخرجوهم من المدينة، وسلبوا كل أموالهم، وأرسلوهم مجردين، ولم يستطع «أرطوس» الحاكم مساعدتهم، ثم قامت جماعة المؤمنين بالرب، مع الوالي «بطرس»، الذي كان مؤمنًا تمامًا بكل ما ليسوع المسيح باضطهاد اليهود[٢].

ووسط هذه الصراعات الدموية بين الروم والفرس، كانت الحياة المسيحية تشهد ألوانًا حادة من الصراعات الدينية.

«ففي مستهل القرن الخامس يرى «نسطوريوس» (٣٨٠ ـ ٤٥١م) أسقف أنطاكية أن المسيح كان بشرًا قبل أن يكون إلهًا، بينما ـ على النقيض من ذلك ـ يعلن أساقفة الإسكندرية طبيعة المسيح الإلهية بشكل حصري (مذهب واحدية طبيعة المسيح) ـ ويفصل مجمع «أفسس» سنة ٤٣١م النساطرة، بينما يفصل مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م القائلين بواحدية طبيعة المسيح.

وفي العراق، سوف يصبح السكان نساطرة في غالبيتهم العظمى على ما يبدو.

وفي مصر وسوريا، سوف يتبنى قسم كبير من السكان مذهب واحدية طبيعة المسيح ـ القبطي في مصر واليعقوبي في سوريا ـ.

وتحتفظ الكنيسة اليونانية بجزء من أتباعها سوف يسمى في العربية بـ (الملكانيين).

(١) المرجع السابق. ص٣٦، ٣٧.
(٢) المرجع السابق. ص١٢٩.

وفي هذا التنوع المتشابك للشيع، سوف يتلون الجدل بذكريات شرك جلية»[١].

وذلك فضلًا عن «الآريوسية» ـ الموحدة ـ التي رفضت كل ألوان الحلول والاتحاد والتثليث.

● وفي هذا العالم ـ الطافح بالصراعات السياسية والدينية الدموية ـ والمليء بالبؤس الاجتماعي والمظالم الطبقية والذي كاد أن يغلق أبواب الأمل أمام الجماهير العريضة كانت الجزيرة العربية بمنجاة عن هذه الصراعات.

«ففي الجنوب، في الصحراء، لم تكن الإمبراطوريتان ـ الفارسية والرومانية ـ تمارسان بعد أية سلطة. والواقع أن المسيحية لم تخترق هذه الأقاليم إلا بشكل بالغ السطحية.

وفي قلب شبه الجزيرة، لم تكن نجد والحجاز تضمان غير عدد قليل من المسيحيين، يتألف من عبيد أقباط بين آخرين لن يتوصلوا أبدًا إلى تشكيل طوائف حقيقية، وواحة نجران الصغيرة وحدها، التي ترجع شهرتها إلى المعاهدة التي عقدها محمد مع سكانها، هي التي كانت مسيحية منذ سنة ٥٠٠ م.

أما اليهودية، فقد كانت لها بالمقابل أهمية معينة في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، تشهد عليها بوجه محدد، المعاهدة المعقودة مع الفاتح المسلم.

على أن مما لا مراء فيه البتة أن الغالبية العظمى من سكان شبه الجزيرة كانت لا تزال بمنأى عن كل من الديانتين القائلتين بوحدانية الرب[٢].

وهنا، وبعيدًا عن البيئات الغارقة في الحروب السياسية والدينية ـ ظهر الإسلام «المسلح بدعوة وحدانية إلهية بسيطة ومطلقة، وسرعان ما أحرز تقدمًا، وسرعان ما سوف يتمكن من فرض جاذبيته، بتحقيقه للسكينة التي حرم منها إنسان ذلك التاريخ[٣].

كان العالم يتطلع إلى التغيير ويبحث عن الخلاص، وعن هذه الحقيقة يورد المؤرخ الإنجليزي «بتلر» قول «قيدرينوس»: «**على حين كانت الكنيسة تحتوشها الملوك، ومن لا يخشون الله من القسوس، خرج من الصحراء عملاق ليعاقبنا على ذنوبنا**».

(١) (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي) ص٢٠.
(٢) المرجع السابق. ص٢١.
(٣) المرجع السابق. ص٢٠.

ثم يعلق المؤرخ «بتلر» على قول «قيدرينوس»، فيقول: «هذه كلماته التي ذكر فيها نشأة الإسلام، وهي كلمات قليلة، ولكنها تدل على أن المسيحيين كانوا يشعرون أن محمدًا كان رسولًا من الله، أو هو على الأقل سوط من الله أرسله عليهم. وهذا شعور يظهر على لسان كثير ممن كتب من المسيحيين في ذلك الوقت، أمثال «سبيوس» الأرمني، الذي قال: «في ذلك الوقت ظهر رجل من ولد إسماعيل اسمه محمد، كان تاجرًا، وقال للناس: إن الله أرسله بدعوة الحق ولما كانت الدعوة من الله، اجتمع الناس بأمره، ودانوا لشريعته، وهجروا عبادة الأوثان الباطلة، ونابوا إلى الله الحي القيوم الذي ظهر لأبيهم إبراهيم، وقد أمرهم محمد ألا يأكلوا الموقوذة، ولا يشربوا الخمر، ولا يكذبوا، ولا يزنوا».

والعجب أن «سبيوس» كان مسيحيًّا، وكان فوق ذلك أسقفًا.

وقد كان «لوقا» ـ الذي سلم مدينة حلب للعرب ـ ممتلئ القلب بما كان يبشر به قسيس من أنه كان «محتومًا أن يفتح العرب البلاد».

وكان «بازل» ـ الذي سلم مدينة صور ـ قد أخذ عن الراهب «بحيرى» ما جعله يترك الروم ويوصي أهل الدولة الرومانية بدين الإسلام.

لقد شاعت نبوءة بين بعض المسيحيين، فارتجفت لها أفئدتهم، وهي أن الإسلام حق، وأن نصره محقق»[1].

هكذا كان حال العالم يومئذ: قهر حضاري روماني لشعوب الشرق، وطوفان من المظالم الاجتماعية، وصراعات بين العقائد الدينية، جعلت «الدولة» تصنع «الدين» وتختار الأناجيل الأربعة من بين نحو مائة إنجيل، وتسعى لإجبار الفرقاء المتخاصمين على صبّ اعتقادهم في القالب الذي صنعته «الدولة»، وحروب دامية بين الروم والفرس راح ضحيتها جمهور غفير من اليهود والنصارى، ومؤسساتهم الدينية، وقنوط قطع حبال الأمل والرجاء، فاتجهت عقول وقلوب إلى طلب الخلاص من خارج محيط هذا الواقع البائس، ومن شبه الجزيرة العربية، التي كانت بمعزل عن هذه الصراعات.

(١) (فتح العرب لمصر) ص١٨٧، ١٨٨.

● ولم يكن الحال على الضفة الفارسية بأحسن منه على الضفة الرومانية؛ فالنظام الطبقي المغلق يفتك بما لدى الناس من ملكات وطاقات وإمكانات، والمظالم الاجتماعية وأغلال الاسترقاق قد هبطت بهمة الإنسان ـ بل وبإنسانيته ـ إلى الحضيض، والوثنية المجوسية قد كرست وتكرس هذا البلاء.

ويكفي أن نقرأ ما أورده شيخ المؤرخين ابن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ ـ ٨٣٩ ـ ٩٢٣م) في تصوير حال الفرس عندما أطل عليهم نذير الإسلام، وما يحمل من قيم الحرية والعدل والتوحيد؛ ففي المواجهة بين هذين العالمين ـ عالم الكسروية الفارسية وعالم الإسلام ـ يحكي الطبري كيف «خرج الفارس المسلم ربعي بن عامر، فدخل على القائد الفارسي «رستم» عسكره؛ ليتفاوضا قبيل معركة القادسية (١٥هـ ـ ٦٣٥م) فاحتبسه الذين على القنطرة، وأُرسل إلى رستم بمجيئه، فاستشار عظماء أهل فارس، فقال:

ـ ما ترون؟ أنباهي؟ أم نتهاون؟ ـ (في الفخامة إبان اللقاء)ـ فأجمع ملؤهم على «التباهي»؛ فأظهروا الزِّبرْج، وبسطوا البسط والنمارق، ولم يتركوا شيئًا. ووُضع لرستم سرير الذهب، وأُلبس زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب.

وأقبل ربعي يسير على فرس له زبّاء ـ (طويلة الشعر كثيرته) ـ، قصيرة، ومعه سيف له مَشُوف ـ (مجلوّ) وغمده لفافة ثوب خَلِق، ورمحه معلوب ـ (مخزوم مقبضه بعلباء ـ عنق البعير) ـ بقدٍّ، معه جحفة ـ (ترس) ـ من جلود البقر، على وجهها ديم أحمر مثل الرغيف، ومعه قوسه ونبله.

فلما غشي الملك، وانتهى إليه وإلى أدنى البُسط، قيل له: انزل. فحملها على البساط، فلما استوت عليه، نزل عنها وربطها بوسادتين فشقهما، ثم أدخل الحبل فيهما، فلم يستطيعوا أن ينهوه، وإنما أروه التهاون، وعرف ما أرادوا، فأراد استحراجهم، وعليه درع له كأنها أضاه ـ (غدير) ـ ويَلْمَقُه ـ (القباء) عباءة بعيره، قد جابها وتدرّعها وشدها على وسطه بسَلَب ـ (ليف المقل)ـ، وقد شد رأسه بمعجرته ـ (عمامته)ـ، وكان أكثر العرب شعرة، ومعجرته نسعة ـ (حبل) ـ

بعيره، ولرأسه أربع ضفائر، قد قمن قيامًا كأنهن قرون الوعلة ـ (تيس الجبل) ـ فقالوا:

ـ ضع سلاحك.

ـ فقال: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني، فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت.

فأخبروا رستم، فقال:

ـ ائذنوا له، هل هو إلا رجل واحد؟

فأقبل يتوكأ على رمحه، وزُجَّه ـ (طعنه) ـ نصل ـ (سهم) ـ، يقارب الخطو ويزجّ النمارق والبسط، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطًا إلا أفسده وتركه مُنتهكًا مُخَرَّقًا.

فلما دنا من رستم تعلق به الحرس، وجلس على الأرض، وركز رمحه في البُسط، فقالوا:

ـ ما حملك على هذا؟

ـ قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه.

فكلمه ـ (رستم) ـ فقال:

ـ ما جاء بكم؟!

ـ قال ـ (ربعي) ـ: «**إن الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبَلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدًا، حتى نفضي إلى موعود الله.**

ـ قال ـ (رستم) ـ: وما موعود الله؟

ـ قال ـ (ربعي) ـ: **الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظَّفر لمن بقي.**

ـ فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟.

ـ قال: نعم، كم أحب إليكم؟ أيومًا أو يومين؟

ـ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، وأراد مقاربته ومدافعته ـ.

فقال ـ (ربعي)ـ: إن مما سنَّ لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا، ألا نمكن الأعداء من آذاننا، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث. فنحن مترددون عنكم ثلاثًا، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة

من ثلاث بعد الأجل: اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء ـ (الجزية) فنُقبل ونكفّ عنك، وإن كنت عن نصرنا غنيًّا تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجًا منعناك، أو المنابذة في اليوم الرابع، إلا أن تبدأنا. أنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع من ترى.

ـ قال ـ (رستم) ـ: أسيدهم أنت؟

ـ قال: **لا، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم**»[(١)].

فلما تمت هذه المواجهة ـ بين هذين العالمين ـ عالم الإسلام وعالم الكسروية الفارسية ـ على هذا النحو الذي صوره الطبري ـ وسمعت الفرس مقالة ذلك العالَم الجديد، والغريب قال عامّتهم:

ـ صدق، والله العربي.

وقالت الدهاقين ـ (رؤساء الأقاليم) ـ:

ـ والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل الله أوَّلينا، ما كان أحمقهم حين كانوا يُصَغّرون أمر هذه الأمة ـ (العربية) ـ»[(٢)].

هكذا أذَّن مؤذن العدل والتوحيد والحرية من شبه الجزيرة العربية، واقتحمت أصوات هذا العالَم الجديد آفاق الفرس والروم.

***

ولقد حدث وشهد الشرق جولة جديدة من الصراع التاريخي بين الروم والفرس، هزمت فيها الفرس الروم ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ (الروم: ١، ٢) وتنبأ القرآن الكريم بكرة أخرى ـ وأخيرة ـ ينتصر فيها الروم على الفرس ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ (الروم: ٣، ٤).

وتحدث القرآن عن فرح المسلمين بهلاك طرفي الظلم في هذا الصراع، والذي سيأذن بالفتوحات الإسلامية، التي ستطوى عالم هذا البؤس وذلك الصراع التاريخي والمرير، وتطوى معه صفحة الشرك والوثنية في شبه الجزيرة العربية ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ (الروم: ٤، ٥).

(١) الطبري (تاريخ الرسل والملوك) جـ ٣ ص٥١٩، ٥٢٠. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة دار المعارف القاهرة سنة ١٩٦٩م.

(٢) المصدر السابق. جـ٣ ص٥٢٢.

فلقد كان فرح المؤمنين ـ كما يقول الفخر الرازي (٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ ١١٥٠ ـ ١٢١٠م) بغلبتهم المشركين يوم بدر (٢هـ ـ ٦٢٤م)، وليس بغلبة الروم ـ الذين أذلوا البلاد والعباد ـ كما صنع الفرس ـ وبعبارة الرازي: «.. **والأصح أنهم يفرحون بغلبتهم المشركين**، وذلك لأن غلبة الروم كانت يوم غلبة المسلمين ببدر، ولو كان المراد ما ذكره ـ (جمهور المفسرين)ـ «يفرحون بغلبة الروم على الفرس، كما فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم ـ لما صح؛ لأن في ذلك اليوم بعينه لم يصل إليهم ـ (إلى المسلمين)ـ خبر الكَسْر، فلا يكون فرحهم يومئذ، بل الفرح يحصل بعده..»[1].

ومع الرازي ـ في هذا التفسير ـ يقف الزمخشري (٤٦٧ ـ ٥٣٨هـ ١٠٧٥ ـ ١١٤٤م) الذي يقول في (يفرح المؤمنون بنصر الله) ـ «**وقيل نصر الله: أنه أولى بعض الظالمين بعضًا، وفرق بين كلمتهم حتى تفانوا وتناقصوا، وفلَّ هؤلاء شوكة هؤلاء، وفي ذلك قوة للإسلام. ولقد وافق ذلك يوم بدر، وفي هذا اليوم نُصر المؤمنون**»[2].

ومع الرازي والزمخشري يقف القرطبي (٦٧١هـ ١٢٧٣م) عندما يقول: «**وقيل: سرورهم إنما كان بنصر رسول الله على المشركين؛ لأن جبريل أخبر بذلك النبي عليه السلام يوم بدر**»[3].

لقد فرح المؤمنون بأول نصر عظيم على الشرك، يوم بدر، وصادف هذا النصر ذات اليوم الذي هُزم فيه الفرس أمام الروم ـ في (أدنى الأرض) ـ أعمق مكان على ظهر البسيطة ـ عند البحر الميت ـ «**فولَّى الله بعض الظالمين بعضًا، وفرق بين كلمتهم، حتى تفانوا وتناقصوا، وفلّ هؤلاء شوكة هؤلاء، وفي ذلك قوة للإسلام**».

ذلك لأن صراع الروم مع الفرس، قد فلّ حديد الظالمين جميعًا فانفتح الباب لعالم جديد.. عالم الإسلام وفتوحات الإسلام التي طوت صفحة ذلك العالم القديم. عالم البؤس والظلم والاستبداد والصراعات الدموية التي أثقلت كاهل البلاد والعباد.

(١) الرازي (مفاتيح الغيب) جـ ٩، ص٨٧. طبعة دار الفكر، بيروت سنة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.
(٢) الزمخشري (تفسير الكشاف) جـ ٣ ص٢١٤. طبعة طهران.
(٣) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) جـ ١٤ ص٦. طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة.

الفصل الثالث

مصر في عالم ما قبل الإسلام

كانت مصر الدولة المحورية في الشرق منذ فجر التاريخ؛ عرفت التوحيد الديني على يد سيدنا إدريس ـ عليه السلام ـ في حياة آدم ـ عليه السلام ـ؛ فإدريس هو ثالث أنبياء الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعد آدم وشيث ـ عليهم السلام ـ ومن مصر انتقل التوحيد إلى ما حولها، وظلت معالمه تغالب الشرك والوثنية، عبر التاريخ.

وكما كان إدريس نبي التوحيد، كان ـ كذلك ـ مُعلم التمدن والمدنية ومؤسس الحضارة، التي أضاءت سماء الشرق منذ فجر التاريخ.

ولوحدة القطرين ـ حول النيل ـ منذ الملك مينا (٣٢٠٠ ق.م) عرفت مصر الدولة المركزية القوية، التي اتخذت الشرق مجالًا حيويًّا، فكانت الدولة القائدة لما حولها من الشعوب والأقاليم.

ولهذه المكانة المحورية والدور القائد كانت مصر المطمح والمطمع لتحديات الأعداء ـ وخصوصًا من الفرس والروم ـ الذين انتهزوا فرصة ضعف أسرات الدولة الفرعونية، فسعوا لاحتواء الشرق، مركزين على «مصر ـ المحور ـ والمفتاح». الأمر الذي جعل مصر ـ بعد فقد استقلالها ـ وسقوطها تحت القهر الإغريقي/ الروماني/ البيزنطي ـ أكثر البلاد بؤسًا في ذلك العالم البائس الذي سبق ظهور الإسلام.

لقد تعرضت للغزوة التي بدأها الإسكندر الأكبر (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق.م)ـ في القرن الرابع قبل الميلاد ـ والتي دامت عشرة قرون، إلى عهد هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م)ـ في القرن السابع للميلاد ـ وفي هذه القرون العشرة تعرضت لكل ألوان القهرـ السياسي، والديني، والثقافي، واللغوي، والاقتصادي ـ أي لقهر حضاري مكتمل الأركان.

لقد كانت أقل من مستعمرة، إذ «ضُمت لسلطان الشعب الروماني» وأصبحت ملكًا خاصًّا للإمبراطور![1] «ولقد حرص القيصر أغسطس (٦٣ ق.م ـ ١٤ م) على تأمينها من الوقوع في يد أعدائه أو المنافسين له، فعين عليها واليًا من طبقة الفرسان الذين

(١) (تاريخ مصر في العصر البيزنطي) ص٢١.

يثق فيهم يحمل لقب «حاكم» Praectus وأسندت إليه قيادة الفرقة العسكرية الرومانية المرابطة في مصر، ولم يكن مسئولاً إلا أمام الإمبراطور نفسه وذلك على خلاف ما يقتضيه القانون الروماني بالنسبة للمستعمرات[(١)].

وتحولت الأراضي المصرية، التي يسيطر عليها الجنود الرومان إلى إقطاع حربي لهؤلاء الجنود «يقومون بزراعتها، ويرثها أبناؤهم في حالة دخولهم في السلك الحربي[(٢)]، وفُرضت على هذه الولايات الخاضعة لهؤلاء الجنود ـ في القرن الرابع ـ ضريبة المئونة العسكرية للجنود، وجُمعت بالعملة الذهبية[(٣)].

وبسبب استبداد الدولة الرومانية ومركزيتها الشديدة، ومع هذه المركزية؛ ساد التفكك الاجتماعي في مصر؛ فالدولة تحكم قبضتها على البلاد بواسطة جيش من المشاة والفرسان يبلغ تعداده ٢٢,٠٠٠، بينما كان المجتمع كله مفكك الأوصال، تتجاذبه ـ حضاريًّا ـ الفرعونية، واليونانية وـ دينيًّا ـ ديانات وعادات وثنية كثيرة، كما كانت الإسكندرية ـ العاصمة الاستعمارية ـ مفصولة عن مصر، وكان الرومان حريصين على هذا التفكك حتى تسلس مصر لحكمهم، وتستجيب لمطالبهم، وتوفي ما عليها من خراج سنوي يقدر بآلاف الأطنان من القمح والشعير وغيرها من الحبوب[(٤)]. واتّباعًا لسياسة التفكيك، ومبدأ «فرق تسد»؛ كان سكان مصر موزعين على طبقات مختلفة في الحقوق والواجبات، وهي: الرومان، والإغريق، والمصريون، ومن ثم كانت القوانين المطبقة في مصر مختلفة ـ القانون الروماني، والقانون الإغريقي، والقانون المصري الإغريقي ـ الذي ظهر مع المحكمة المختلطة في أواخر العصر البطلمي (٣٢٣ ـ ٣٠٠ ق.م)، أما الجاليات الأخرى ـ مثل الفرس واليهود، فكانت لها شرائعها الخاصة بها»[(٥)].

ولقد أدت المظالم الاجتماعية الفاحشة إلى هروب صغار الفلاحين من أرضهم، لعجزهم عن الوفاء بما عليها من ضرائب؛ فاستولى عليها كبار الملاك، الذين طلبت منهم الدولة تكوين فرق عسكرية لحراسة مقاطعاتهم، فتم تجنيد الفلاحين الذين فقدوا أراضيهم في «نظام المرتزقة» الذين يمثلون القوة العسكرية المرابطة في الأقاليم[(٦)].

(١) المرجع السابق. ص٢٢، ٢٣.
(٢) المرجع السابق. ص ٢٢، ٢٣.
(٣) المرجع السابق. ص ١٤٦.
(٤) د. الحسيني أحمد عبد الله (الإدارة والقانون في مصر الرومانية) ص٧، ٨. طبعة دار عين. القاهرة سنة ٢٠٠٠م.
(٥) المرجع السابق.ص ٨٣.
(٦) (تاريخ مصر في العصر البيزنطي) ص١٥١، ١٥٢.

ولقد كان الشعب محرومًا من التعليم، إذ «اقتصر التعليم ـ في العصر اليوناني البطلمي ـ على أبناء الفئات العليا في المجتمع، ثم ازدادت العناصر المقبلة على التعليم في العصر الروماني فشملت ـ إلى جانب العناصر اليونانية الإغريقية ـ العناصر المتأغرقة في الإسكندرية وعواصم الأقاليم الإدارية. وفي العصر البيزنطي دخل أبناء الأرستقراطية المصرية ميدان التعليم، وكذلك أبناء الطبقة الوسطى في عواصم الأقاليم؛ لتلبية احتياجات الوظائف الإدارية في الأقاليم[١].

ولم تكن الإسكندرية ـ العاصمة الاستعمارية ـ بأحسن حالًا ـ في التفكك والتشرذم ـ ففي القرن السادس الميلادي كان يسكنها ٦٠٠,٠٠٠ نسمة، يتوزعون على طوائف:

١ – اليونانيين: الذين لهم السلطان والحظوة والغنى والأرستقراطية، ومنهم يُختار أعضاء «السناتو» بالإسكندرية. ولهم امتيازات: الإعفاء من ضريبة الرأس، وشراء الأراضي المعروضة للبيع ـ علي حين يحرم المصريون من ذلك!ـ وإعفاء أراضيهم داخل المدينة من الضرائب، والإعفاء من الخدمة العامة ـ أو السخرة.

٢ـ واليهود: وكانوا جالية كبيرة بالمدينة، يشتغلون بالتجارة وبنوك الأموال.

٣ـ والمصريين: الذين كانوا في نظر الإمبراطورية أقل شأنًا من اليونانيين واليهود، قد فرضت عليهم الضرائب العديدة، وعلى رأسها (ضريبة الخدمة العامة ـ أو السخرة..)[٢].

وحتى القانون الروماني ـ قانون الدولة المستعمرة ـ لم يكن من حق المصريين التمتع بالتحاكم إليه؛ فالتحاكم إليه امتياز لليونان واليهود ـ في محاكم خاصة بهم ـ بخلاف المصريين ـ أصحاب البلاد ـ الذين عملت الحكومة الرومانية على هضم جانبهم[٣].

لقد كانت النهضة يونانية الطابع، مغلقة عن المصريين، الذين لم يكن لهم حظ منها سوى دفع الضرائب التي ينفق منها على هذه النهضة».

(١) المرجع السابق. ص١٦٥.
(٢) المرجع السابق. ص١١١، ١١٢.
(٣) (تاريخ الأمة القبطية) ص٣٣.

ولقد شُرعت القوانين التي تمنع التزاوج بين الإغريق والمصريين حتى يبقى الدم الإغريقي نقيًّا، وكانت اللغة اليونانية هي لغة الدولة الرسمية، وعلى أهلها تقتصر الوظائف الإدارية العليا.

وكـان المصريون يُعتبرون عنصرًا أجنبيًّا دون حقوق أو امتيازات، باستثناء طبقة منهم تأغرقت فحصلت على مكاسب مادية واجتماعية بينما ظلت جماهير المصريين قوة العمل اللازمة لإدارة الضيعة الخاصة بقيصر الروم.

وأصبح خمسة أسداس الأرض الزراعية أو أكثر في يد الأجانب ـ الملك وجنوده ـ وما بقي ـ وهو أقل من السدس ـ للمصريين، تثقله الضرائب الشنيعة.

وكذلك الحال في النشاط الصناعي والمواد الخام؛ فلقد امتد الاحتكار الملكي ليشمل إنتاج الملح والذهب والنطروه والنحاس والعطور والورق والمنسوجات والجلود، ووصل الحال بالمصريين إلى أن شاع بينهم وأد الأطفال للعجز عن إعالتهم.

ولقد أنفق البطالمة على تأليه إحدى الملكات نحو سدس محصول الكروم في القطر كله.

وكان المجتمع اليوناني يقر ـ رسميًّا ـ مهنة الدعارة وكان «الشذوذ ـ المثلية» أمرًا عاديًّا جدًّا في الفكر الاجتماعي اليوناني بل والديني أيضًا. ولم يجد أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق.م) في مطلع حياته غضاضة ـ في هذا الانحراف، ونظر إليه بشيء من السماحة واللين، كما كان في مدينة طيبة اليونانية ـ شمال غربي أثينا ـ «كتيبة مقدسة» قوامها ثلاثمائة شاب انخرطوا في سلك المثلية، على أساس أن كل شابين منهم متحابّان.

أما طوفان الضرائب القاسية التي فرضت على المصريين، فيكفي في وصفها قول الأستاذ «ميلن» **Milne**: «إنه لم ينج من براثن الجباة الرومان إلا حق المصري أن ينقل موتاه إلى البر الغربي فقط! وقول الأديب الأوروبي «إميل لودفيج» (١٨٨١ ـ ١٩٤٨م): «إن البطالمة كانوا أول من اخترع فرض ضريبة على الهواء الذي يتنفسه الناس»! لقد كان المصري يدفع للدولة الرومانية ثلاثين ضريبة هي:

١ـ **ضريبة القمح**: ما بين ٣/٤ إلى ٢ إردب عن كل أرورة للأراضي الخاصة، ومن ١ إلى ٧ عن كل أرورة لأراضي الدولة ـ أي ٦ مليون إردب ـ كانت تكفي مدينة روما أربعة أشهر في السنة.

وغير القمح كانت هناك ضريبة على الشعير والفول والبصل والكتان والزيوت ـ ١,٥ كيلة عن الأرورا [١].

٢ـ **ضريبة الرأس**: فرضت على الذكور من سن ١٤ حتى سنة ٦٠ـ وتدرجت من ٨ دراخمة إلى ١٢ دراخمة إلى ١٦ دراخمة إلى ٢٤ دراخمة، إلى ٤٠ دراخمة إلى ٦٠ دراخمة[٢].

٣ـ **ضريبة الجسور**: ومقدارها ٦,٣٢ دراخمة، مفروضة على جميع السكان المصريين، وهي لا تعفي دافعيها من السخرة في إقامة الجسور وصيانتها.

٤ـ **ضريبة الخنازير**: لإمداد المعابد اليونانية باللحوم، وكانت تقدر بدراخمتين على كل خنزير.

٥ـ **ضريبة المساحة**: مقابل مسح الأراضي الزراعية، وهي مختلفة باختلاف المحصول، فالأرورا من الكروم عليها ٤٠ دراخمة والفاكهة عليها ما بين ٢٠ و٣٠ دراخمة، والخضراوات ما بين ٢٠ و٢٥ دراخمة.

٦ـ **ضريبة الدخل**: وهي ٥ دراخمات عن كل أرورا من الفاكهة، و١٠ دراخمات عن كل أرورا من الكروم.

٧ـ **ضريبة البيع**: وهي ١٠٪ عن قيمة عمليات البيع.

٨ـ **ضريبة الرهونات**: وهي ٢٪ عن قيمة الرهونات.

٩ـ **ضرائب إضافية** لتعويض القصور ـ بسبب هرب السكان أو عجزهم عن دفع الضرائب.

١٠ـ **ضرائب إمداد الجيش** بالغذاء والكساء والوقود والعلف والحبال والسروج والماشية والبغال والفحم النباتي التي تكفيه مدة عام. وتحديد قيمتها متروك لرجال الجيش.

١١ـ **ضريبة مزاولة العمل الصناعي**: تدفع للدولة.

١٢ـ **ضريبة على الأرباح الصناعية**.

١٣ـ **ضريبة مقابل الإعفاء من السخرة** في إنشاء وصيانة الجسور والقنوات.

(١) الأرورا: نصف فدان مصري.

(٢) الدراخمة: عملة يونانية قديمة، من الفضة، اختلف وزنها باختلاف البلاد اليونانية.

١٤ـ **ضريبة النولون** على شحن الغلال إلى عاصمة الإمبراطورية، وقد قدرت بـ ١٠٪ من ثمن الشحنة، وتوزع حصيلتها على قادة السفن العاملين عليها، بينما كان البحارة ـ الذين ينقلون الغلال يعملون بالسخرة.

١٥ـ **ضريبة المهنة**: أو الحرفيين ـ فرضت على أصحاب الحرف ـ ذكورًا وإناثًا وقد أقام الحكام البيزنطيون نظام النقابات والحرف ليسهل عليهم تحصيل هذه الضرائب من الحرفيين عن طريق النقابة كما ربط «جوستنيان» (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) الناس بمهنة آبائهم، وبخاصة ما يتصل منها بالأرض الزراعية.

١٦ـ **ضريبة الحيوانات والطيور**: وتفرض إما نظير ملكيتها، أو نظير استعمالها للمراعي المملوكة للدولة، وكانت تدفع على كل رأس من رؤوس هذه الحيوانات وتمثلت هذه الضريبة في الإبل والحمير والخيول والأغنام والماعز والحمام والدجاج.

١٧ـ **ضريبة السدود**: وكانت مفروضة ـ وموحدة ـ على جميع السكان، وقدرت بست دراخمات وثلثي دراخمة.

١٨ـ **ضريبة المرافق العامة**: وهي خاصة بإعداد الكباري والطرق والأسوار والموانئ. وهي ضريبة شخصية. ولقد فرضت على سكان المدن لإمداد العمال في هذه المرافق بالطعام.

١٩ـ **ضريبة الهواء والسماء**: وفرضت على المباني العالية في المدن، وتدفع سنويًّا إلى خزانة الدولة بمقدار ٣٠٠ IBS من الذهب.

٢٠ـ **ضريبة النخيل**: وفرضت على أصحاب مزارع النخيل.

٢١ـ **ضريبة الميراث**: وفرضت على التركات التي تركها الأغنياء وكبار الملاك الذين لا وارث لهم.

٢٢ـ **ضريبة الرسوم البلدية**: وفرضت على سكان القرى والمدن لسد النفقات المحلية.

٢٣ـ **ضريبة المعاملات التجارية**: وفرضت على البضائع والمحلات والمتاجر في القرى والمدن.

٢٤ـ **ضريبة المكوس الجمركية**: وفرضت على المتاجر والبضائع الواردة إلى مصر والخارجة منها.

٢٥ـ **ضريبة الملابس**: وكانت تجمع كل ١٥ سنة.

٢٦ـ **ضريبة الأموال:** وتدفع للكنيسة. وقد فرضت على العامة والخاصة، وتقدر بمبلغ ١٢ صولدي، وأقل من ٥١ كارات.

٢٧ـ **ضريبة الخمور:** وفرضت على بائعي الخضراوات وعمال الحديد والنحاس وبائعي الجعة والخبازين وبائعي الزيوت والنجارين.

٢٨ـ **ضريبة التاج:** وكانت في بادئ الأمر اختيارية يدفعها الأفراد عند تولي الأباطرة، وفي مواكب النصر والاحتفالات بالأعياد التذكارية، ثم تحولت في نهاية القرن الأول الميلادي إلى ضريبة إجبارية سنوية لصالح التاج الإمبراطوري.

٢٩ ـ **ضريبة رُبط البرسيم الجاف:** لعلف الخيول في الجيش الروماني، وهي رابطة عن كل أرورا.

٣٠ـ **ضريبة لتغطية تكاليف جباية الضرائب السابقة!**(١)

هكذا لم تترك الضرائب الرومانية للمصريين سوى الموت الذي يخرجهم من عداد الأحياء!

● أما كيفية تحصيل هذه الضرائب، فيصورها الفيلسوف اليهودي الإسكندري «فيلول» (نحو ١٣ ق.م ـ ٥٤م) عندما يقول: «**في الفترة الأخيرة عُيِّن جابي في المنطقة التي نسكن فيها، وعندما هرب بعض السكان لعدم قدرتهم على دفع الضرائب بسبب فقرهم وخوفهم من العقاب القاسي الذي سينزل بهم، اتجه الجابي إلى زوجات الهاربين وأطفالهم وآبائهم وأقاربهم يسومهم سوء العذاب، ولم يترك وسيلة لإهانتهم إلا سلكها ليجبرهم على الإدلاء بمكان الهارب أو دفع الديون المستحقة عليه، ولم يكن هناك سبيل أمام أولئك إلا إجابة مطلبه، فهم لا يعرفون مكان الهارب، ولا قدرة لهم على دفع الضرائب، وبرغم هذا فإنه لم يكن ليتركهم لحال سبيلهم، بل كان يعذبهم ويؤذي أجسامهم، فيطرحهم أرضًا، ويضربهم، ويطأهم بأقدامه، بل لم يكن يتورع عن قتلهم بوسائل تفتق عنها ذهنه، فكان يربطهم من رقابهم إلى زكائب مملوءة بالرمال ذات وزن ثقيل، ويتركهم في العراء في ساحة السوق نهبًا للرياح والشمس المحرقة، وسخرية المارة، وإحساسهم القاتل بالمرارة بسبب ما يعانونه، وكان يجبرهم**

(١) (الوطن الأم) ص٦٤، ٦٥، ٦٧، ٩٩، ٧٠، ٧٢، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٨٤، ٨٦، ٨٧. و(تاريخ مصر في العصر البيزنطي) ص١٠١ ـ١٠٨، ٢٧.

على خلع ملابسهم؛ ليرى الآخرون ما سيحل بهم إن لم يدفعوا ما عليهم من الضرائب. وكان هؤلاء الأقارب يقيدون بالحبال ويرصون حسب درجة قرابتهم للهارب وفقًا لنظام تقسيم الميراث من حيث القرابة للهارب. وعندما لا يكون للهارب أقارب كان الأذى ينتقل إلى الجيران، وقد يشمل البلدة أو القرية.

وقد أخذ سكان القرى يهجرونها شيئًا فشيئًا، بل لقد وصل جامعوا الضرائب إلى تحصيل مستحقات الدولة ليس من ممتلكات الأشخاص فقط، بل من أجسامهم أيضًا، حتى لو أدى ذلك إلى تعريض حياة البعض للخطر، بل لقد أوقعوا الإهانة بأجساد الأموات؛ لإجبار أهل الميت وأصدقائه على افتدائه بدفع ما هو مستحق عليه»![١]

ولقد جاء في إحدى البرديات وصف لما قام به موظف كبير يجبي الضرائب: «فقد غزا القرية عصابة من الجنود، سلكوا مسلك قُطّاع الطرق، فعاملوا النساء بعنف، وغزوا دير الراهبات، وسدوا قناة الري التي تأتي بماء النيل حتى إن الأرض بقيت قاحلة، وضاع ما كان يؤمل من محصول، وأسيئت معاملة الأهالي، وابتزت أموالهم، وانتزعت ماشيتهم، بل ثيابهم»!

وقد جاء على لسان أحد جامعي الضرائب: «إن سكان القرى بعد أن كانوا كثرة، قل عددهم حتى غدوا حفنة من الأفراد؛ لأن البعض لاذ بالفرار، لانقطاع مواردهم، والبعض الآخر ماتوا دون أن يتركوا أقارب»[٢].

● وحتى يُحكم الرومان قبضتهم على البلاد والعباد، امتدت هذه القبضة إلى المعابد والكهنة، فصادروا الكثير من أراضي المعابد، وأدخلوا بقية الأراضي تحت الإشراف الروماني. كما فرضوا ضريبة الرأس على أغلب الكهنة، بعد أن كانوا معافين منها، كما أدخلوا المعابد تحت الإشراف الإداري لتفتيت النفوذ الأدبي للكهنة[٣].

هكذا تم نهب الشرق ـ وفي المقدمة منه مصر ـ لحساب الغرب الروماني وحتى لقد خاطب القديس «جيروم» سنة ٤٠٢م أهل

(١) (الوطن الأم) ص٨٧، ٨٨.
(٢) (تاريخ مصر في العصر البيزنطي) ص١٠٩.
(٣) المرجع السابق. ص١٠٩، ٢٥.

روما، فقال: «وها أنا مرة ثانية، مع عودة الربيع، أُغنيكم من سلع الشرق، وأُرسل خزائن الإسكندرية إلى روما»![١]

وحتى قال المؤرخ الإنجليزي «بتلر»: «**كان الروم يجبون من مصر أموالًا يتعذر علينا أن نعرف مقدارها، ولكنها كانت بلا شك كثيرة الأنواع، ثقيلة الوطأة، شديدة الأذى. لقد كان الحكم المدني والجيش كلاهما في يد السادة الحاكمين، ليس فيهم أحد من أقباط مصر أهل البلاد، والحكومة لم يكن لها إلا غرض واحد هو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء، لا يعتمد إلا على القوة، ولا يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم، وكان جند الحكومة وجباة ضرائبها ينتشرون من تلك المدائن يظهرون هيبة السلطان، ويجمعون الأموال، على حين كان تجار الروم واليهود يحلون حيث شاءوا، تحميهم جنود الربط، ينافسون الأقباط في التجارة منافسة شديدة**»[٢].

● وفي مواجهة هذا القهر الاقتصادي والاجتماعي، كانت تحدث تمردات وانتفاضات وثورات، لكنها كانت تُقمع بوحشية متناهية، تحوّلها إلى إبادة شبه جماعية للثائرين «ففي سنة ٣٠ ق.م ـ عند رحيل القيصر أغسطس (٦٣ ق.م ـ ١٤٠٠م) عن مصر؛ اندلعت ثورة عنيفة في «طيبة» و«قفط»، قام بها المصريون، واستمرت معاركها مدة خمسة عشر يومًا، وفيها دمر الوالي الروماني وقوات الحامية خمس مدن، وأسر زعماء الثورة ونكل بهم.

ويحدثنا «استرابون» عن ثورة أخرى في إقليم هيرونوبوليس ـ وهي مدينة في الطريق إلى سيناء ـ قمعها الوالي بنفسه.

وفي سنة ١٥٢م اشتعلت ثورة في الإسكندرية، قُتل خلالها الوالي الروماني، وكانت من العنف بحيث استدعت حضور الإمبراطور «أنتونيوس التقي» (١٣٨ ـ ١٦١م) لإخمادها.

وكانت ثورة سنة ١٧٢م واحدة من أقوى تحركات المصريين خلال العصر الروماني ولقد استغرق إخمادها ثلاث سنوات.

ولقد قمع الإمبراطور «كاراكالا» (١٩٨ ـ ٢١٧م) ثورة الإسكندرية وأعدم زعماءها وأعمل السيف في رقاب سكان المدينة بضعة أيام حتى بلغ القتلى عدة آلاف.

(١) المرجع السابق. ص١١٩.
(٢) (فتح العرب لمصر) ص ٣٥٩، ٨٣، ٨٤.

وفي سنة ٥٢٠م قامت ثورة الإخوة الثلاثة ـ في أوائل حكم القيصر «موريس» (٥١٨ـ ٥٢٧م).

وتكررت مثل هذه الثورات في «صان» و«خربتا» و«بسطا» و«إخميم» وغيرها، ولقد أخفقت كلها بسبب القمع الوحشي الذي مورس ضدها، وأُغرقت في دماء المذابح الوحشية، وتلاها طرد المصريين من الوظائف العامة بإدارة الدولة[١].

وهكذا كان القهر الحضاري، والنهب الاقتصادي، والإذلال الاجتماعي باعثًا على الثورات، التي فشلت جميعها والتي زادت من حدة هذا القهر، الذي اتخذ مختلف ألوان الانتقام.

* * *

ولأن الإنسان متدين بطبعه، ولأن الدين ـ في الشرق ـ؛ لم يكن مجرد روحانية فردية معزولة عن الدنيا والسياسة والحكم والقانون والاجتماع، وإنما كان ـ في كثير من الأحيان ـ سلاحًا من أسلحة الهوية القومية، وحافزًا لمقاومة الاستغلال والاستبداد والاستعمار. كانت أمور الدين ـ في مصر ـ كما يقول المؤرخ الإنجليزي «بتلر»: «**أكبر خطرًا عند الناس من أمور السياسة. فلم تكن أمور الحكم هي التي قامت عليها الأحزاب واختلف بعضها عن بعض فيها، بل كان كل الخلاف على أمور العقائد الدينية. وكان الناس لا يكادون يحسون شيئًا اسمه حب الوطن، وما كانت عداوتهم عند اختلاف الجنس والوطن لتثور ويتقد لهيبها إلا إذا اختلف معها المذهب الديني**»[٢].

كان الصراع العقائدي هو العنوان الذي احتوى كل ألوان التناقضات والخلافات.

ولقد دخلت المسيحية مصر في منتصف القرن الميلادي الأول، وبعد قرنين ـ في سنة ٢٥٠م ـ كانت قد انتشرت في الشرق أكثر منها في الغرب، وانتشرت بين الطبقات الدنيا والوسطى، ولأنها انتشرت بين الطبقات الفقيرة؛ نظر إليها الرومان على أنها ثورة اجتماعية، يريد أصحابها إقامة دولة داخل الدولة، وهذا أخطر ما تحاول الإمبراطورية القضاء عليه ومحاربته[٣].

(١) (الوطن الأم) ص٩٠ ـ ٩٣، ١٠٦.
(٢) (فتح العرب لمصر) ص٨٥.
(٣) (تاريخ مصر في العصر البيزنطي) ص٣٠.

حدث هذا الاستنفار الروماني ضد المسيحية ـ في مصر ـ رغم أنها لم تعم مصر كلها ويشير «توماس أرنولد» (١٨٦٤ ـ ١٩٣٠م) **إلى أن المسيحية لم تكن منتشرة انتشارًا هامًّا إلا في المدن فحسب»** وعند د. جمال حمدان **«فالأرجح أن مصر بصفة تقريبية كانت ربع إلى ثلث إلى نصف مسيحية، والبقية وثنية فرعونية»**[(١)].

لقد بدأت الدولة الرومانية ـ الوثنية ـ الاضطهادات العنيفة ضد المسيحيين منذ نهاية القرن الثاني الميلادي وبداية القرن الثالث ـ في عهد الإمبراطور «سفيروس الإسكندري» (١٩٣ ـ ٢١١م) عندما بدأ المسيحيون يمثلون خطرًا بالنسبة للدولة نتيجة اجتماعاتهم السرية، ورفضهم تقديس الأباطرة، وعبادة روما المؤلهة. كانت المسيحية خطرًا سياسيًّا على الإمبراطور بدعوتها إلى التوحيد، ومساواة الأباطرة بهؤلاء العبيد والرعاع الذين اعتنقوا المسيحية، وهذا يسلب الإمبراطور صفته القدسية التي كانت من أهم مقومات سلطاته السياسية، فصدر قرار يحتم على الأفراد أن يستخرجوا ـ من لجنة عينت لهذا الأمر خاصة ـ شهادة تثبت أنهم يمارسون العبادات الوثنية، وأنهم يقدمون القرابين للآلهة.

ولقد أدت ظروف الاضطهادات التي وقعت على المسيحيين في مصر، خاصة في عصر الإمبراطور «دسكسوس» (٢٤٩ ـ ٢٥١م) إلى فرار هؤلاء المسيحيين إلى الصحراء، والعيش في سراديت تحت الأرض، فرارًا بعقيدتهم، وتحملوا أهوال الجوع والعطش ومجاورة الوحوش الضارية؛ لأنهم وجدوا ذلك أهون من عذابات الحكومة الرومانية.

ولقد وصف «ترتوليان» (١٥٥ ـ ٢٢٢م) ذلك الاضطهاد بقوله: «إذا فاضت مياه نهر التيبر، وبلغت أسوار المدينة روما، وإذا لم تصل مياه النيل إلى الحقول، أو توقفت السماء عن أن ترسل المطر مدرارًا، وإذا زلزلت الأرض زلزالها، أو حدثت مجاعة من المجاعات، وانتشر طاعون من الطواعين، ارتفعت الصيحات من كل جانب تدعو إلى إلقاء المسيحيين إلى الأُسود!».

فكانوا يقدمون إلى الأُسود والنمور الجائعة وسط جمهور الملعب حتى يمزقونهم إربًا، ثم تذبح الأجساد الممزقة بالسيف!.

(١) د. جمال حمدان (شخصية مصر) جـ ٤ ص٥٠٩.

ولقد جاءت أعنف الاضطهادات في عهد الإمبراطور «دقلديانوس» (٢٨٤ ـ ٣٠٦م) أثناء ثورة الإسكندرية، بقيادة القائد «دوميتانوس»، فحضر الإمبراطور إلى الإسكندرية، وحاصرها ثمانية أشهر، وقمع الثورة، بعد أن تم تدمير أجزاء من المدينة. وكان قد أقسم أن تصل دماء المصريين إلى قوائم فرسه!

ويروي المؤرخ «يوسيبوس» (٣٧ـ١٠٠م) فيقول: «..ولم تكف لهذه القطائع أيام وأسابيع، بل كانت تستمر شهورًا وسنين وهي في أفظع حالاتها، وكثيرًا ما كان يصدر حكم بإعدام عشرة أشخاص في لحظة واحدة، وأحيانًا يقتلون عشرين رجلًا مرة واحدة، وأحيانًا ثلاثين وستين، ومرة حكم على مائة رجل بالموت، فماتوا في يوم واحد مع زوجاتهم وأولادهم الصغار، وذلك بعد أن ذاقوا من العذاب ألوانًا، فكان البعض تجز رؤوسهم، وبعضهم يحرقون في أتون النار المتقدة، حتى أن السيف الذي كانت تقطع به الرؤوس «ثلم» وقل حده وتحطم تحطيمًا لكثرة ما سحق من الرؤوس، وكذلك السيَّافون تعبوا وخارت قواهم من ذبح الآدميين، وكانوا يستريحون هنيهة، حتى يتنفسوا الصعداء»[1].

ويصف النقيوسي «دقلديانوس» هذا بأنه «كان عابد وثن، ومقرب القرابين للأرواح النجسة، الذي كان في اضطهاد المسيحيين كالحيوانات المفترسة. لقد كره كل شيء حسن، وعارض الرب؛ لأن سلطة روما كانت كلها في يديه، فقتل القسس والكهنة والرهبان، رجالًا ونساء وأطفالًا صغارًا، وأراق الدم بكثرة لا تحصى، دون شفقة ورحمة، بيد الموظفين آكلي لحوم البشر الذين عينوا في كل مكان. وهدم الكنائس، وحرق بالنار الكتب، وهي وحي رباني، وكان اضطهاد المسيحيين على مدى تسعة عشر عامًا منذ تغلب ـ (دقلديانوس) ـ وحاز النصر بأرض مصر، وفي هذا الوقت وجه أهل الإسكندرية ليقطعوا رأس القديس الأب البطريرك خاتم الشهداء، وقتلوا كل الأساقفة في بر مصر..».

ولقد استمر اضطهاد «دقلديانوس» على يد شريكه وخليفته «مكسيمينوس» (٢٨٦ ـ ٣١٠م) ـ الذي يصفه «النقيوسي» «بالجاحد، الذي كان يقتل القديسين الشهداء دون سبب، فمنهم

(١) (الوطن الأم) ص٩٤.

من ألقاه في البحر، ومنهم من قدمه للحيوانات المفترسة، ومنهم بحد السيف، ومنهم للإحراق بالنار، وكان يهدم الكنائس، ويحرق بالنار الكتب المقدسة، ويشيد بيوت الآلهة التي خربت، ولم يشفق على النساء الحوامل، ويبقر بطونهن ويخرج الأجنة ويحرقها قربانًا للشياطين النجسة، ويضطر الكثيرين ليعبدوا الأوثان»[١].

وإذا كانت المسيحية قد دخلت مصر في منتصف القرن الأول الميلادي؛ فإن أتباعها لم يتمكنوا من بناء الكنائس إلا مع عام ٣٠٠ م ـ أي بعد قرنين ونصف من دخولها إلى مصر!!

ولقد ظل هذا الاضطهاد للمسيحيين المصريين قائمًا ـ على يد الدولة الرومانية الوثنية ـ حتى صدور منشور وقف الاضطهاد سنة ٣١١م، حين كان الإمبراطور «جالينوس» (٣٠٥ ـ ٣١١م) يعاني سكرات الموت، ثم جاء منشور ميلانو سنو ٣١٣م الذي أعلن مبدأ التسامح الديني، ثم كان اعتناق الإمبراطور قسطنطين (٣١١ ـ ٣٢٤م) الديانة المسيحية، الأمر الذي مهد الطريق لتصبح هذه الديانة الجديدة الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، ثم الديانة الوحيدة لها.

لكن هذا التطور الهام لم يجلب السلام الديني إلى مصر والمصريين، فالدولة قد اتخذت لها مذهبًا مسيحيًّا خاصًّا ـ المذهب الملكاني ـ ومن ثم ظل اضطهادها للمسيحية المصرية والشرقية قائمًا، أي أن الاضطهاد قد انتقل إلى داخل المذاهب المسيحية كما ظل الصراع الدموي بين المسيحية المصرية وبين الديانة الوثنية القديمة قائمًا!.

فالدولة قد عينت ـ بالإسكندرية ـ أسقفًا على مذهبها. والمسيحيون المصريون قد عينوا لهم أسقفًا ـ وطنيًّا ـ على مذهبهم، والدولة أخذت في تجنيد الرهبان للخدمة العسكرية، وهؤلاء الرهبان ثاروا على الدولة وعلى أسقفها، وعندما تولى الإمبراطور «ثيودوسيوس» (٣٧٨ ـ ٣٩٥م) عرش الإمبراطورية أصدر منشور القضاء على الديانة الوثنية القديمة ـ وكانت أشرس المعارك ضد هذه الديانة القديمة بمصرـ. ولقد نافس المسيحيون المصريون الدولة في الصراع الدموي ضد الوثنية، فالأسقف القبطي «ثيوفيلوس» (٣٨٥ ـ ٤١٢م) راح يعمل على تحويل المعابد

(١) (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي) ص ٩٠، ٩١.

إلى كنائس، أو تدميرها، وفي سنة ٣٩١م قاد جمعًا غفيرًا من الرهبان والغوغاء إلى ساحة معبد السيرابيوم ـ بالإسكندرية ـ وقام بنفسه بضرب تمثال سيرابيس الضربة الأولى، وتبعه المسيحيون الآخرون الذين أعملوا التدمير في المعبد، وتم بناء كنيسة في مكانه، ويصف المؤرخ «جيبون» (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤م) هذا الأسقف بأنه «العدو الأبدي للسلام والشجاعة. رجل سيء وقبيح، تلوثت يداه بالذهب والدم على التوالي. وسرعان ما امتلأت الإسكندرية ـ تحت قيادته ـ بمجموعات المتمردين المشاغبين، وآلاف الجثث أيضًا.

وكانت الفيلسوفة «هيباتيا» (٣٧٠ ـ ٤٨٥م) أستاذًا للفلسفة بجامعة الإسكندرية، وابنة «ثيون»ـ الذي شغل كرسي الرياضات بنفس الجامعة، وبلغ من شهرتها وعلمها أن قصدها الطلاب واستمع إليها المسيحيون والوثنيون على حد سواء ـ وفي إحدى الليالي ـ مارس سنة ٤١٥م ـ اعترضت مجموعة من رهبان وادي النطرون طريق عربة «هيباتيا»، بإيعاز من كبيرهم «كيرلس» (٤١٢ ـ ٤٤٤م) وأنزلوا الفيلسوفة الشابة الجميلة، ثم جروها إلى كنيسة قيصرون؛ حيث تقدم مجموعة من الرهبان وقاموا بنزع ثيابها حتى تجردت من ملابسها، ثم تقدم بطرس القارئ للصلوات في الكنيسة وقام بذبحها ذبح الشاة، ثم عكف الرهبان على تقطيع جسدها إلى أشلاء، مستمتعين بما يفعلون، ثم أخذوا في كشط لحمها عن عظمها بالمحار الحاد الأطراف، وأوقدوا النار التي قذفوا فيها أعضاءها وهي ترتعش بالحياة، وهم يتحلقون حولها في مرح وحشي عنيف!!».

هكذا تفجرت الغرائز المتعصبة ضد كل العقائد والآثار الوثنية القديمة ـ معابد وأهرامات ومدارس وجامعات ومكتبات ـ كما تفجرت الصراعات الدموية بين المثلثة ـ أتباع «أثناسيوس» (٢٩٥ ـ ٣٧٣م) وبين «الآريوسية» ـ الموحدة ـ أتباع «أريوس» (٢٥٦ ـ ٣٣٦م) الذي كان يؤمن «**بأن الله جوهر أزلي، أحد، لم يولد، ولم يلد، فكل ما سواه مخلوق، حتى «الكلمة»، أو الابن، كغيره من الكائنات مخلوقة من لا شيء، وليس من جوهر الله في شيء، وقد كان زمان لم يكن فيه «الكلمة» ثم كان ، بملء إرادة الله، لا بالضرورة، فليس إذًا هو الله، ولا من جوهر الله**»[1].

(١) (دائرة المعارف) ـ بإشراف: فؤاد إفرام البستاني ـ ماد «أريوس» طبعة بيروت سنة ١٩٥٦م، و(الوطن الأم) ص٩٨، ٩٩.

لقد كان النزاع الديني في الأصول، في طبيعة الإله المعبود؛ ولذلك استمر هذا النزاع وذلك الصراع، الذي اتخذ طابعًا دمويًّا والذي جعل مصر لا تعرف التعدد ولا التنوع ولا التسامح ولا قبول الآخر حتى جاءها الإسلام مع الفتح الذي قاده عمرو بن العاص.

ويشهد المؤرخ الإنجليزي «بتلر» على هذه الصفحة الدامية من الصراعات الدينية، التي سبقت الفتح الإسلامي، فيقول: «**لم يكن في بلاد الدولة الرومانية ما هو أشقى حالًا من مصر**. فقد سعى «جستنيان» (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) جهده ليجبر القبط الذين ليسوا على مذهب الدولة فيدخلهم في ذلك المذهب.

ولم يكن عند قبط مصر هم أكبر من مذهبهم (المونوفيسي) يملك عليهم آمالهم. فلم يكن عجيبًا على ذلك أن يسمع صليل السلاح بين الحين والحين في مدينة الإسكندرية نفسها، وأن تمتلئ أرض الصعيد بعصابات اللصوص وقطاع الطرق وتغزو أكنافها البدو وأهل النوبة. بل لم يكن عجبًا أن تضطرب الأحوال في مصر السفلى فتصبح ميدانًا للشغب وتثور بها فتن بين الطوائف توشك أن تكون حربًا أهلية. ولم يكن عجبًا أن يكون هذا في بلاد أصبح الحكام فيها لا هم لهم إلا أن يجمعوا المال لخزائن الملك البيزنطي وحاشيته، وأن تكون لمذهبهم الديني اليد العليا بين أهل البلاد، فصار الحكم على أيديهم أداة لا تؤدي إلا إلى الظلم ونشر الشقاء.

لقد كان الحزبان ـ بمصر ـ يعرفان باسمين مشهورين: أولهما اليعاقبة ـ وهم القبط ـ والثاني حزب الملكانية ـ وهم حزب الملك ـ وكان أكثرهم من أصل إغريقي أو أوروبي.

على أنه ما ولي إمبراطور إلا سار على سنة القضاء على مذهب اليعاقبة في مصر قضاء لا هوادة فيه ولا رحمة، وكان اليعاقبة لا يرضون إلا بأن يمحوا كل أثر من آثار مذهب (خلقيدونية).

ولشدة العداوة؛ رأت الحكومة أن من الحكمة التفريق بين رئيسي الدين، فأُخرج رئيس الدين القبطي من العاصمة ـ الإسكندرية ـ حتى لا يبقى المتنافسان معًا في العاصمة.

ولقد تحولت الكنيسة الملكانية ـ كنيسة الدولة ـ إلى مؤسسة من مؤسسات الاستغلال المالي فكانت تملك أسطولًا من السفن التجارية، وكان لها قسط من تجارة القمح العظيمة التي كانت رائجة بين الإسكندرية والقسطنطينية، وفوق ربح هذه التجارة كان الناس يهبون الهبات، كما كان لها أوقاف من أرض الزراعة تؤثر أموالًا عظيمة.

لقد كانت مصر أكثر بلاد الإمبراطورية هياجًا وكانت أمورها في اضطراب يكاد أن يكون مطردًا وكان اختلاف الدين بين المصريين والرومانيين أشد من اختلاف الجنس ولم يكن القبط (المونوفيسيون) فيما بينهم وحدة، بل كانوا أحزابًا. وقد ثارت الحرب الأهلية في أيام «جستن» الأول بين حزب كان يعتقد أن جسم المسيح فانٍ يفسد وأخر يعتقد أن جسمه باق لا يفنى ولا يفسد، وفي عهدٍ «جستنيان» تقلد «زويلوس» ولاية الدين، فقاد من محرابه ـ وهو في سلاحه وعدة حربه ـ مذبحة فجرت الدماء بين المصلين القبط، ولكن القبط تركوا تدريجيًّا عقيدة «جابان» في أن جسد المسيح لا يفنى ولا يفسد، وغلب على اعتقادهم رأي «تيودوسيوس» في أن جسمه كجسم البشر.

لقد كانت روح التعصب الشديدة التي مزقت جسم «هيباتيا» في المحراب لا تزال كامنة في القلوب لم تتغير، غير أنها بعد أن كانت تدفع إلى التنكيل بفتاة جميلة يعزى إليها ذنب الوثنية، صارت تثور بفرقتين كل منهما تدعي أنها ابنة المسيح وترمي الأخرى بأنها من نسل الشيطان.

ولقد أرادت الدولة صناعة عقيدة توحد بين المذهبين في مذهب واحد ـ «المذهب المونوثيلي»ـ فسعى «هرقل» إلى أن يمنع الناس من الخوض في الكلام عن كنه طبيعة «السيد المسيح»، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان، ولكن عليهم أن يشهدوا أن له إرادة واحدة أو قضاء واحدًا، ولقد لقي مسعاه مقاومة من الزعيم الملكاني «صفرنيوس» (٦٣٨م) وشيعته، كما خالفه كل القبط ـ قسوسهم وعامتهم ـ. ولقد أراد حمل الناس على ما أراد بالاضطهاد.

إن القبط لم يطيقوا أن يخطر ببال أحد منهم أن يغير ذرة من أصول عقيدته، أو لفظًا من شعار مذهبه، وعدوا ذلك خيانة لدينهم ولاستقلالهم بأمره، وقد كان استقلالهم في أمور الدين أكبر ما تتعلق به نفوسهم، ذلك أنهم لم يعرفوا الاستقلال القومي قط.

وعندما جاء الأسقف الملكاني «قيرس» إلى الإسكندرية خريف سنة ٦٣١م هرب البطريرك القبطي «بنيامين» بعد أن ألقى في قساوسته ورعيته خطابًا «يحضهم فيه على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافيهم الموت»، وكتب إلى أساقفته يأمرهم بالهجرة إلى الجبال والصحاري ليتواروا فيها حتى يرفع الله عنهم غضبه، وأنبأهم أن البلاد سيحل بها وبال، **وأنهم سيلقون العسف والظلم عشر سنين ثم يرفع عنهم.**

وغير نبوءة «بنيامين» بقرب رفع الظلم الروماني عن القبط جاءت نبوءة «صمويل القلموني» ـ الزاهد العابد ـ رئيس الدير في قلمون ـ الذي مات سنة ٦٣٩ **فلقد تنبأ بقدوم العرب، وانتهاء غزوتهم بنصر المسيحيين.**

هكذا بلغت مأساة مصر الذروة، وتطلع الناس إلى تغيير قادم من صحراء بلاد العرب. لقد عبر البطريرك اليعقوبي أبو الفرج ابن العبري (١٢٢٦ ـ ١٢٨٦م) عن هذا التطلع وهذا التمني فقال: «**ولما شكا الناس إلى هرقل لم يجب جوابًا، فأنجانا الله المنتقم من الروم على أيدي العرب، فعظمت نعمته لدينا أن أخرجنا من ظلم الروم وخلصنا من كراهيتهم الشديدة وعداوتهم المرة.**»

لقد رأى الذين ذاقوا المرارة والقسوة والبؤس تحت حكم الرومان أن خلاصهم آت على يد العرب، وشهد قساوستهم ـ بعد الفتح ـ للعرب «**الذين أعطاهم الله السلطان، والذين لا يحاربون دين المسيح، بل هم يدافعون عن ديننا، ويجلون قسوسنا وقديسينا، ويهبون الهبات لكنائسنا وأديرتنا**»[١].

(١) (الفتح العربي لمصر) ص٤٧، ٤٨، ٨٤، ٨٥، ٩٠، ٩١، ٧٠، ٧١، ١٧٢، ١٩١، ٢١٤، ٢٠٩، ٢١٠، ١٩٣، ١٩٤، ٢١٨ـ٢٢٠.

الفصل الرابع
دينٌ الفتوحات التحريرية

لقد مثل الإسـلام ـ كما جاء في شريعته الخاتمة ـ الشريعة المحمدية ـ؛ الامتداد لدين الله الواحد ـ من آدم إلى محمد، عليهم الصلاة والسلام.

وإذا كانت كل شرائع هذا الدين الإلهي الواحد، قد اشتركت في تحرير الإنسان من عبودية الطواغيت ـ كل الطواغيت ـ وذلك بالتوحيد الذي يستخلص الإنسان لعبادة الله الواحد الأحد، وفق الشريعة التي نزل بها الوحي على الأنبياء والمرسلين، فإن هذه الشريعة المحمدية الخاتمة والخالدة قد تميزت وامتازت عن الشرائع السابقة ـ بعد «تحرير الذات» بالتوحيد ـ امتازت بالسعي لتحرير «الآخرين» المستضعفين ـ كل المستضعفين من كل بني الإنسان.

فبعد تحرير الذات ـ بالتوحيد والقيم والشعائر والعبادات ـ دعا القرآن الكريم المؤمنين، الذين تحررت ذواتهم من عبادة الطواغيت، إلى الجهاد لتحرير المستضعفين الذين وقعوا فرائس لاستبداد المستبدين ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ (النساء: ٧٤ـ٧٦).

ولذلك، كان الجهاد في الإسلام ـ ليس جهاد دفع وجهاد طلب ـ كما اشتهر عند الفقهاء والمفسرين ـ وإنما هو في حقيقته جهاد لتحرير «الذات» من الطواغيت وجهاد لتحرير «الآخرين المستضعفين» من استبداد الطواغيت.

ولهذه الحقيقة، رأينا السياسة الخارجية للدولة الإسلامية الأولى ـ دولة النبوة ـ منذ نجاحها في تحييد الوثنية المشركة ـ بصلح الحديبية مع قريش سنة ٦ هـ سنة ٦٢٨م، وخلاصها من بؤر التآمر والتحريض والتمويل لحروب الشرك ضد الإسلام ودولته ـ بمعركة خيبر سنة ٧ هـ سنة ٦٣٨م؛ رأينا هذه السياسة الخارجية ـ التي بدأت سنة ٧ هـ سنة ٦٢٨ م ـ تتوجه إلى تحرير شعوب الشرق التي خضعت قرونًا عديدة لاستبداد الفرس والروم. ولقد تجسد هذا التوجه في رسائل رسول الله ﷺ إلى قوى الهيمنة وفي مقدمتها قيصرية الروم وكسروية الفرس وكذلك المقوس ـ عظيم القبط ـ في مصر.

فلتحرير المستضعفين ـ الذين رزحوا تحت النير الروماني لعشرة قرون ـ جاء في رسالة رسول الله ﷺ إلى قيصر الروم ـ هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م) التحذير من هذا القهر الواقع على الآريوسيين ـ النصارى الموحدين ـ: «سلام على من اتبع الهدى أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلِم تسلم. وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. **فإن توليت فعليك إثم الأَرْيُسِيِّين**»[١].

ولتحرير المستضعفين، الواقعين تحت النير الكسروي الفارسي، جاء في رسالة الرسول ﷺ إلى كسرى أبرويس (٥٩٠ ـ ٦٢٨م): «أسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك»[٢].

كما جاء في حوار ربعي بن عامر مع رستم ـ قائد الفرس في معركة القادسية سنة ١٥هـ سنة ٦٣٦م ـ عندما سأله رستم:

ـ ما جاء بكم؟!

ـ فأجابه ربعي ـ معبرًا عن رسالة الإسلام في تحرير الناس ـ مطلق الناس ـ: «**إن الله قد ابتعثنا وجاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام**»[٣].

وفي رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس ـ عظيم القبط ـ لَفْتَةٌ إلى عدم الاعتراف بأن مصر شأن روماني، وذلك بمخاطبة عظيم القبط ـ حاكم ممفيس ـ بشأنها، دون الاكتفاء بمخاطبة قيصر الروم، وفي هذه الرسالة إلى المقوقس جاء: «أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط»[٤].

(١) (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ص٥٠.
(٢) المصدر السابق. ص٧٦.
(٣) (تاريخ الطبري) جـ٣ ص٥١٩
(٤) (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ص٧٢.

كما جاء في حوار حامل هذه الرسالة ـ الصحابي حاطب بن أبي بلتعة ـ مع المقوقس ـ تحذيره من العواقب التاريخية للاستبداد بالرعايا، وذلك بقوله: «**إنه قد كان قبلك رجل ـ (يشير إلى فرعون موسى) ـ زعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يُعتبر بك**»[١].

ومع التحذير من الاستبداد، وعواقبه، فتح حاطب أمام المقوقس وقومه أوسع أبواب الحرية الدينية، التي جاء بها الإسلام ـ والتي حرموا منها لقرون عديدة ـ فقال للمقوقس: «**إن لك دينًا ـ (أي النصرانية) ـ لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافي به الله فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به**»[٢].

هكذا أفصحت السياسة الخارجية لدولة النبوة ـ منذ إشراقاتها الأولى ـ عن رسالة الإسلام في تحرير الأمم والشعوب المغلوبة على أمرها، ثم جاءت غزوة تبوك سنة ٩ هـ ـ سنة ٦٣٠م ـ ضد الاستعمار الروماني للشام ـ وبعدها الفتوحات الإسلامية ـ في الخلافة الراشدة ـ لتضع هذه السياسة التحريرية في الممارسة والتطبيق، وذلك عندما فتح المسلمون في ثمانين عامًا ـ فتح تحرير ـ أوسع مما فتح الرومان ـ فتح قهر واستعمار ـ في ثمانية قرون!.

ولأن منهاج البحث ـ في هذا الكتاب ـ هو ضرب الأمثال على هذا التحرير، الذي مثلته هذه الفتوحات الإسلامية كان الوقوف بالحديث عند المعركة التي أدالت دولة الروم ـ فتح مصر ـ وعند المعركة التي أدالت دولة الفرس ـ القادسية ـ للتعبير عن الفتوحات الكبرى، التي حررت الشرق من الاستبداد، والتي فتحت أمام شعوبه أبواب الحرية على نحو غير مسبوق.

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٤٦. (ومجموعة الوثائق السياسية) ص٧٢، ٧٣.
(٢) المصدر السابق. ص٧٢، ٧٣.

الفتح الإسلامي لمصر

لقد كان الفتح الإسلامي لمصر ضرورة إستراتيجية للدولة الإسلامية؛ لأن مصر كانت قاعدة الدولة الرومانية في الشرق، وكان بقاء هذه القاعدة بيد الرومان تهديدًا للدولة الإسلامية، التي حررت الشام من القبضة الرومانية.

وعند المؤرخ الإنجليزي «بتلر» إشارة إلى هذا الفكر الاستراتيجي، الذي وقف خلف فتح مصر، والذي دفع إليه يتحدث عنه فيقول: «لقد قال عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب: **«إن «أرطبون» حاكم الروم على بيت المقدس ـ وكان قد هرب قبل تسليمها ـ قد لاذ بمصر ـ وإنه قد يجمع فيها جنود الدولة، وإن على العرب ألا يضيعوا الوقت، بل أن يوقعوا به قبل أن يستفحل أمره»**[١].

ففتح مصر، والقضاء على قاعدة الروم في الشرق، كان الشرط الضروري لبقاء دولة الإسلام، وحماية الفتوحات الإسلامية في الشام والمشرق.

ولأن معركة الفتح الإسلامي لمصر كانت الفاصلة في تحرير الشرق بأكمله؛ قال هرقل ـ قيصر الروم ـ: «**إذا سقطت الإسكندرية ضاع ملك الروم**» ولهذا حشد الرومان ـ بمصر ـ ١٢٠,٠٠٠ (مائة وعشرين ألف جندي)، في حصون وراءها حصون ـ كما يقول «ابن عبد الحكم» (٢١٤هـ ٨٢٩م) ولأن المدد الروماني لهذا الجيش الجرار ـ من البحر ـ مفتوحة أمامه كل الأبواب؛ لذلك كله كانت قيادة الفتح لواحد من خيرة الصحابة المقاتلين، ذوي العبقرية الإستراتيجية، وذوي الدهاء المشهود له به من الجميع، والذي تولى القيادة العسكرية منذ اللحظات الأولى لدخوله الإسلام، والذي قال عنه رسول الله ﷺ عندما رآه يمشي في كبرياء العظماء: «إنه قد خلق ليكون قائدًا»[٢]! كانت القيادة لعمرو بن العاص (٥٠ ق.هـ ـ ٤٣هـ ـ ٥٧٤ ـ ٦٦٤م) فكان على رأس الجند الذين تنبأ رسول الله ﷺ بأنهم خير أجناد الأرض، المرابطون على ثغور الإسلام إلى يوم الدين.

(١) (فتح العرب لمصر) ص٢٣٧.
(٢) ومع شجاعة عمرو وكبريائه وبطولاته فلقد روي عنه قوله: «إني إن كنت لأشد الناس حياء من رسول الله، ما ملأت عيني منه ولا راجعته بما أريد حتى لحق بالله حياء منه»! (فتوح مصر وأخبارها) ص١٨١.

ولقد شهد بهذه الحقائق كبار المؤرخين الأجانب ـ فضلًا عن كتب المناقب والتأريخ لأعلام الجيل الفريد الذين تربوا في مدرسة النبوة على يدي أستاذ أساتذة المربين. شهد بذلك المؤرخ الإنجليزي «بتلر» الذي قال: «كان النبي ﷺ يرى في عمرو رأيًا حسنًا، وقد قال فيه يومًا: «إنه من خير المسلمين وأكثرهم ثقة» وقال فيه أيضًا: «إنه من «صالحي قريش». وكان يحبه لحسن رأيه ولشجاعته. ولقد عقد له على بعض سراياه، وقال له عند ذلك: إنه قد أمَّره على الناس، ودعا له بالسلامة والغنيمة.

وكان عمرو على قيادة كتيبة من الكتائب في «يوم السلاسل»، فأرسل يستمد النبي ﷺ، فأرسل إليه مائتي رجل، فيهم أبو بكر وعمر، وعليهم أبو عبيدة بن الجراح، فلما أقبلوا عليه قال عمرو: «أنا أميركم، وأنتم لي مدد»، فقال أبو عبيدة: «لا، بل أنا أمير على من معي، وأنت أمير على من معك»، فأبى عمرو هذا، فقال أبو عبيدة: «لقد قال لي رسول الله ﷺ: لا تختلفا. وإنك إن عصيتَ أطعتك»، فقال عمرو: «فإني آبى أن أطيعك»، فسلم عليه أبو عبيدة عند ذلك بالإمارة، ووقف وراءه في الصلاة» أي أنه كان القائد في الحرب لأمين هذه الأمة ـ أبو عبيدة بن الجراح ـ ولأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب.

ولقد عقد له الرسول ﷺ بعد وقعة «السلاسل» على «عُمان»، فظل عليها حتى لحق النبي بربه، وبعد سنة أو سنتين من ذلك جعله أبو بكر أحد القواد الذين سيرهم إلى الشام.

ولقد افتتح قنسرين، وصالح أهل حلب، ومنبج، وأنطاكية وولاه عمر بن الخطاب فلسطين.

ولقد اجتمعت فيه صفات المحارب، والشاعر، وجواب الآفاق، والرجل الصالح، فكان واضح الباطن والظاهر، نبيل المقاصد والفعال، وكان محبَّبًا مؤلفًا، يملك قلوب الناس ويستهوي أفئدتهم، شأنه في ذلك شأن عظماء الرجال الذين يخلب حبهم أفئدة الناس فإذا إعجابهم ولاء وإخلاص[١].

هذا عن قائد الفتح..

أما جند الفتح ـ الذين قال عنهم المرجفون: إن أغلبهم كانوا من الصعاليك وقطّاع الطرق، والذين سبق أن ارتدوا عن الإسلام!ـ

(١) (فتح العرب لمصر) ص٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٨.

فإن مصادر التاريخ ـ الأجنبية والعربية ـ تتحدث عنهم فتقول: «لقد كان حب القتال غريزة في العرب. وقد زادهم توقدًا إيمانهم بأن عليهم واجبًا دينيًّا يؤدونه، فاجتمعت لهم صفتان ما اجتمعتا في قوم إلا صار بأسهم شديدًا، فلما اجتمعتا للعرب أصبحوا لا يكاد يقف شيء في سبيلهم. لقد أصبح المسلمون جميعًا في جميع بلاد العرب وقبلتهم الكعبة، وإمامهم القرآن، قد ضمهم دين واحد وحكم واحد في عبادة إله واحد، سواء أكانوا قبل ذلك نصارى، أو يهودًا، من الفرس أو السودان أو العرب»[١].

وهؤلاء الجند الفاتحون لمصر، الذين قادهم عمرو بن العاص، هم الذين سبق ووصفهم رسول الله ﷺ بأنهم خير أجناد الأرض، المرابطون على ثغور الإسلام فلقد روى عبد الله بن لَهِيعة (١٧٠ هـ ١٧٤هـ ٧١٥ ـ ٧٩٠م) من حديث عمرو بن العاص أنه قال: حدثني عمر أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا فتح الله عليكم بعدي مصر، فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض».

فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: ولم يا رسول الله؟

قال: «لأنهم في رباط إلى يوم القيامة»[٢].

وإذا كان القرآن الكريم قد جعل إعداد العدة والعتاد سلاحًا يلقي الرعب في قلوب الأعداء، فيكفوا عدوانهم ويتحقق الأمن دون قتال ـ وهو النصر بالرعب ـ فلقد كانت هيبة هذا الجند الفاتح لمصر في عيون الروم قتالاً حتى قبل وقوع القتال!.

«فعندما زار وفد من الروم معسكر المسلمين، قالوا: «**لقد رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة. ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد. وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم. إن الأسود والأبيض سواء عندهم، لا يفضل أحد أحدًا إلا بفضله وعقله، وليس بلونه**»[٣].

(١) المرجع السابق. ص١٨٥، ١٨٤.
(٢) المقريزي (الخطط) جـ١ ص٤٢.
(٣) (فتح العرب لمصر) ص٢٨٤.

ولقد أرسل المقوقس ـ حاكم منفيس ـ رسله إلى معسكر المسلمين، فلما عادوا إليه قال لهم:

ـ كيف رأيتموهم؟

ـ قالوا: رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة. ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد. وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم.

ـ فقال المقوقس: والذي يُحْلَفُ به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم، وهم محصورون بهذا النيل، لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم[١].

ولقد سُمع قبطي مرة وهو يقول: ما أعجب أمر هؤلاء العرب، فإنهم أتوا إلى مصر في قلة من الناس يريدون لقاء الروم في كتائبهم العظيمة!

فأجابه آخر من القبط: «**إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه حتى يُقتلوا عن آخرهم**»[٢].

وكان عبادة بن الصامت أسود اللون، فلما ركب ـ (وفد المسلمين) ـ السفن إلى المقوقس ـ (في الجزيرة) ـ، ودخلوا عليه، تقدم عبادة، فهابه المقوقس لسواده، فقال: نحوا عني هذا الأسود، وقدموا غيره يكلمني. فقالوا جميعًا: إن هذا الأسود أفضلنا رأيًا وعلمًا، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنما نرجع جميعًا إلى قوله ورأيه، وقد أمّره الأمير دوننا بما أمره به، وأمرنا بأن لا نخالف رأيه وقوله.

ـ قال ـ (المقوقس) ـ: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم، وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم؟

ـ قالوا: كلا، إنه وإن كان أسود كما ترى، فإنه من أفضلنا موضعًا، وأفضلنا سابقة، وعقلًا ورأيًا، **وليس يُنكر السواد فينا.**

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٦٥.

(٢) (فتح العرب لمصر) ص٢٥٩، ٢٦٠.

قال المقوقس لعبادة: تقدم يا أسود، وكلمني برفق، فإني أهاب سوادك، وإن اشتد كلامك عليّ ازددت لذلك هيبة.

فتقدم إليه عبادة، فقال: قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلَّفتُ من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سواد مني، وأفظع منظرًا، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لي. وأنا قد ولّيت وأدبر شبابي، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعًا، وكذلك أصحابي، وذلك أنا **إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في سبيل الله واتباع رضوانه**، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا ولا طلبًا للاستكثار منها، إلا أن الله قد أحل ذلك لنا وجعل ما غنمنا من ذلك حلالًا، وما يبالي أحدنا كان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهمًا؛ لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته لليله ونهاره، وشملة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله واقتصر على هذا الذي بيده ويَبْلُغُه ما كان في الدنيا؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء، وإنما النعيم والرخاء في الآخرة، وبذلك أمرنا ربنا وأمرنا نبينا، وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا في الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه.

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟! لقد هِبْتُ منظره، وإن قوله لأهيب عندي من منظره، **إن هذا وأصحابه ما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها.**

ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال: أيها الرجل الصالح، قد سمعت مقالتك، وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها. وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة، ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، وقد أقمتم بين أظهرنا

أشهرا وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به.

فقال عبادة بن الصامت: يا هذا، لا تغرنك نفسك ولا أصحابك، وأما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنّا لا نقوى عليهم، فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه. إن كان ما قلتم حقًّا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم؛ لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا أقدمنا عليه، إن قُتلنا من آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا، وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ (البقرة: ٢٤٩). وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحًا ومساءً أن يرزقه الشهادة، وألا يرد إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا هم فيما خلّفه، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده، وإنما همنا أمامنا. وأما قولك إننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن في أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه»[١].

كانت هذه هي حقيقة الجند الفاتح ـ كما أبصرها الروم والمقوقس، طلائع جديدة وفريدة، لعالم جديد وفريد.

وفي مصادر التاريخ ـ من ابن عبد الحكم في (فتوح مصر وأخبارها[٢] إلى الكندي في (فضائل مصر)[٣] إلى المقريزي في (الخطط)[٤] ـ ذكر لأسماء الصحابة الذين شاركوا في فتح مصر وهم أكثر من مائة منهم:

١ـ الزبير بن العوام (٢٨ ق.هـ ـ ٣٦ هـ ٥٩٦ ـ ٦٥٦م).

٢ـ وعبادة بن الصامت (٣٨ ق.هـ ـ ٣٤ هـ ٥٨٦ ـ ٦٥٤م).

(١) المصدر السابق. ص٦٥ ـ ٦٨.
(٢) ص ٢٤٨ ـ ٣١٩.
(٣) ص ٣٧ ـ ٤٠.
(٤) جـ١ ص٥٥٤، ٥٥٥، وانظر ـ كذلك: الزركلي (الأعلام) ـ طبعة بيروت.

٣ـ والمقداد بن الأسود (٣٧ ق.هـ ـ ٣٣هـ ٥٨٧ ـ ٦٥٣م).
٤ـ أبو الدرداء عويمر بن عامر ـ وقيل عويمر بن زيد (٣٢هـ ٦٥٢م).
٥ـ فضالة بن عبيد (٥٣هـ ٦٧٣م).
٦ـ عقبة بن عامر (٥٨ هـ ٦٧٨م).
٧ـ أبو ذر الغفاري (٣٢هـ ٦٥٢م).
٨ـ محمية بن جزء الزبيدي (٢٥هـ ٦٤٥م).
٩ـ نبيه بن صؤاب.
١٠ـ رافع بن مالك.
١١ـ ربيع بن شرحبيل بن حسنة.
١٢ـ سعد بن وقاص (٢٣ ق.هـ ـ ٥٥ هـ ٦٠٠ ـ ٦٦١م).
١٣ـ عمرو بن علقمة.
١٤ـ عبد الله بن عمرو بن العاص (٧ ق.هـ ـ ٦٥هـ ٦١٦ ـ ٦٨٤م).
١٥ـ عبد الله بن عمر بن الخطاب (١٠ ق.هـ ـ ٧٣ هـ ٦١٣ ـ ٦٩٢م).
١٦ـ خارجة بن حذافة العدوي (٤٠ هـ ٦٦٠م).
١٧ـ عبد الله بن سعد بن أبي السرح (٣٧هـ ٦٥٧م).
١٨ـ أبو رافع ـ مولى رسول الله ﷺ.
١٩ـ محمد بن مسلمة الأنصاري (٣٥ ق.هـ ـ ٤٣هـ ٥٨٩ ـ ٦٦٣م).
٢٠ـ مسلمة بن مخلد الأنصاري (١ـ ٦٢هـ ٦٦٢ ـ ٦٨٢م).
٢١ـ أبو أيوب الأنصاري (٥٢هـ ٦٧٢م).
٢٢ـ رويفع بن ثابت بن السكن الأنصاري (٥٦هـ ٦٧٦م).
٢٣ـ حبيب بن مغفل.
٢٤ـ كعب بن ضنة.
٢٥ـ معاوية بن حديج الكندي (٥٢هـ ٦٧٢م).
٢٦ـ عمار بن ياسر (٥٧ ق. ـ ٣٧هـ ٥٦٧ـ ٦٥٣م).
٢٧ـ عمرو بن العاص (٥٠ ق.هـ ـ ٤٣هـ ٥٧٤ ـ ٦٦٤م).
٢٨ـ أبو هريرة (٢١ ق.هـ ـ ٥٩هـ ٦٠٢ـ ٦٧٩م).
٢٩ـ خارجة بن حذافة العدوي (٢٠ هـ ـ ٦٦٠).

٣٠ـ قيس بن أبي العاص السهمي (٢٣هـ ـ ٦٤٤).
٣١ـ نافع بن عبد القيس الفهري[1].
٣٢ـ أبو عبد الرحمن يزيد بن أنيس الفهري.
٣٣ـ ابن عبده.
٣٤ـ عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة.
٣٥ـ وردان ـ مولى عمرو بن العاص[2].
٣٦ـ محمد بن مسلمة الأنصاري.
٣٧ـ أبو نصرة جميل بن نصرة الغفاري.
٣٨ـ أبو جندب بن جنادة الغفاري.
٣٩ـ عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي (٨٦هـ ٧٠٥م).
٤٠ـ كعب بن ضبة العبسي[3].
٤١ـ عقبة بن عامر الجهني (٥٨هـ ٦٧٨م).
٤٢ـ أبو زمعة البلوي.
٤٣ـ برح بن حسكل[4].
٤٤ـ جنادة بن أمية الأزدي (٨٠هـ ٦٩٩م).
٤٥ـ سفيان بن وهب الخولاني (٨٢هـ ٦٩٩).
٤٦ـ عامر ـ مولى جمل ـ الذي يقال له: عامر جمل (٧٠هـ ٦٩٠م).

تلك نماذج من كوكبة الصحابة ـ الذين تربوا في مدرسة النبوة ـ والذين شاركوا في «خير أجناد الأرض»، الذين أسهموا في إنجاز هذا الفتح المبين الذي أدال دولة الروم، التي قهرت الشرق لعشرة قرون!.

● ولقد أسهم في نجاح هذا الفتح ـ الذي كان أصعب الفتوح وأطولها مدة ـ وجود امتدادات عربية قديمة قد استوطنت أرض مصر منذ ما قبل ظهور الإسلام بزمن طويل.

فلقد كان للكنعانيين صلة قديمة بمصر، وبها تأثرت حضارتهم، ولقد هاجرت عشائر منهم إلى شرقي مصر من طريق سيناء. وفي شرقي مصر سكن العرب الأدوميون، الذين استأذنت بعض قبائلهم الفرعون «منفتاح» (١٢٣٥ ـ ١٢٢٤ ق.م) السكنى بمصر، فأذن لهم. والذين كونوا ـ بمصر ـ مملكة عربية امتدت من حدود فلسطين إلى خليج العقبة.

ولقد حل الأنباط محل الأدوميين، وأسسوا لهم دولة عربية، اكتشفت آثار لها في الصحراء الشرقية.

(١) أو هو عقبة بن نافع.
(٢) كان حامل لواء عمرو بن العاص
(٣) ويقال كعب بن يسار بن ضبة
(٤) ويقال برخ بن عسكر.

كما أثبتت الدراسات الآثارية الصلات بين المصريين القدماء وبين الساميين والأصول السامية للغة المصرية القديمة والصلات الثقافية والحضارية بين المصريين القدماء والساميين.

ويذكر المؤرخان اليونانيان «استرابو» (٦٦ ق.م ـ ٢٤ ق.م) و«بلينيوس» (حوالي ٧٠م) أن العرب قد تكاثروا ـ في أيامهما ـ على العدوة الغربية من البحر الأحمر، حتى شغلوا ما بينه وبين النيل في أعلى الصعيد، وأصبح نصف سكان «فقط»، من العرب، وكانت لهم جمال ينقلون عليها التجارة والناس بين البحر والنيل، كما شهد التاريخ القديم هجرات من عرب خزاعة ـ وهم فرع من الأزد ـ إلى مصر، والسكن فيها، وفي الفترة التي سبقت فتح مصر ـ وبعد فتح الشام ـ هاجرت هجرات من عرب غسان وجذام وعامة ـ كانوا قد تنصروا ـ إلى مصر، وسكنوا أرض الجفار ـ في شمالي سيناء ـ وأقطعهم الحاكم الروماني ولاية «تنيس» (صان الحجر) كما سكن دمياط قبيل الفتح عرب كانوا قد تنصروا[1].

ولقد أسهم هذا الوجود العربي بمصر في وقائع الفتح الإسلامي، وكان منهم المدد الذي التحق بجيش عمرو بن العاص.

● أما مسيرة هذا الفتح فيتحدث عنها ابن عبد الحكم ـ أقدم من أرخ لهذا الفتح ـ فيقول: «إن عمر بن الخطاب قد عقد لعمرو بن العاص «على أربعة آلاف رجل ويقال بل ثلاثة آلاف وخمسمائة ـ (معلقًا المضي في الفتح على مشاورة من بالمدينة المنورة) ـ.

وكتب عمر إلى عمرو أن ينصرف عن المضي في الفتح إذا جاءه كتابه ـ (بعد مشاورة من بالمدينة) ـ قبل الدخول إلى مصر «فأدرك الكتاب عمرًا وهو برفح، فتخوّف إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف، فلم يأخذه من الرسول وسار حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها فقيل إنها من مصر، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين، وقال لمن معه: ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟ قالوا: بلى. قال: فإن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا وامضوا على بركة الله.

وعند العريش حل عيد الأضحى سنة ١٨ هـ فصلى الجيش الفاتح أول صلاة لعيد الأضحى على أرض مصر، وضحى عمرو عن أصحابه بكبش.

(١) د. عبد المجيد عابدين (لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربي وبعده) ص٧، ٨، ٩. طبعة مطبعة الشبكي ـ القاهرة سنة ١٩٦٤م، ومقدمة (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب) للمقريزي ص٧٧، ٧٨، ٩٠، ٩١. طبعة عالم الكتب. القاهرة سنة ١٩٦١م. و(فتح العرب لمصر) ص١٨٦.

وفي «الفرما» كان أول قتال بين الجيش الفاتح وبين الروم وكان قتالًا شديدًا استمر نحو شهر ثم فتح الله على المسلمين.

ومنذ اللحظات الأولى لدخول الجيش الفاتح أرض مصر، تلقاه القبط بالترحاب والمعاونة ذلك أن أسقف القبط ـ الهارب من بطش الرومان ـ «بنيامين» كتب إلى أتباعه يعلمهم أنه لن تكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، ويأمرهم بتلقي عمرو بن العاص، فكان القبط في الفرما أعوانًا للجيش الإسلامي الفاتح.

ويجمع كبار المؤرخين على هذا الذي ذكره ابن عبد الحكم فيقول المقريزي: إنه لما قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين معه إلى مصر، قاتلهم الروم حماية لملكهم ودفعًا لهم عن بلادهم، فقاتلهم المسلمون. وطلب القبط من عمرو المصالحة على الجزية، فصالحهم عليها، وأقرهم على ما بأيديهم من الأراضي وغيرها، وصاروا معه عونًا للمسلمين على الروم حتى هزمهم الله تعالى، وأخرجهم من أرض مصر[١].

ويؤكد هذه الحقيقة المؤرخ الإنجليزي «بتلر» فيقول: «إن علينا أن نبين هنا بيانًا لا شك فيه، أنه لم يكن في ذلك الوقت شيء اسمه القبط في ميدان النضال، ولم تكن منهم طائفة لها يد فيه، بل كان القبط إذ ذاك بمنجاة عنه، قد أذلهم الروم وأرغموا أنوفهم[٢].

ومع هذا الرأي يقف المؤرخون الفرنسيون: فيليب فارج، ويوسف كرباج، فيقولون: «إن جميع كتاب الحوليات متفقون على أن الأقباط قد استقبلوا ببالغ التسامح الفاتحين العرب، الذين حرروهم من الاضطهاد وإنه يجري قبول دخول العرب مصر بشكل مصحوب بالأمل، إن لم يجر الاحتفاء بحماس، وهو ما ستظل تحتفظ به الذاكرة اليعقوبية ذكرى قدوم أبناء إسماعيل من الجنوب لتخليصنا»[٣].

وبعد معركة الفرما، سار عمرو بن العاص، لا يلقى إلا مدافعات خفيفة فنزل «القواصر» وعند «بلبيس» كان القتال الشديد بينه وبين الروم، الذي استمر نحو شهر.

وبعد الانتصار في «بلبيس» سار الجيش الفاتح لا يواجه إلا المقاومة الخفيفة حتى أتى إلى «أم دنين» ـ (حصن بابليون)ـ فقاتله

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٥٦، ٥٨.
(٢) (فتح العرب لمصر) ص٢٨١.
(٣) (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي والتركي) ص٣٣، ٣٨.

الروم قتالًا شديدًا، فلما أبطأ عليه الفتح كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يطلب المدد فأمده بأربعة آلاف جندي ـ على كل ألف منهم رجل من الصحابة بألف رجل وقال له: «إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجلٌ مقام ألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد». ثم قال: اعلم أن معك اثني عشر ألفًا، ولا يُغلب اثنا عشر ألفًا من قلة».

ولما أبطأ فتح حصن بابليون، وطال حصاره، قال الزبير بن العوام: إني أهب نفسي لله، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلمًا إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام، ثم صعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا. فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبّر، معه السيف، فتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفًا من أن ينكسر السلم. فلما اقتحم الزبير، وتبعه من تبعه، وكبّر وكبّر من معه، وأجابهم المسلمون من خارج، لم يشكّ أهل الحصن، أن العرب قد اقتحموه جميعًا، فهربوا، فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه، واقتحم المسلمون الحصن بعد حصار استمر سبعة أشهر[1].

وعبر دلتا النيل، سار الجيش الفاتح مقاتلًا الحاميات الرومانية، وفاتحًا مدن الدلتا وحصونها[2]، حتى بلغ الإسكندرية العاصمة الشرقية لملك الروم فتحصن بها الروم، وكانت عليهم حصون لا تُرام، حصن دون حصن، فنزل المسلمون ما بين «حلوة» إلى «قصر فارس» إلى ما وراء ذلك، ومعم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة.

وكان ملك الروم يقول: لئن ظهرت العرب على الإسكندرية، إن في ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم؛ لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية، وإنما كان عيد الروم بالإسكندرية ـ حيث غلب العرب على الشام ـ فقال الملك: **لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها.**

وكان عمر بن الخطاب ـ بالمدينة ـ يترقب أنباء فتح الإسكندرية، ولما أبطأ الفتح وبلغ أمد الحصار أربعة عشر شهرًا كتب إلى عمرو

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٣.

(٢) ومن هذه المعارك معركة «ترفوط» ـ على النيل ـ ومعركة «كوم شريك» ـ قرب الإسكندرية ـ والتي دام القتال فيها ثلاثة أيام ومعركة «سُلْطَيْس» وكان القتال فيها شديدًا ومعركة «الكريون» ـ ولقد دام القتال بها بضعة عشر يومًا ـ ومعركة «سخا» «بلهيت» و«قرطا» و«الخيس» (المصدر السابق. ص٧٣).

بن العاص رسالة القائد الذي يعيش في «غرفة عمليات» المعركة والذي يرسم خطة الفتح لعاصمة ملك الروم وفيها قال: «أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، **إنكم تقاتلون منذ سنتين،** وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم. وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل، على ما كنت أعرف، إلا أن يكونوا غيّرهم ما غيّر غيرهم.

فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس، وحضهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزّل الرحمة ووقت الإجابة، وليعجّ الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم».

فلما أتى عمرًا الكتاب، جمع الناس وقرأه عليهم، ثم دعا أولئك النفر ـ الأربعة ـ فقدمهم أمام الناس، **وأمر الناس، أن يتطهروا ويصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله عز وجل، ويسألوه النصر. ففعلوا، ففتح الله عليهم.**

ولقد عهد عمرو بن العاص بقيادة معركة فتح الإسكندرية إلى عبادة بن الصامت ـ الذي سبق وقاد فتح حصن بابليون ـ وجعل عمرو من عمامته راية رفعها عبادة وهو يقود القتال ضد الروم! فكان «الفتح» للإسكندرية في يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين[١] بعد حصار، دام أربعة عشر شهرًا منها خمسة أشهر في حياة هرقل وتسعة بعد وفاته.

وبعد الانتصار العظيم ـ الذي أدال دولة الروم في الشرق ـ بعث عمرو بن العاص «معاوية بن حديج» إلى عمر بن الخطاب ـ بالمدينة ـ يبشره بالفتح. ويحكي معاوية نبأ هذه الرحلة فيقول: لقد قدمت المدينة في الظهيرة، فأنخت راحلتي بباب المسجد، ثم دخلت المسجد، فبينا أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب، فرأتني شاحبًا عليّ ثياب السفر، فأتتني فقالت:

ـ من أنت؟

(١) هكذا في (فتوح مصر وأخبارها) ص ٧٤، ٧٦، ٧٩، ٨٠. وفي (التوفيقات الإلهامية) أن ذلك كان يوم الجمعة أول جمادى الثانية سنة ٢٠هـ.

ـ فقلت: أنا معاوية بن حديج، رسول عمرو بن العاص، فانصرفت عني، ثم أقبلت تشتد، أسمع حفيف إزارها على ساقيها، حتى دنت مني فقالت: قم، فأجب أمير المؤمنين يدعوك، فتبعتها، فلما دخلت فإذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى، فقال:

ـ ما عندك؟

ـ فقلت: خيرٌ يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية.

فخرج معي إلى المسجد، فقال للمؤذن: **أذِّن في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، ثم قال لي: قم فأخبر أصحابك، فقمت فأخبرتهم، ثم صلى، ودخل منزله، واستقبل القبلة، ودعا بدعوات، ثم جلس، فقال: يا جارية: هل من طعام؟ فأتت بخبز وزيت، فقال: كل، فأكلت على حياء، ثم قال: كل، فإن المسافر يحب الطعام، فلو كنت آكلًا لأكلت معك، فأصبت على حياء. ثم قال: يا جارية، هل من تمر؟ فأتت بتمر في طبق، فقال: كل، فأكلت على حياء. ثم قال:**

ـ ماذا قلت، يا معاوية، حين أتيت المسجد؟

ـ قال: قلت: أمير المؤمنين قائل.

ـ قال: بئس ما قلت ـ أو بئس ما ظننت ـ لئن نمت النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية؟!»[١].

ولقد كان فتح مصر ـ مصر الشعب ـ الذي مثله المقوقس ـ حاكم منفيس ـ صلحًا، بينما كان فتح مصر ـ الدولة الرومانية ـ عنوة وقتالًا شرسًا وطويلًا.

وعندما اختلف الجند الفاتحون على قائدهم عمرو بن العاص يريدون قسم غنائم الفتح، كما تقسم غنائم البلاد المفتوحة عنوة. قال عمرو بن العاص: لا أقدر على قسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب إليه فأجابه عمر: لا تقسمها، وذرهم يكون خراجها فيئًا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم. فأقرها عمرو، وأحصى أهلها، وفرض عليهم الخراج، فكانت مصر صلحًا كلها[٢].

هكذا ـ وعلى هذا النحو ـ سارت الأحداث الكبرى لهذا الفتح الإسلامي المبين.

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٨١.
(٢) المصدر السابق. ص٨٢، ٨٣.

الفصل الخامس

التراتيب الإدارية والحريات الدينية في مصر الإسلامية

لقد فتح صحابة رسول الله ﷺ مصر، وهم يعلمون مكانتها في السنة النبوية، وهم يحفظون ويرددون وصايا الرسول ﷺ بها وبأهلها، ولقد ظلت هذه الوصايا ثوابت فيما كتب المؤرخون المسلمون عن مصر، كما تحولت إلى فلسفة تحكم التراتيب الإدارية التي وضعت لمصر بعد أن غدت جزءًا من دار الإسلام، بل كنانة الله في دار الإسلام.

فعند أقدم من أرخ للفتح الإسلامي لمصر ـ ابن عبد الحكم (٢٥٧هـ ـ ٨٧٠م) ـ نقرأ رواية الصحابي أنس بن مالك قول رسول الله ﷺ: «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا» وتعليل ابن شهاب الزهري (٥٨ ـ ١٢٤هـ ٦٧٨ ـ ٧٤٢م): «إن أم إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ منهم» ورواية عبد الله بن مسلمة: أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ قد سمعوه يقول: «إنكم ستكونون أجنادًا، وإن خير أجنادكم أهل الغرب منكم، فاتقوا الله في القبط استوصوا بالقبط خيرًا، فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم. الله الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانًا في سبيل الله».

ونقرأ أخبار مصاهرة القبط لثلاثة من أنبياء الله: إبراهيم ـ خليل الرحمن ـ عليه السلام ـ الذي تسرّى بهاجر، ويوسف ـ عليه السلام ـ الذي تزوج بنت صاحب عين شمس، ورسول الله ﷺ الذي تسرى بمارية القبطية.

وكما كانت مارية القبطية ـ التي أهداها المقوقس للرسول ﷺ ـ أم ولده ـ الذي اختار له اسم إبراهيم ـ فلقد كانت الثياب التي أهداها له المقوقس محبوبة لديه، حتى أنه طلب أن يُكفن فيها عند الوفاة، فعن ابن مسعود: قلنا: يا رسول الله، فيم نكفنك؟ قال: في ثيابي هذه، أو في ثياب مصر»[١].

ومن المؤرخين المسيحيين، الذين أرخوا للفتح الإسلامي لمصر من شهد بهذه الحقيقة حقيقة حب رسول الله ﷺ لمصر وأهلها ومن هؤلاء المؤرخين د. جاك تاجر، الذي يقول: «**إننا نستطيع الجزم بأن صاحب الدعوة الإسلامية كان يضمر كل خير لسكان مصر الأصليين**»[٢].

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٢ ـ ٤، ٥٢.

(٢) (أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م) ص٢٠.

● ولقد اعتمدت الدولة الإسلامية ـ منذ اللحظات الأولى لتمام الفتح ـ سياسة إشراك أهل مصر في سياسة بلدهم وفي إدارتها ـ بعد أن كانوا معزولين عن ذلك عزلًا تامًا ـ فكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أن يسأل المقوقس عن مصر، من أين تأتي عمارتها وخرابها؟ فسأله عمرو، فقال له المقوقس: تأتي عمارتها وخرابها من وجوه خمسة:

١ـ أن يُستخرج خراجها في إبان واحد، عند فراغ أهلها من زروعهم.

٢ـ ويُرفع خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم.

٣ـ وتُحفر في كل سنة خُلُجها.

٤ـ وتُسد ترعها وجسورها.

٥ـ ولا يُقبل محْل أهلها ـ يريد البَغْي.

فإذا فُعل هذا فيها عمرت، وإن عُمل فيها بخلافه خربت[١].

ولقد عبر عمرو بن العاص ـ في خطابه إلى عمر بن الخطاب ـ عن هذه السياسة، فقال: «إن الذي يصلح هذه البلاد وينميها ويقرّ قاطنيها فيها:

١ـ ألا يُقبل قول خسيسها في رئيسها.

٢ـ وألا يُستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها.

٣ـ وأن يُصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها.

فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال. والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل»[٢].

ولقد أعلن عمرو بن العاص هذه السياسة على الجنود، عندما خطبهم فقال: **«استوصوا بمن جاورتموهم من القبط خيرًا ـ لقد حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيرًا، فإن لكم منهم صهرًا وذمة». فكفوا أيديكم، وعفوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم، وتشوق قلوبهم إليكم، وإلى داركم، معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية**. ولقد حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها**

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص١٦١.
(٢) (فتح العرب لمصر) ص٤٤٩.

جندًا كثيفًا فذلك الجند خير أجناد الأرض» فقال أبو بكر: ولم يا رسول الله؟ قال: «لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة» أقول قولي هذا وأستحفظ الله عليكم»[١].

ولقد كانت وثيقة الصلح بين عمرو بن العاص وبين المقوقس ـ ومعه قبط مصر، وثيقة دستورية ـ نصت على حقوق أهل مصر في:

١ـ ربط الضرائب بوفاء النيل.

٢ـ وتقسيط هذه الضرائب على ثلاثة أقساط.

٣ـ والمساواة في خراج الأرض بين المسلمين وغير المسلمين.

ولقد أورد الطبري نص هذه الوثيقة التي جاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من **الأمان على أنفسهم، وملتهم، وأموالهم، وكنائسهم وصُلبهم، وبرهم وبحرهم.** لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص، ولا يساكنهم النوب.

وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، **وانتهت زيادة نهرهم** وعليهم ما جنى لصوتهم ـ (لصوصهم) ـ **فإن أبى أحد منهم أن يجيب رُفع عنهم من الجزاء ـ (الجزية) ـ بقدرهم، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رُفع بقدر ذلك،** ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، ويخرج من سلطاننا. **عليهم ما عليهم أثلاثًا في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم.** على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين. شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه. وكتب وردان وحضر»[٢].

ولقد عبر عمرو بن العاص عن مكانة مصر المتميزة في المحيط الإسلامي ـ بعد تحريرها ـ فقال: «**إن ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة**»[٣].

● وفي شهادة قبطية حديثة، نقرأ كيف حقق الفتح الإسلامي لمصر وأهلها نوعًا من الحكم الذاتي كانوا قد حرموا منه لعد قرون، نقرأ للمؤرخ القبطي يعقوب نخلة روفيلة قوله: «**ولما ثبت**

(١) المرجع السابق. ص٤٤٩.
(٢)(تاريخ الطبري) جـ٤ ص١٠٩. و(وردان) هذا هو مولى عمرو بن العاص، وحامل لوائه في القتال.
(٣) (النجوم الزاهرة) جـ١ ص٣١.

قدم العرب في مصر، شرع عمرو بن العاص في تطمين خواطر الأهلين، واستمالة قلوبهم إليه، واكتساب ثقتهم به، وتقريب سراة القوم وعقلائهم منه، وإجابة طلباتهم. وأول شيء فعله من هذا القبيل: استدعاء بنيامين البطريرك، الذي سبق واختفى من أمام هرقل ملك الروم، وذلك أنه كان بين رؤساء الأقباط المتقربين من عمرو واحد يسمى «شنوتي» (شنودة)، فتقدم إليه وأعلمه بخبر البطريرك، وما كان من أمر هروبه واختفائه، وطلب منه أن يأمر بعودته، فلبى طلبه، وكتب أمانًا وأرسله إلى جميع الجهات يدعو فيه البطريرك للحضور ولا خوف عليه ولا تثريب. ولما حضر وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع أكرمه وأظهر له الولاء وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته. وعزل البطريرك الذي كان أقامه هرقل. ورد بنيامين إلى مركزه الأصلي معززًا مكرمًا. وهكذا عادت له المياه إلى مجاريها، بعد اختفائه مدة طويلة قاسى فيها ما قساه من الشدائد. وكان بنيامين هذا موصوفًا بالعقل والمعرفة والحكمة حتى سماه بعضهم (بالحكيم) ـ وقيل إن عمرًا لما تحقق ذلك منه قربه إليه، وصار يدعوه في بعض الأوقات ويستشيره في الأحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها، وقد حسب الأقباط هذا الالتفات منّة عظيمة وفضلًا جزيلًا لعمرو.

وأمر عمرو بأن من لا يرغب من الروم البقاء في مصر فليخرج منها بأمان، ومن يفضل البقاء تضرب عليه الجزية ـ ويكون له ما للأقباط وعليه ما عليهم. وكان عدد الروم في مصر ينوف عن ثلاثمائة ألف نفس فهاجر أغلبهم ولم يبق منهم إلا من كانت له علاقات ومصالح لا تسمح له بالخروج منها والابتعاد عنها.

وانتهز القبط خروج الروم فرصة مناسبة فوضعوا يدهم على كثير من كنائسهم وأديرتهم وملحقاتها بدعوى أنها كانت في الأصل ملكًا لهم والروم نزعوها من أيديهم قوة واقتدارًا بسبب ما كان بينهم من الشقاق، **ومن ذلك الحين عاش الروم بالحسنى وانتهت من بينهم المنازعات والمخاصمات التي كانت تفضي إلى قتل الألوف المؤلفة لزوال أسبابها.**

ثم أخذ عمرو في تنظيم البلاد، وإذ كان يعلم أن صاحب الدار أدرى بما فيها، **استعان بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالي والوالي معًا، فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلًّا منها حاكم قبطي له اختصاصٌ وحدود معينة، ينظر في قضايا الناس ويحكم بينهم، ورتب مجالس ابتدائية واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوي نزاهة واستقامة، وعين نوابًا مخصوصين من القبط ومنحهم حق التداخل في القضايا المختصة بالأقباط والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية، فكانوا بذلك في نوع من الحرية، والاستقلال المدني، وهي ميزة كانوا قد جردوا منها في أيام الدولة الرومانية.**

وضرب الخراج على البلاد بطريقة عادلة، وولى عليه متوليًا من ذويه يقبضه على أقساط في آجال معينة حتى لا يتضايق أهل البلاد، ورتب الدواوين، فاختص الأقباط بمسك الدفاتر وسائر الأعمال الكتابية والحسابية، وكانت كلها تجري باللغة القبطية. **وبالجملة فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها من أزمان.**

ومما حبب القبط في عمرو، وجعلهم يميلون إليه كل الميل، أنه كان مراعيًا في كل تصرفاته مصلحتهم وراحتهم، فلم يجب منهم في مدة إمارته من الأموال أكثر مما صولحوا عليه بغير زيادة أو نقص، ولا في غير آجالها المضروبة لجمعها وتحصيلها»[1].

كما يشهد المؤرخ الإنجليزي «بتلر» على أن الإدارة للبلاد ـ بعد الفتح ـ إنما كانت إدارة وطنية فيقول: «لقد بقي بعض أكابر حكام الروم في أعمالهم، والأعمال التي نزح عنها الروم جعل العرب عليها بدلًا من القبط، **حتى صار عمال الدولة يكادون يكونون جميعًا من المسيحيين.**

وكان على زعماء الناس في القرى أن يجتمعوا لينظروا في حال الزراعة، ويجعلوا جباية المال مناسبة لذلك، فكانوا في ذلك بمثابة لجنة خاصة تجتمع لتقدير مقدار ما يُجبى من الأموال، فإذا اجتمع من ذلك المال شيء فوق ما فرض على قريتهم أُنفق في إصلاح أحوالها. وكانت تجعل في كل بلد قطعة من الأرض يخصص ريعها لإصلاح الأبنية العامة وصيانتها، وذلك مثل الكنائس والحمامات»[2].

(١) (تاريخ الأمة القبطية) ص٥٤ ـ ٥٧، ٦٣.
(٢) (فتح العرب لمصر) ص٤٦٥ـ ٤٦٧.

ويؤكد المؤرخون الفرنسيون على قيام هذا العدل الإسلامي في أرض الواقع بمصر. فإسلامية مصر، بعد الفتح، إنما كانت لكل أهلها، المسلمين منهم وغير المسلمين «**فبمجرد توطيد سلطة الدولة الإسلامية، يندرج السكان بين عشية وضحاها في دار الإسلام** ولا يرجع ذلك على أية حال إلى أنهم يتتمون إلى الإسلام. على الضد من ذلك تمامًا، فالقانون ينص على أن غير المسلمين سوف يتمتعون بوضعية خاصة، ومن ثم فهو يقنن وجودهم الديني، والانتقال إلى الإسلام يأخذ أجيالًا، ونحن نعرف أن الإكراه عليه كان غائبًا في أغلب الأحيان، وهو لن يحدث في تاريخ الإسلام العربي، إلا بصفة استثنائية، ولقد صرح الحاكم بأمر الله للمسيحيين الذين أكرههم في الليلة الماضية على الارتداد عن المسيحية باستعادة ديانتهم.

والواقع أن العرب لم يجيئوا طغاة، ولقد نصت وثيقة الصلح مع المقوقس على التزام سكان مصر بالجزية فور وصول فيضان نهرهم إلى منتهاه، وإذا لم يصل النهر لحظة الفيضان إلى مستواه العادي، فسوف يجري تخفيف عبء الجزية عنهم بما يتناسب مع ذلك. ولقد كان حجم ضريبة الرأس ضئيلًا نسبيًّا. والإدارة المكلفة بجباية هذه الضريبة تجبى أيضًا ضريبة الخراج، وهي ضريبة أرض يخضع لها الجميع مسلمين كانوا أم ذميين، وكان موظف إدارة الضرائب جابيًا محليًّا، فالعرب لم يجيئوا ومعهم إدارتهم، ولم يكن يهمهم غير المبلغ الإجمالي للإيرادات، ومن ثم فإنهم سوف يتركون تقسيمه بين الجزية والخراج لتقدير الجابي المحلي»[(١)].

وكانت الجزية ـ ضريبة الرأس ـ بدلًا من الجندية ـ وليست بدلًا من الإيمان بالإسلام ـ أي للإنفاق على الجند الذين يحمون الأرض والسكان من الأعداء الذين يتربصون بهم الدوائر. وعندما قال المفاوضون عن المقوقس ـ في بدايات الفتح ـ: «إننا إذا أذعنا للمسلمين، ودفعنا الجزية، لم نَعْدُ أن نكون عبيدًا» قال لهم عبادة بن الصامت: «إنكم إن دفعتم الجزية كنتم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم، مسلطين في بلادكم على ما في أيديكم وما تتوارثونه فيما بينكم، وحفظت لكم كنائسكم لا يتعرض لكم أحد في أمور دينكم.

وكانت الجزية ثلاثة أقسام: للفقراء، ولأوساط الناس، وللأغنياء ـ لكل فئة قسط يناسبها.

(١) (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي) ص٣٨، ٤٣، ٣٣، ٤٠.

ولم يُبح للمسلمين في أول الأمر أن يملكوا الأرض وكان الرأي أن يبقى العرب على رباطهم، لا يشتغلون بالزرع، ولا يحلون بالبلاد كأهلها، فلما أن اطمأنوا في البلاد، أخذ ذلك المنع يرتفع عنهم، وأبيح لهم أن يملكوا الأرض، وكانوا إذا ملكوا أرضًا دفعوا عنها الخراج كسائر الناس ـ أقباط ومسلمين ـ وكان الروم يجبون من مصر أموالًا كثيرة الأنواع، ثقيلة الوطأة، شديدة الأذى، فأحل العرب محلها الجزية وخراج الأرض وكانت لها فضيلة البساطة، وكانت ثابتة المقدار، محدودة القصد..»[1].

وفي طرق جباية الضرائب تغير الوضع عما كان عليه زمن الرومان. ويشهد مؤرخ مسيحي على هذا التغير الجذري، فيقول: «لقد نعم المصريون من هذه الناحية بمزية لم يكونوا يتوقعونها، فبينما كان الحكام البيزنطيون يلجئون عادة إلى الضرب لحمل الشعب على دفع الضرائب، أعلن الإسلام بأنه إذا كان شخص في حالة لا تسمح له بدفع الجزية، فلا يجوز للحاكم أن يكرهه على ذلك بالعقاب البدني، أي باستعمال العصي، أو بتعريضه لأشعة الشمس الملتهبة، أو رش جسمه بالزيت المغلي ـ (كما كان يفعل الرومان) ـ وإنما الوسيلة الوحيدة المصرح بها هي السجن لعدم دفع الديون.

وقال أبو يوسف (١١٣ ـ ١٨٢هـ ٧٧١ ـ ٧٩٨م) صراحة في هذا الصدد: «ولا يضرب أحد من أهل الذمة في استيدائهم الجزية، ولا يقاموا في الشمس ولا غيرها، ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره، ولكن يرفق بهم، ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم»[2].

وفي مصر، كان يجري توزيع حصص الضريبة على السكان بموجب تحكيم تقرره لجنة ثلاثية مكونة من جابي الضرائب القبطي (الصراف) وعمدة القرية (شيخ البلد) والمحامي المدافع عن مصالح القرويين (الشاهد). لقد كانت قاعدة إدارة الشئون المالية قبطية بوجه عام، بل يحدث أن قمة الإدارة تصبح قبطية أيضًا، وفي عهد محمد علي باشا (١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م) كان جرجس الجوهري ـ وهو من البورجوازية القبطية ـ وزيرًا للمالية»[3].

(١) (فتح العرب لمصر) ص٢٨٧، ٤٦٩، ٤٧٦، ٣٥٩.

(٢) (أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م) ص ٨٢.

(٣) (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي) ص١٤٨.

ولأن الجزية كانت بدلًا من الجندية ـ وليست بدلًا من الإسلام ـ فلقد أسقطت عمن دخل من المسيحيين في خدمة الجيش. ولقد حدث ذلك ـ بمصر ـ في دولة محمد علي باشا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر وذلك عندما ألحق نحوًا من مائة قبطي بالعمل في ترسانة الإسكندرية، وأسقط عنهم الجزية، وتقاضوا رواتبهم كغيرهم من المسلمين الملتحقين بالجهادية وجاء في الأمر الصادر في ٢٢ ربيع الآخر سنة ١٢٥٢هـ مايو ١٨٣٦م: «يُقتضى اتباع الأصول المدونة بها، وربط ماهية ومرتب الصنف الذي يستحقه الأقباط الذين يؤخذون للجهادية، لكونهم يؤدون مصالح الميري، ومن اللزوم رعايتهم ورفاهيتهم»[١].

ثم جاء تعميم إلغاء الجزية في عهد الخديوي سعيد باشا (١٢٣٧ ـ ١٢٧٩هـ ١٨٢٢ ـ ١٨٦٣م) بالأمر الصادر بتاريخ ٢١ صفر سنة ١٢٧٢هـ ـ نوفمبر ١٨٥٥م ـ عندما تم تجنيدهم كالمسلمين في الجيش[٢].

وإذا كان المستشرق الألماني الحجة «آدم متز» (١٨٦٩ ـ ١٩١٧م) قد قال: «لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام»[٣] فإن المؤرخ القبطي يعقوب نخلة روفيلة يؤكد على هذه الحقيقة التاريخية فيقول: «لقد كان القبط في الواقع هم المسلطون في بلادهم، وبيدهم كل شيء، وعاشوا آمنين على أنفسهم ومالهم، ولم يكن للعرب سلطة عليهم إلا في تحصيل الخراج وجمع الجزية التي قاموا بدفعها عن طيب خاطر، ولقد استمروا على هذه الراحة حتى سنة ٦٥هـ ٦٨٣م عندما زاد الوالي عبد العزيز بن مروان الضرائب والعوائد ليس على الأقباط فقط بل على جميع المصريين سواء كانوا أهل البلاد أو من المستوطنين فيها، ولكنه خص الأقباط بزيادة الجزية التي فرضها أيضًا على الأكليروس، مع أنهم كانوا إلى هذا التاريخ معافين منها، فألزم كل واحد منهم بدفع دينار في السنة والبطريرك بثلاثة آلاف دينار[٤].

وعندما تفشى الطاعون سنة ٧٠هـ انتقل الوالي من الفسطاط إلى حلوان، **ونقل إليها بيت المال، وكان الأمين عليه رجل قبطي يسمى**

(١) (أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م) ص ٢٥٤، ٢٥٥. (محفوظات عابدين ـ خطاب من محمد علي إلى حبيب أفندي سجل ٧٤ «معية تركي» رقم ٩١٠).

(٢) المرجع السابق. نقلًا عن محفوظات عابدين. أمر عالي بتاريخ ٢١ صفر ١٢٧٢هـ سجل ١٨٨٣ـ رقم ٨.

(٣) (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) جـ ١ ص١٠٥. ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة. طبعة بيروت ١٩٦٧م.

(٤) كان وراء هذا التغيير زيادة ثروات الكنائس والأديرة، واتخاذ الأوقاف عليها سبيلًا للتهرب من ضريبة الخراج.

«أنيتاس»، وإذ كان القبط في ذلك الحين هم أهل البلاد وذوي الثروة والاقتدار على الأعمال، وعليهم مدار العمران، بخلاف العرب الذين كان معظمهم من الجند المحافظين على الأمن وسلامة البلد، كلف عبد العزيز بن مروان أهل اليسار من القبط أن يبني كل منهم له دارًا بحوان، التي كان يريد أن يجعلها مدينة تحاكي الفسطاط لتكون مقر الحكومة وعاصمة الديار المصرية، وكلف أيضًا البطريرك الموجود حينذاك ـ وكان اسمه «إيساك» ـ أن يبنى له فيها دارًا وكنيسة حتى يرغب باقي الأقباط في التوطن بها، **وإذ كان هذا يحتاج إلى نفقات جسيمة لا يبعد أن يكون قد زاد على الأقباط شيئًا يدفعونه مع الجزية ليساعده على تنفيذ مشروعه**، وبذلك تحصل على مبالغ كافية، والقليل ـ كما يقال ـ في الكثير كثير.

وجاء في سيرة البطريرك «إيساك»، الموجودة نسخته بمتحف لوندرة، ما نصه: «أنه ـ أي البطريرك ـ كان يكثر التردد على حلوان لزيارة الأمير عبد العزيز، الذي أمر أراخنة الصعيد وكل القرى أن يبني كل واحد لنفسه مسكنًا بحلوان المدينة».

وجاء في موضع آخر ـ من سيرة البطريرك ـ ما نصه: «وبعد ثلاث سنوات أطلق الأساقفة إلى كراسيهم ليستعدوا لبناء بيوتهم في حلوان، وكان الأساقفة ينفقون من عندهم على عمارتها، ووكل الوالي بعمارتها «أغريغوريوس» أسقف القيس».

ومما ذكر يعلم أنه كان بين البطريرك والوالي عبد العزيز ودٌّ وائتلاف، ولم يكن جافيًا على النصارى[١].

هكذا شهدت وثائق التاريخ ـ وشهد المؤرخون ـ العرب والأجانب ـ المسلمون والمسيحيون ـ على الانقلاب الجذري والشامل الذي شهده الواقع المصري بعد الفتح الإسلامي. وهي شهادات لعدل الإسلام، الذي وضعه المسلمون في الممارسة والتطبيق.

* * *

أما عن الحريات الدينية التي أشاعها الإسلام في ربوع البلاد التي افتتحها المسلمون، والتي نعم بها السكان الذين حرموا منها

(١) (تاريخ الأمة القبطية) ص٦٤ ـ ٦٨.

لقرون طوال؛ فإن شهادات التاريخ والمؤرخين ـ وأغلبها شهادات شهود من أهلها ـ تؤكد أنها المنارات المضيئة لتاريخ الإسلام والمسلمين في هذا الميدان.

لقد دخلت المسيحية مصر أواسط القرن الميلادي الأول وظلت عقيدة مضطهدة ومطاردة حتى جاء الفتح الإسلامي في القرن السابع للميلاد. ولقد ظل البطريرك الوطني «بنيامين» هاربًا من اضطهاد الرومان ثلاثة عشر عامًا، ولما فشلوا في العثور عليه، قبضوا على أخيه «ميناس»، وسلطوا نيران المشاعل على جسمه، فأخذ يحترق حتى سال دهن جنبيه إلى الأرض، ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه، فخلعت أسنانه، ثم وضع في كيس به رمل وحمل إلى البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطئ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما قرره مجمع «خلقيدنية». فعلوا ذلك ثلاثًا، وهو يرفض في كل مرة، فرموا به في البحر فمات غرقًا»[1].

فلما جاء الفتح الإسلامي؛ حرر المسلمون كل العقائد وحرروا البطرك «بنيامين»، وردوا إلى القبط كنائسهم وأديرتهم التي كانت مغتصبة من قبل الرومان الملكانيين، وطاف البطرك بنيامين بكنائس رعيته وخطب فيها ـ معبرًا عن السعادة بالحرية التي حرم منها قومه، فقال ـ وهو يبارك الكنيسة الجديدة ـ كنيسة القديس مقاريوس ـ في الصحراء ـ :«المجد للسيد المسيح، الذي جعلني مستحقًا لدفعة أخرى، أن أنظر هذه البرية الجليلة، وهؤلاء الآباء والإخوة القديسيين، وإظهار الأمانة الأرثوذكسية، **وخلصني من اضطهاد المخالفين، ونجّا نفسي من التنين العظيم الضغي الطارد لأجل الأمانة المستقيمة، ووهبني أن أشاهد أولادي دفعة أخرى وهم محيطين بي**».

وفي كلمته التي ألقاها بدير مقاريوس، قال: «لقد وجدت في الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم لتي قام بتمثيلها الظلمة المارقون»[2].

ولم تكن هذه الحرية الدينية، التي حققها الفتح الإسلامي، وقفًا على الأقباط الأرثوذكس وحدهم، وإنما كانت للجميع، بمن

(١) (فتح العرب لمصر) ص٢١٧، ٢١٨ ـ (والغلوة: هي رمية السهم، الأبعد في قدرة الرامي).

(٢) (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي) ص٢٢٠، ٢٢١.

فيهم الرومان الملكانيون ـ الذين آثروا البقاء في مصر الإسلامية ـ وكما يقول المؤرخ الإنجليزي «بتلر»: «فبعد فتح الإسكندرية، أقيم خَلَفٌ لبطريك الرومان بالإسكندرية؛ ليقوم على ولاية المذهب الملكاني، **وأدى ذلك إلى تنفس الناس في عباداتهم واختيار ما يشاءونه في تدينهم، فلم يكن بالمسلمين اهتمام لمنازعات الأحزاب في شأن مجمع خلقيدونية. وأصبح القبط في مأمن من الخوف الذي كان يلجئهم إلى إنكار عقيدتهم أو إخفائها تقية ومداراة. فعادت الحياة إلى مذهب القبط في هذا الجو الجديد، جو الحرية الدينية، وما لبث أن صار مذهب الكثرة الذي يحق له أن يكون مذهب الأمة السائد**».

«وقد يقال: إن الحكام الجدد قد أدخلوا إلى الأرض دينًا غريبًا غير دين المسيح، وهذا حق، غير أن الأقباط لم يروا في ذلك إلا عدلًا من الله، إذ أجمع الناس على قول واحد فقالوا: «**ما خرج الروم من الأرض، وانتصر عليهم المسلمون إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر، وما أنزله بالقبط وملتهم على يد «قيرس» ـ (بطرك الروم الملكانيين) ـ فلقد كان هذا سبب ضياع أمر الروم وفتح المسلمين لبلاد مصر**».

«ولقد وجد على جدران الكنيسة المعلقة ـ في بابليون ـ قصر الشمع ـ عهد كتبه عمرو بن العاص بيده لحماية الكنيسة، وفيه يلعن من يسعى من المسلمين إلى حرمان القبط منها».

«وكان عمرو يسير في حكمه على نهج الاعتدال والتسامح، ولم يكن له هوى مع أحد المذهبين الدينيين، ويذكر ساويرس أن أسقفًا ملكانيًّا بقي على مذهبه حتى مات لم يمسسه أحد بأذى، وأن بنيامين كان يستميل الناس إلى مذهبه بالبرهان والإقناع.

وعلى هذا لابد أن نقول: إن المذهبين كليهما قد بقيا جنبًا إلى جنب في مصر يظلهما الفاتحون بذمتهم ويحمونها جميعًا بحمايتهم»[١].

ومن تجليات هذه الحرية الدينية، والفرح بها، خروج الرهبان ـ الذين كانوا في العصر الروماني قد فروا بعقيدتهم إلى الصحارى ـ خروجهم للقاء عمرو بن العاص، فلقد ذكر مؤرخو النصارى،

(١) (فتح العرب لمصر) ص٤٥٤، ٤٥٥، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٦٣ (وساويرس، هو ساويرس الأنطاكي (ت٥٣٨م) مؤرخ ولاهوتي.

والمقريزي ـ أنه خرج إلى لقاء عمرو بن العاص من هذه الأديرة سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكاز، فسلموا عليه، وأنه كتب لهم كتابًا هو عندهم»[١].

ولقد ظلت هذه الحرية الدينية تظلل سماء الشرق الإسلامي طوال تاريخ الإسلام، وشهد بها وعليها ـ بعد خمسة قرون من الفتوحات ـ بطريرك اليعقوبيين في أنطاكية (ميخائيل الكبير) (١١٢٦ ـ ١١٩٩م) الذي قال: «**إن رب الانتقام استقدم من المناطق الجنوبية أبناء إسماعيل لينقذنا بواسطتهم من أيدي اليونانيين، ولقد أصابنا خير ليس بالقليل بتحررنا من قسوة الرومان وشرورهم ومن غضبهم وحفيظتهم علينا، ولقد سادت الطمأنينة بيننا وبُعثت الكنيسة اليعقوبية من جديد وقويت تحت حكم عمرو بن العاص**»[٢].

وعن هذه الحرية الدينية ـ الفريدة في تاريخ الديانات والفتوحات ـ كتب الأب «برنار» اليسوعي إلى الأب «فليريو» ـ في القرن الثامن عشر سنة ١٧١١م يقول: «**إن مصر هي البلد الوحيدة في الإمبراطورية الإسلامية التي تقام فيها شعائر الدين المسيحي بحرية أكثر من أي بلد آخر، ولهذا السبب فإن عددًا كبيرًا من نصارى البلاد الأخرى يلجئون إليها**»[٣].

***

أما عن انتشار الإسلام، وتحوله إلى الدين السائد في الشرق، وتراجع المسيحية، بعد أن كانت لها السيادة في الشرق عند ظهور الإسلام، وقبل الفتوحات الإسلامية ـ وهو الأمر الذي يرجف حوله المرجفون بالحديث عن الإكراه الديني للتحول إلى الإسلام ـ فإننا نستطيع أن نسوق عشرات الشهادات ـ شهادات الشهود من أهلها ـ على أن الإسلام إنما انتشر ـ حيثما انتشر ـ بالسلم والإقناع والجاذبية الذاتية وتلبية الفطرة؛ لأنه دين الفطرة ـ حتى أنه لم تكن هناك، على مر تاريخه، مؤسسة متخصصة في الدعوة إليه، والحض على اعتناقه.

يشهد على هذه الحقيقة عشرات الشهود، من غير المسلمين ـ بل ومن أعداء الإسلام! ـ الذين شهدوا على أن انتشار الإسلام إنما

(١) (تاريخ مصر في العصر البيزنطي) ص١٩٤.
(٢) (أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي حتى عام ١٩٢٢م). ص١٨.
(٣) المرجع السابق. ص٢٠٢.

كان راجعًا لبساطته وقوته الذاتية وإلى ضعف اللاهوت المسيحي، وفساد مؤسساته الدينية ومن هذه الشهادات ـ على سبيل المثال:

١ـ شهادة المستشرق الإنجليزي الحجة «سيرتوماس أرنولد» (١٨٦٤ ـ ١٩٢٠) التي يقول فيها:

«عند ظهور الإسلام، كانت المسيحية ـ ديانة الشعب ـ قد تدهورت، فأصبحت تراعي المظاهر الخارجة مراعاة تقوم على كثير من الوهم والريبة. ووجدت حماسة عبادتهم البالغة متنفسًا في عبادة العذراء والقديسيين والصور والمخلفات الأثرية، وانصرف عدد كبير عن كنيسة انحطت حياتها الروحية إلى الحضيض.

ولما ملّوا مناقشات لا نهاية لها حول مسائل مذهبية عويصة، كالانبثاق المزدوج لروح القدس، وأخرى تافهة ـ كاستخدام الخبز الخمير والفطير في القربان المقدس ـ تقبلوا بصدر رحب تعاليم الإسلام الواضحة المفهومة التي تقوم على الوحدانية.

وقد انتهت إلينا أخبار عن طوائف كبيرة من الناس أسلموا، ولم يكونوا بسطاء عامتهم فحسب، بل كانوا من العلماء على اختلاف طبقاتهم ومناصبهم وحالاتهم.

وفي الكنيسة الإغريقية أصبح الدين الإسلامي الملجأ الطبيعي لأفراد الكنيسة الشرقية، هؤلاء الذين أحسوا بمثل هذا الحنين بعد أن عرفوا صورة من العقيدة أنقى وأبسط[١].

وفي عهد خلفاء صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ ـ ١١٣٧ ـ ١١٩٣م) نعم المسيحيون بالتسامح والرعاية قرابة قرن من الزمان، ولم يكن هناك ما يشكون منه إلا ما اتصف به كهنتهم أنفسهم من الفساد والانحطاط، فقد فشت السيمونية بينهم[٢]، فبيعت مناصب القسيسين، الذين اتصفوا بالجهل والرذيلة، وبلغت الحياة المسيحية درجة محزنة من الانحلال[٣٢].

إن سرعة انتشار الإسلام في الأيام الأولى للاحتلال العربي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام به الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام.

(١) آرنولد (الدعوة إلى الإسلام) ص١٨٥ ـ ١٨٧. ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي. طبعة القاهرة ١٩٧٠.

(٢) نسبة إلى سيمون الساحر ـ والمراد الارتقاء عن طريق بيع الرتب الروحية والكهنوتية وبيع الأشياء الروحية بالأثمان الدنيوية.

(٣) المصدر السابق. ص١٢٨.

لقد كانت صيغة عقائد المسيحية أشد ما تكون غموضًا وإبهامًا من الناحية الميتافيزيقية. وكان المسيحيون لا يعرفون عن حقائق دينهم إلا معارف غامضة أخذوها بالتواتر، بينما كانت عقيدة الإسلام تتلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة.

وإن كثرة عدد الأقباط الذين كانوا يعتنقون الإسلام من حين إلى حين جعل أتباع النبي محمد يعتبرونهم أشد ميلًا لتقبل الدين الإسلامي من أية طائفة أخرى[١].

لقد جلب الإسلام إلى هؤلاء القبط حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها من قبل ذلك بقرن من الزمان. ويظهر أن حالة القبط في الأيام الأولى من حكم المسلمين كانت معتدلة نوعًا ما، وليس هناك شاهد من الشواهد على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعًا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين. بل لقد تحول كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح ، حين كانت الإسكندرية حاضرة مصر وقتئذ، لا تزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة[٢].

إن مجرد بقاء الكنيسة المسيحية القومية في إفريقيا الشمالية مثل هذا الوقت الطويل ليدحض أي زعم بأن تحولهم إلى الإسلام قد قام على القوة والإكراه[٣].

٢- وشهادة المستشرق الفرنسي - مترجم القرآن إلى الفرنسية - «مونتيه - إدوارد» (١٨٥٦ - ١٩٢٧) التي يقول فيها:

«إن الإسلام في جوهره دين عقلي بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلي (Rationalism) بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، تنطبق على الإسلام تمام الانطباق، إنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل، وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام.

(١) المصدر السابق. ص١٢٦، ١٢٧.
(٢) المصدر السابق. ص ١٢٣، ١٢٤.
(٣) المصدر السابق. ص٤٦٧.

لقد حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائمًا بمبدأ الوحدانية، في عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول، ومن العسير أن نجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا.
وإن هذا الإخلاص كمبدأ الدين الأساسي، والبساطة الجوهرية في الصور التي يُصاغ فيها هذا الدين، والدليل الذي كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعًا يلتهب حماسة وغيرة، إن هذا كله يكوّن الأسباب الكثيرة التي تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين.

وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هي تبعًا لذلك في متناول إدراك الشخص العادي، أن تمتلك، وإنها لتمتلك فعلًا قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس»[١].

٣ـ وشهادة الفيلسوف السياسي الأمريكي «تايلور ـ جون» Ganon Taylor (١٧٥٣ ـ ١٨٢٤٩) التي يقول فيها:

«إنه من اليسير أن ندرك لماذا انتشر الإسلام بهذه السرعة في أفريقيا وآسيا. كان أئمة اللاهوت في أفريقيا والشام قد استبدلوا عقائد ميتافيزقية عويصة بديانة المسيح، فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة، والقذارة صفة لطهارة الرهبنة، وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة، كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولم يكن للعبيد أمل في حاضرهم ولا مستقبلهم. فأزال الإسلام بعون من الله هذه المجموعة من الفساد والخرافات. لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء في العقيدة، **وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية، باعتبارها رأس التقوى. ولقد بين أصول الدين التي تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو إلى الامتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه. وأعلن أن المرء مسئول، وأن هناك حياة أخرى ويومًا للحساب، وأعد للأشرار عقابًا أليمًا، وفرض الصلاة والزكاة والصوم، وفعل**

(١) المصدر السابق. ص ٤٥٤ـ٤٥٦.

الخير، ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الديني والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة، وسفسطة المنازعين في الدين، وأحل الشجاعة محل الرهبنة، ومنح العبيد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب الناس إدراكًا للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية(١).

كما كان الإسلام رد فعل ضد النظام الكنسي البيزنطي، الذي كان يمثل الإمبراطور ورجال بلاطه صورة من الجلالة الإلهية في الأعالي، ويُنظر إلى الإمبراطور نفسه لا على أنه الحاكم الدنيوي فحسب، بل على أنه الكاهن الأكبر كذلك(٢).

إننا لم نسمع في ظل الإسلام عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصي بها «فرديناند» (١٤٥٢ ـ ١٥١٧) و«إيزابيلا» (١٤٥١ ـ ١٥٠٤م) دين الإسلام من أسبانيا، أو التي جعل بها «لويس الرابع عشر» (٦٣٨ ـ ١٧١٥م) المذهب البروتستانتي مذهبًا يعاقب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين من إنجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة(٣).

ويمكن أن نرجع كثيرًا من اضطهادات المسيحيين في البلاد الإسلامية **إما إلى الشك في ولائهم، الذي كانت تثيره دسائس المسيحيين الغرباء وأعداء الإسلام وتدخلهم في شئونهم، أو إلى الشعور السيئ الذي أثاره المسلك القائم على الخيانة والقسوة الذي ظهر به هؤلاء الأجانب نحو المسلمين**(٤).

ويظهر أن أمثال سورات الاضطهاد هذه قد أثارها في بعض الحالات هؤلاء المسيحيون الذين شغلوا مناصب عالية في خدمة الحكومة من جراء إساءة استعمال سلطتهم، فأثاروا على أنفسهم ـ بظلمهم المسلمين ـ شعورًا قويًّا من الاستياء. وقد قيل: إنهم استغلوا مناصبهم العالية في سلب أموال المؤمنين ومضايقتهم ومعاملتهم بشيء كثير من الغلظة والقحة، وتجريدهم من أراضيهم وأموالهم. كما تعرضوا أيضًا لبغض كثير من المسلمين باستخدامهم

(١) المصدر السابق. ص٩٠.
(٢) المصدر السابق. ص٩١.
(٣) المصدر السابق. ص٩٨، ٩٩.
(٤) المصدر السابق. ص٩٥، ٩٦.

عيونًا للدولة العباسية، ومطاردة أشياع البيت الأموي الذي أُقصي عن الحكم. وفي عصر متأخر اتهم المسيحيون في زمن الحروب الصليبية باتصالهم بالصليبيين اتصالًا ينطوي على الخيانة، فجلبوا على أنفسهم قيودًا شديدة الحرج ليس من العدل أن نصفها بأنها اضطهاد ديني»[١].

٤ ـ وشهادة المستشرق الإيطالي الأمير «كيتاني» **Caetani** (١٨٦٩ ـ ١٩٢٦م) التي يقول فيها:

«إن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهيلنية إلى اللاهوت المسيحي.

أما الشرق، الذي عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فقد كانت الثقافة الهيلنية وبالًا عليه من الوجهة الدينية؛ لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها.

فلما أهلّت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف وغرقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب، لم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان نبي بلاد العرب[٢].

إن العرب لم يضطهدوا أحدًا من أجل الدين، كما أنهم لم يعملوا على ضم أحد إلى دينهم، ومن ثم تمتع المسيحيون الساميون، في ظل الإسلام، بعد الفتوحات الأولى بحرية لم يتمتعوا بها من قبل طيلة أجيال عديدة.

وهناك شواهد كثيرة تبين أن المسيحيين قلما كانوا في عهد الفتوحات الإسلامية الأولى يشكون مما يضعف من قوة دينهم،

(١) المصدر السابق. ص٩٧، ٩٨.
(٢) المصدر السابق. ص ٨٩، ٩٠.

ونستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على التسامح..»(١).

٥ـ وشهادة المستشرق «لايارد» Layard التي يقول فيها:

«لا شك أن التحول إلى الإسلام كان يقترن ببعض مزايا مالية معينة، ولكنه لم يكن من الممكن أن يكون للدين القديم إلا تأثير ضئيل على هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام لا لشيء إلا ليظفروا بإعفائهم من أداء الجزية، وعندئذ كان على الذين يتحولون إلى الإسلام أن يؤدوا بدلًا من الجزية الصدقات الشرعية، وهي الزكاة التي كانت تفرض سنويًّا على معظم أنواع الممتلكات المنقولة والعقارية(٢).

ولم يكن الغرض من فرض ضريبة الجزية على المسيحيين ـ كما يريدنا بعض الباحثين على الظن ـ لونًا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة، وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين(٣).

ومن الواضح أن أي جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي، وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة الجراجمة، وهي قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية، سالمت المسلمين، وتعهدت أن تكون عونًا لهم، وأن تقاتل معهم في مغازيهم، على شريطة ألا تؤخذ بالجزية، وأن تُعطى نصيبها من الغنائم.

ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس سنة ٢٢هـ أُبرم مثال هذا الحلف مع إحدى القبائل التي تقيم على حدود هذه البلاد، وأُعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية، ونجد أمثلة شبيهة بهذه للإعفاء من الجزية في حالة المسيحيين الذين عملوا في الجيش أو الأسطول في ظل الحكم التركي.

(١) المصدر السابق. ص٧٠.
(٢) المصدر السابق. ص٧٧، ٧٨.
(٣) المصدر السابق. ص٧٩.

إن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق. إن نظرية العقيدة الإسلامية تلزم التسامح، وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى..»[١].

٦ـ وشهادة اللاهوتي الإيطالي الأب «مراتشي» Marracci (١٦١٢ ـ ١٧٠٠) ـ مترجم القرآن إلى الإيطالية ـ التي يقول فيها:

«لو قارن كافر بين أسرار الحالة الطبيعية البسيطة التي فاقت طاقة الذكاء البشري، أو التي هي، على الأقل، من الصعوبات بمكان، إن لم تكن مستحيلة ـ (العقيدة المسيحية) ـ وبين عقيدة القرآن، لانصرف عن الأولى في الحال، وأسرع إلى الثانية في ترحيب وقبول[٢].

ولم يكن النشاط الروحي للإسلام ـ كما زعم عدد كبير جدًّا من الناس ـ متمشيًا مع سلطانه السياسي، بل على العكس من ذلك نجد فقدان السلطة السياسية والانتعاش المادي، يعمل على إبراز أجمل الصفات الروحية التي تعد أصدق البواعث التي تحفز على القيام بأعمال الدعوة..»[٣].

٧ـ وشهادة المفكر الإنجليزي «كارليل» (١٧٩٠ ـ ١٨٤٣م) التي يقول فيها:

«إن من أسباب انتشار الإسلام بساطة العقيدة الإسلامية ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ.

وكل ما يطلب من الذي يدخل في الإسـلام قبول هاتين الشهادتين. إن هذه العقيدة البسيطة تجربة كبيرة للإيمان، ولا تثير في العادة مصاعب عقلية خاصة، ولما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية، كان من الممكن أن يشرحها أي فرد، حتى أقل الناس خبرة بالعبارات الدينية النظرية[٤].

٨ـ وشهادة الرحالة الفرنسي «تافرنيه» Tavemier (١٦٠٥ ـ ١٦٨٩م) التي يقول فيها:

«لقد كان من السهل على أي حاكم من حكام المسلمين الأقوياء أن يستأصل شأفة رعاياه المسيحيين أو ينفيهم من بلادهم، كما فعل الأسبان بالعرب، والإنجليز باليهود مدة أربعة قرون تقريبًا، وكان من الممكن تمامًا أن ينفذ سليم الأول (٨٧٥ ـ ٩٢٦هـ ١٤٨٠ ـ

(١) المصدر السابق. ص٨٠.
(٢) المصدر السابق. ص٤٥٤.
(٣) المصدر السابق. ص٤٦٩.
(٤) المصدر السابق. ص٤٥٤.

١٥٢٠م ـ في سنة ١٥١٤ ـ أو إبراهيم (١٠٤٩ ـ ١٠٥٨ هـ ـ ١٦٤٠ ـ ١٦٤٨م) ـ في سنة ١٦٤٦ م ـ تلك الفكرة البربرية التي تصورها للقضاء على رعاياه المسيحيين، ولكن طبقة المفتي، الذين صرفوا أذهان سادتهم عن مثل هذا الغرض الذي ينطوي على القسوة، إنما فعلوا ذلك باعتبارهم أئمة الشريعة الإسلامية والتسامح الإسلامي.

إن المبدأ الذي وجد قبولًا عظيمًا في ألمانيا في القرن السابع عشر ـ وهو أن لكل منطقة دينها الخاص ـ لم يقبله قط عاهل مسلم..»[١].

٩ ـ أما المؤلف النسطوري ـ «ماري بن سليمان» (منتصف القرن الثاني عشر الميلادي) فقد قال:

«إنه حول نهاية القرن العاشر أسلم خلق كثير، وكان أصل ذلك تجوّز الناس في أديانهم، وقبح سيرة الكهنة في المذابح والبيع وبيوت المقدس..»[٢].

١٠ ـ وشهادة الكاتب والسياسي الفرنسي «جوبينو ـ جوزيف آرثر» Gobineeou (١٨١٦ ـ ١٨٨٢م) التي يقول فيها:

«إننا لا نجد دينًا أكثر تسامحًا، بل يمكن أن يقال على وجه التقريب، أكثر بعدًا عن الاكتراث للعقيدة الفردية من الإسلام. لقد كان التسامح إلى أقصى حد هو القاعدة المستمدة من الأصول الإسلامية..»[٣].

١١ـ وشهادة المستشرق «ملمان» Dean Milman التي يقول فيها:

«كانت الأحزاب الدينية يناوئ بعضها بعضًا، ورجال الكنيسة يتنازعون فيما بينهم على أشد مسائل الدين إبهامًا وأكثرها غموضًا، فيما يتعلق بما وراء الطبيعة في العقيدة الدينية.

فكم من أناس لابد أن يكون هذا الجدل قد زعزع أسس عقيدتهم! وكم كان غريبًا لو أن هؤلاء الآلاف من الناس لم يلتمسوا، وهم في ضجرهم وحيرتهم، ملجأ من هذه المجادلات التي لا تنتهي عند حد ولا تعرف اللين والتسامح، في تلك الحقيقة البسيطة الواضحة، حقيقة الوحدانية الإسلامية؟!.»[٤].

١٢ ـ وشهادة المستشرق الإنجليزي «جورج سيل» Sale. G (١٦٩٧ ـ ١٧٣٦) ـ مترجم القرآن إلى الإنجليزية ـ التي يقول فيها:

(١) المصدر السابق. ص ٤٦٤، ٤٦٥.

(٢) المصدر السابق. ص٩٨.

(٣) المصدر السابق. ص١٢٨.

(٤) المصدر السابق. ص٨٩.

«لقد صادفت شريعة محمد ترحيبًا لا مثيل له في العالم، وإن الذين يتخيلون أنها انتشرت بحد السيف إنما ينخدعون انخداعًا عظيمًا..»(١).

١٣ ـ وشهادة بطريرك أنطاكية اليعقوبي «ميخائيل الأكبر» Michael the Eldern (١١٢٦ ـ ١١٩٩م) التي يقول فيها:

«إن إله الانتقام، الذي تفرد بالقوة والجبروت، والذي يديل دولة البشر كما يشاء، فيؤتيها من يشاء، ويرفع الوضيع، لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة، فنهبوا كنائسنا وأديارنا في كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة، أرسل إلينا أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم.

وفي الحق، إننا إذا كنا قد تحملنا شيئًا من الخسارة بسبب ضياع الكنائس الكاثوليكية منا، وإعطائها لأهل خلقيدونية، فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم، **ولما أسلمت المدن للعرب، خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها. ومع ذلك لم يكن كسبًا هينًا أن نتخلص من قسوة الروم، وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام..»**(٢).

١٤ـ وشهادة علماء الديموجرافيا الفرنسيون التي يقولون فيها:

«إن الأسلمة لم تكن قط شاملة، وأن تبني الإسلام قد ظل ضمن مجال الاختيار الحر وإن سلسلة من الطوائف غير المسلمة ظلت تواصل الحياة والحوار، بل وتزدهر في الشرق العربي ـ وأن السكان الذين تأسلموا إنما فعلوا ذلك بفضل الفرص على نحو أكثر بها لا يقاس مما بفضل الإكراه، كما كان هناك الزواج، وهو تعاقد سلمي بامتياز، فهو يؤدي إلى انتشار الإسلام الذي تنتمي إليه، بحكم الشريعة، ثمار زواج المسلم من كتابية.

كما أن من المميزات التي فتحت العقول والقلوب لاعتناق الإسلام هو «مجيئه في لغة مألوفة وتقديمه نفسه بوصفه امتدادًا للمسيحية واليهودية وتحقيقه المواطنة التامة لكل الذين دخلوا فيه..»(٢).

● وإذا كانت هذه الشهادات ـ لهؤلاء العلماء الأعلام ـ قد انطلقت من دراسة الواقع التاريخي لانتشار الإسلام، وتحول الشرق إلى قلب للعالم الإسلامي، بعد أن كان قلبًا للمسيحية؛ فإن

(١) المصدر السابق. ص٧٢، ٧٣.
(٢) (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي) ص١١، ٢٢، ٣٨، ٦٣.

لغة الأرقام تظل هي الأفصح في التعبير عن حقائق التاريخ. وهذه الأرقام التي حققها علماء الديموجرافيا الفرنسيون تقول: «إنه بعد قرن من الفتح الإسلامي، ودخول الشرق في الدولة الإسلامية، **كانت نسبة المسلمين في رعايا هذه الدولة ٢٠٪ من السكان**»!![١]

فأين هو الإكراه على اعتناق الإسلام الذي يتحدث عنه المرجفون بعد هذه الشهادات وهذه الأرقام؟!.

***

لقد فرض ملك روسيا «فلاديمير» سنة ٩٨٨ م المسيحية على كل رعاياه فور اعتناقه لها، وظلت الدين الوحيد للبلاد حتى سنة ١٩٠٥ عندما صدر مرسوم التسامح الديني.

وكذلك فعل ملك الفرنجة «شارلمان» (٧٤٢ ـ ٨١٤م) مع السكسونيين.

وفعل ذلك أيضًا الملك «كنوت» (٩٩٥ ـ ١٠٣٥م) في الدانمارك.

وفي «الفيكن» ـ جنوبي النرويج ـ ذبح الملك (أولاف تراجفيون» (٩٦٣ ـ ١٠٠٠م) جميع الذين أبوا الدخول في المسيحية!![٢].

فأين هذا من تاريخ الإسلام، الذي فتح الشرق، وظلل شعوبه بدولته ثم حرر ضمائرهم، مع تحرير أوطانهم، فتركهم وما يدينون حتى أن ٢٠٪ من السكان فقط هم الذين كانوا مسلمين من شعوب الشرق بعد قرن من الفتوحات؟!

● كذلك، لم تكن الجزية ـ التي هي بدل الجندية وليست بدلًا عن الإيمان بالإسلام ـ عامل ضغط للتحول إلى الإسلام؛ فشعوب الشرق ظلت عشرة قرون تدفع الجزية للإغريق والرومان، ولم تتحول إلى دين الإغريق والرومان لتعفى من دفع هذه الجزية.

والمصريون ـ في ظل القهر الروماني ـ قدموا ـ مع الجزية ـ أرواحهم دفاعًا عن دينهم، ولم يُؤْثروا الحياة ـ فضلًا عن الجزية ـ بديلًا لهذا الدين!

بل إن شعوب المشرق العربي ـ من المسلمين والمسيحيين ـ قد دفعت الجزية للصليبيين قرنين من الزمان (٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م) دون أن تفرط في عقيدتها أو هويتها الحضارية في سبيل الإعفاء من هذه الجزية!

(١) المصدر السابق. ص٢٥.
(٢) (الدعوة إلى الإسلام) ص٣٠ ـ ٣٢.

ولقد مارس التبشير الكاثوليكي الفرنسي وسائل الترغيب والترهيب في الجزائر قرنًا وثلث القرن ولم تزد الحصيلة عن ألف من حثالة البربر المنبوذين!.

فأين من ذلك كله ذلك الانتشار السلمي للإسلام على النحو الذي شهد به وعليه العلماء من غير المسلمين؟!

١٥ـ كذلك يشهد المؤرخ الإنجليزي «بتلر» ـ شهادة حديثة ـ على هذه الحقائق فيقول:

«إن بعض القبط أخذوا عند الفتح يختارون الإسلام، ويفضلون الدخول فيه على دفع الجزية. ولقد رأوا أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ويساويهم بالفاتحين في شرف محلهم، ويجعلهم إخوانهم في كل شيء، يسهم لهم في الفيء، ولا يفرض عليهم الجزاء. فكان في ذلك باعث قوي لكثير منهم على الدخول في الإسلام، لا سيما وقد طحن «قيرس»[١] عقيدتهم طحنًا، وحطم يقينهم باضطهاده. وكذلك دخل في الإسلام كثير من الروم، بعضهم جنود وبعضهم ممن حل في مصر منهم. وفي هؤلاء يقول «النقيوسي»: «قوم ارتدوا عن دينهم المسيحي، ودخلوا في دين البهائم»!.

وليس من العدل أن يقول قائل: إن كل من أسلم من القبط إنما كان يقصد الدنيا وزينتها. إنه مما لا شك فيه أن كثيرًا منهم أسلم لما كان يطمع فيه من مساواة بالمسلمين الفاتحين، حتى يكون له ما لهم، ولكن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقائدهم غير راسية. **أما الحقيقة المرة فهي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله، ونسيت ذلك في ثوراتها وحروبها التي كانت تنشب بين شيعها وأحزابها. ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجئوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه، واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته»** [٢].

● ولقد كانت مصر استثناء في سرعة انتشار الإسلام بها؛ لأنها لم تكن كاملة المسيحية عند الفتح الإسلامي، «**إذ كانت المسيحية دين نصف المصريين تقريبًا في سنة ٦٤١م**»[٣] **وهؤلاء المسيحيون**

(١) بطرك الروم.
(٢) (فتح العرب لمصر) ص٣٠٥، ٤٥٨.
(٣) (الوطن الأم) ص٦٠.

المصريون ـ الذين كان تعدادهم أقل من نصف السكان ـ لم يكونوا كلهم من الأرثوذكس، وإنما كان منهم «الآريسيون»ـ الموحدون ـ الذين دخلوا الإسلام فور دخول الجيش الإسلامي الفاتح إلى البلاد ـ لما وجدوا في الإسلام من تصديق لعقيدتهم الموحدة ـ ولما كان بينهم وبين الأرثوذكس والملكانيين من صراعات ـ.

كما كان من نصارى مصر النساطرة، الذين يذكر «لين بول» أن كبير أساقفتهم «أبو مريم» ـ الجاثليق ـ البطريق ـ قد انضم إلى جيش عمرو بن العاص»[٣].

أما باقي السكان، فكانوا على الوثنية المصرية القديمة، وهؤلاء قد اعتنقوا الإسلام حتى قبل تمام الفتح وسقوط الإسكندرية؛ لأنهم عاشوا مضطهدين من الملكانيين الرومان، ومن الأرثوذكس المصريين جميعًا فكان في الإسلام خلاصهم من الاضطهاد ومن الوثنية على حد سواء!.

نعم هذه شهادات العلماء ـ من المستشرقين، واللاهوتيين، والفلاسفة ـ، والمؤرخين، وعلماء الديموجرافيا من مختلف أقطار الحضارة الغربية ـ على أن انتشار الإسلام في الشرق إنما تم بجاذبيته الذاتية، ومنطقه العقلاني، وبساطة توحيده، وإشباعه للحاجات الفطرية الإنسانية، وتحقيقه الطمأنينة لهذا الإنسان في المعاش والمعاد، وعلى أن تراجع المسيحية في الشرق إنما كان بسبب ما أصاب لاهوتها من غموض وتعقيد خرج به عن المعقول، وما صاحب ذلك من فساد وجهالة وعجز في مؤسسات هذا اللاهوت يشهد عليها ـ مع الشهود الأجانب ـ مؤرخ قبطي وطني ـ هو يعقوب نخلة روفيلة ـ الذي يقول: «**لقد ظهر بين المسيحيين أنفسهم ما أدى إلى النفور والبغضاء والإيقاع ببعضهم البعض، وذلك أن بعض أئمة الدين داخلهم الطمع والاستقلال بالرئاسة، فكثر ظهور البدع والشيع بين النصارى، فانقسموا على ذاتهم، وانشقوا إلى فئات متعددة، كل فئة تلعن الأخرى وتحرمها وتزيف معتقدها ومذهبها:**

كـــل يـــؤيـــد ديـــنـــه　　　يا ليت شعري ما الصحيح؟!

وانتهى هذا الجدل والشقاق في مصر بوجود حزبين متضادين لبعضهما وهما القبط والروم مما أدى بهم، ولا سيما الأقباط؛ إلى

(١) (فتح العرب لمصر) ص٥٢٧.

الاضمحلال والدمار. ومن الغريب أن الأئمة الذين من واجبهم حث الناس على المؤاخاة والموالاة هم الذين كانوا يوغرون صدور الملوك ويحرضون الحكام على إيقاع الأذى والتنكيل بالفريق الآخر المخالف لرأيهم، كل هذا وزعماء الدين واقفون موقف المتفرج المتشفي، معتقدون أنهم خدموا الدين خدمة يمدحون أو يثابون عليها، وما دروا أنهم خلدوا لأنفسهم في التاريخ ذكرًا رديئًا مقرونًا بعار لا يمحوه مرور الأيام والدهور[١].

هكذا شهد أهل الذكر ـ من غير المسلمين ـ على أسباب انتشار الإسلام، وعلى أسباب تراجع المسيحية ـ في الشرق ـ عقب الفتوحات الإسلامية، التي بدأ بها التاريخ الجديد للشرق والشرقيين.

***

لكن ليس معنى براءة الإسلام من الإكراه الديني، وبراءة الفتوحات الإسلامية من الإكراه الديني، أن ندعي براءة التاريخ الإسلامي من المظالم والتوترات والسلبيات، التي كثيرًا ما جوبهت بالانتفاضات والتمردات والثورات.

فالمجتمع ـ أي مجتمع ـ وفي أية حضارة أو تاريخ ـ هو كالمعدة بالنسبة للإنسان، تعتريه عوامل الصحة وعوامل المرض، وأسباب الطمأنينة وأسباب القلق والتوترات.

ولقد شهد التاريخ الإسلامي عهود العدل وعهود الجور، كما شهد العهود التي اختلط فيها العدل بالجور، وبهذه الحقيقة التي هي سنة من سنن الاجتماع البشري، التي لا تبديل لها ولا تحويل، تنبأ رسول الإسلام ﷺ عندما قال: «لا يزال الجور بعدي إلا قليلًا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره. ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره» ـ رواه الإمام أحمد ـ.

لكن معايير إقامة العدل وممارسة الجور لم تكن ـ في تاريخنا ـ «دينية أو طائفية»، وإنما كانت ـ في الأساس ـ اجتماعية، فثورات مصر ـ مثلًا ـ كانت مصرية، ولم تكن وقفًا على المسيحيين أو خاصة

(١) (تاريخ الأمة القبطية) ص٢٧، ٢٩.

بالمسلمين، ويشهد على ذلك المؤرخون، فيقولون: «**ولم يثر الأقباط إلا إذا ثار مواطنوهم المسلمون، وسرعان ما كانوا يخضعون إذا ما ترك المسلمون القتال**. ولقد قامت ثورات هامة بين سنة ١٢١هـ سنة ٧٣٩م وسنة ١٥٦هـ سنة ٧٧٣م، ولكن نشبت أكبر ثورة سنة ٢١٦ هـ سنة ٨٣١ م أيام خلافة المأمون وقد لوحظ انضمام عدد كبير من المسلمين إلى النصارى في ثورتهم وكتب المقريزي ـ في هذا الصدد ـ: «لما كان في جمادى الأولى سنة ٢١٦هـ **انتفض أسفل الأرض بأسره، عرب البلاد وقبطها**، وأخرجوا العمال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيها، فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب»[(١)].

أما البشموريون ـ الذين قمع المأمون ثورتهم سنة ٢١٦هـ ـ والذين صوّر المرجفون ثورتهم بالثورة المسيحية ضد الحكم الإسلامي، وكتبوا في ذلك الروايات[(٢)]، فإنها تمرد عنصري لجماعة من بقايا الرومان، سكنوا أرض المستنقعات ـ بين الإسكندرية ورشيد ـ، ويقول عنهم سعيد بن بطريق: «**إنهم سلالة أربعين يونانيًا بقوا في مصر بعد انتصار العرب ـ (على الرومان) ـ ثم نما عددهم بالتزاوج**» ويصفهم المقريزي بأنهم «كانوا أكثر توحشًا وتعنتًا من سائر سكان مصر، وأن تمردهم قد استمر بعد فتح الإسكندرية على يد عمرو بن العاص. ولقد قتلوا في تمردهم كل السكان المسلمين في رشيد، ولم يكن تمردهم تمردًا مسيحيًّا ضد الحكم الإسلامي، بدليل عصيانهم لنصائح البطريرك القبطي «يوساب». بل لقد انقضوا على الأساقفة الذين حملوا إليهم رسائل البطريرك وجردوهم من ملابسهم وأمتعتهم وطردوهم بعد أن أوسعوهم سبًّا وشتمًا[(٣)].

فلم يكن هذا التمرد ثورة مسيحية. وإنما كان تمردًا يونانيًّا عنصريًّا تبرأت منه الكنيسة المصرية وبطركها «يوساب» وبعبارة المؤرخ المسيحي د. جاك تاجر: «**فلا يجوز اعتبار ثورة البشموريين استثناء من اشتراك الأقباط مع المسلمين في الثورات؛ لأن هؤلاء البشموريين من أصل يوناني**»[(٤)].

● أما الهبات والتمردات التي اتخذت طابعًا طائفيًّا، والتي ثار فيها العامة على الأقباط، فلقد كانت في حقيقتها هبات وتمردات

(١) (خطط المقريزي) جـ١ ص٧٩ ـ ٨٩.
(٢) انظر: سلوى بكر: (البشموري) جـ١، ٢. طبعة المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة سنة ٢٠٠٢
(٣) (أقباط مسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م) ص٩٨ ـ ١٠٢ـ وهو ينقل عن ساويرس بن المقفع ص ٢٧٦، ٢٧٧.
(٤) المرجع السابق، ص٣١٥.

اجتماعية، ضد نظام الولاة الذين اتخذوا من الأقليات أدوات للجباية والظلم والإفقار لجماهير المسلمين.

لقد كانت الإدارة احتكارًا بيد نخبة من الأقباط، حتى لقد قال المستشرق الألماني الحجة «آدم متز»: «**لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام**»[١]. وكانت هذه النخبة القبطية تستنزف ـ بالجباية والمظالم ـ جماهير الناس ـ وأغلبيتهم الساحقة مسلمون ـ، وتحابي أبناء دينها، بل وتستفز مشاعر المسلمين، الأمر الذي فجر عدة تمردات طالت أغلب المسيحيين. وبشهادة الكاتب المسيحي «جورج قرم»: «**فإنه كثيرًا ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامي، حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح، سببًا في نشوب قلاقل طائفية، فعلاوة على غلو الموظفين الذميين في الابتزاز، وفي مراعاتهم وتحيزهم لأبناء دينهم إلى حد الصفاقة؛ كثيرًا ما كانت تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة**»[٢].

ولقد كان الولاة يواجهون هذه التمردات الاجتماعية ـ التي اتخذت طابعًا طائفيًّا ـ بما يحقق مقاصد الولاة فكانوا:

١ـ يبطشون بالعامة، معلقين الكثيرين منهم على أعواد المشانق لإرهابهم.

٢ـ ويصادرون ـ في ذات الوقت ـ الثروات الفاحشة التي جمعها أبناء هذه الأقليات، وذلك لتهدئة خواطر العامة وتسكين مشاعر الجماهير!.

ولقد وصف المقريزي ـ وهو عمدة المؤرخين الاجتماعيين ـ تجبر الأقلية القابضة على زمام الإدارة والجباية، وكراهية الجماهير لها بقوله: «**إن الناس قد أبغضوا كُتّاب النصارى، واتهموا الأمراء بمحاباتهم، وطلبوا من السلطان أن يعزلهم من الديوان، وذلك لكثرة فساد النصارى، وزيادة طغيانهم، وليكون ما وقع ـ (من التمرد) ـ نقمة وعذابًا لهم**»!.

بل ويتحدث عن زيادة جبروت من تظاهر بالإسلام من أبناء هذه الأقلية، فيقول: «**ولقد زاد تسلطهم بعد إسلامهم، وأظهروا من التجبر ما كانت تمنعهم نصرانيتهم من إظهاره، فكتب أحد الشعراء إلى الأمير بيدر النائب يقول:**

(١) (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) جـ ١، ص١٠٥.

(٢) جورج قرم (تعددية الأديان ونظم الحكم. دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة) ص٢٢٤، طبعة بيروت.

أسلم الكافرون بالسيف قهرًا وإذا ما خلوا فهم مجرمونا
سلموا من رواح مال وروح فهم سالمون لا مسلمونا![١]

وفي ظل حكم الدولة الفاطمية (٢٩٧ ـ ٥٦٧هـ ٩٠٩ ـ ١١٧١م) ـ الشيعية الإسماعيلية ـ الباطنية ـ التي حكمت أمة على مذهب أهل السنة والجماعة ـ استندت هذه الدولة إلى الأقليات النصرانية واليهودية ـ فشهد حكمها أعلى نسبة من الوزراء اليهود والنصارى في تاريخ الدولة الإسلامية، وأعلى نسبة من التجبر والثراء لهذه الأقليات، حتى أصبح ذلك موضوعًا للشكوى، والتهكم من الشعراء؛ فسجل الشاعر المصري الحسن بن بشر الدمشقي تذمر الأمة وسخريتها من «الثالوث الحاكم»: الوزير يعقوب بن كلس (٣١٨ ـ ٣٨٠هـ ٩٣٠ ـ ٩٩٠م) والقائد الفضل (٤٠٠هـ ١٠١٠م) والخليفة الفاطمي العزيز (٣٤٤ ـ ٣٨٦هـ ٩٥٥ ـ ٩٩٦م) فقال:

تنصَّر فالتنصّر دين حق عليه زماننا هذا يدل فهم
وقل بثلاثة عزوا وجلوا وعطِّل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب، وهذا العزيز ابن، وروح القدس فضل![٢]

وقال الشاعر ابن الخلال:

إذا حكم النصارى في الفروج وغالوا في البغال والسروج
وذلت دولة الإسلام طرًّا وصار الأمر في أيدي العلوج
فقل للأعور الدجال هذا زمانك إن عزمت على الخروج[٣]

أما عن استبداد اليهود بالمال والإدارة والوزارة ـ في العهد الفاطمي ـ فقد قال الشاعر المصري الحسن بن خاقان ـ معرِّضًا ومتهكما:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إني نصحت لكم تهوَّدوا فقد تهوّد الفَلَك![٤]

هكذا خلا تاريخنا الإسلامي من المظالم الدينية والطائفية، وإن لم يخل من المظالم الاجتماعية، وهكذا كانت التمردات والانتفاضات التي اتخذت مظهرًا طائفيًّا هي في حقيقتها تمردات وانتفاضات

(١) (خطط المقريزي) جـ٣ ص٥٧٠، ٥٤٥ـ٥٤٧.
(٢) المقريزي (اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا) جـ ١ ص ٢٩٨. تحقيق: د. محمد حلمي محمد. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦.
(٣) (خطط المقريزي) جـ٢ ص١٢٣.
(٤) (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) جـ١ ص١١٧، ١١٨. (وفي عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ ـ ٩٧٥ـ ٩٩٦م) استوزر المسيحي عيسى بن نسطورس، واليهودي منشا إبراهيم القزاز «فاعتز بهما النصارى واليهود، وآذوا المسلمين، فعمد أهل مصر وكتبوا «قصة.. منشورًا» جعلوها في يد تمثال من ورق، ووضعوها في طريق العزيز، فتناولها فوجد مكتوبًا فيها: «بالذي أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل بك المسلمين، إلا كشفت ظلامي»؟! (المقريزي (اتعاظ الحنفا) ص٢٩٧. وابن كثير (البداية والنهاية) جـ١ ص٣٢٠.

اجتماعية ضد مظالم سلطات الإدارة والجباية، التي رضيت أن تكون سوط عذاب يلهب ظهور جماهير المحكومين، لحساب الظلمة من الولاة والحكام.

***

وبعد

فتلك هي وقائع الفتح الإسلامي لمصر ـ نموذجًا للفتوحات الإسلامية التي حررت الشرق من القهر الروماني الذي دام عشرة قرون، والتي حررت الضمائر مع الأوطان، والتي مثلت فتحًا فريدًا في تاريخ الفتوحات، فلم تدخل بها البلاد في الدين الجديد فقط، وإنما دخلت في الهوية الحضارية العربية الإسلامية، بمكوناتها اللغوية والثقافية، ونظرتها للكون، وفلسفتها في التقدم، ومذهبها في التعامل مع الذات ومع الآخرين.

لقد استعصت مصر ـ رغم كثرة الغزوات والفتوحات التي شهدتها قبل الإسلام ـ على الاندماج في هوية الغزاة والفاتحين، وظل تميزها في الهوية الحضارية سلاحًا تقاوم به مذاهب الغزاة والفاتحين، لكن الفتح الإسلامي ـ بسبب أنه فتح تحرير ـ قد احتضن تراث مصر وشخصيتها، فأحيى مواريثها الحضارية الوطنية، حتى أن عاصمة الفاتحين ـ الفسطاط ـ كانت امتدادًا للعاصمة الوطنية المصرية ـ «منف» التي خصها المصريون بالولاء عبر التاريخ، وسرعان ما تحولت ـ الفسطاط ـ إلى عاصمة لكل المصريين، ولم تكن عاصمة للفاتحين، خاصة بهم، كما كانت «أواريس» بالنسبة للهكسوس و«الإسكندرية» بالنسبة للإغريق والرومان والبيزنطيين، ثم كان الإحياء الإسلامي لمصر، التي ما إن خرجت من دور النقاهة ـ بعد قهر القرون العشرة ـ حتى نهضت بدورها الرائد في إحياء الحضارة الإسلامية والعلوم الإسلامية، وفي حراسة وطن الإسلام من غزو الغزاة، كما غدت قاعدة لنشر الإسلام ونموذجًا للتعايش بين أصحاب الديانات.

لقد غدت مصر الإسلامية ـ في أغلب عصورها الإسلامية ـ عاصمة خلافة ومركز سلطنة ولم تقنع بمكان الولاية في دار

الإسلام، وصدقت ـ بذلك ـ النبوءة العبقرية للبطل الفاتح عمرو بن العاص، الذي كان ينظر لمستقبلها بنور الله، عندما وصفها فقال: «**إن مصر ولاية جامعة، تعدل خلافة**»!

نعم، كان الفتح الإسلامي لمصر فتحًا في الهوية الحضارية العربية الإسلامية، غدت به مصر الحارس الأول لهذه الهوية الحضارية في مواجهة أشرس التحديات ـ الصليبية، والترية والإمبريالية والصهيونية ـ وبه دخلت طورًا جديدًا وفارقًا في تاريخها الطويل والعريق وبعبارة أحد أساتذة التاريخ:

«فلقد استغرقت عهود السيطرة الهندية الأوروبية في مصر أكثر من ١١٠٠ سنة ـ قبل الفتح العربي الإسلامي بدأت بغزوة الفرس سنة ٥٢٥ ق.م فاليونان بقيادة الإسكندر سنة ٣٣٣ق.م فالبطالمة من بعده، فغزوة الرومان سنة ٣٠ ق.م فالبيزنطيين في سنة ٢٨٤م فالفرس في سنة ٦١٦م.

وكل هؤلاء ينتمون إلى الشعوب الهندية الأوروبية، وعلى الرغم من تلك الفترة الطويلة التي سيطروا فيها، والمحاولات الكثيرة التي قاموا بها لفرض ثقافتهم الخاصة، ولا سيما اليونانية، على أهل مصر، لم يجدوا صدى عميقًا في نفوس المصريين.

ولقد خرج العرب إلى مصر، كما خرجوا إلى العالم، يحملون رسالة الإسلام التي لا تفرق بين الناس، إلا على أساس الإيمان والتقوى، وفي سبيل تبليغ الرسالة، اضطر العرب إلى محاربة حكومات الطغاة التي سيطرت على البلدان المجاورة لهم، وما إن عرفت شعوب تلك البلدان حقيقة هذه الرسالة حتى وجدوا فيها مخرجًا مما كانوا فيه من شدة، وملاذًا مما فرض عليهم من طغيان، فرحبوا بالرسالة الجديدة.

ولقد بادرت جموع ضخمة من المصريين إلى اعتناق الإسلام قبل أن يتم الفتح، وعبروا عن ترحيبهم بالحكم الجديد وبسياسة عمرو بن العاص، ولم يكد ينقضي القرن الثالث الهجري حتى كان الكثرة من أهل مصر قد أسلموا»[1].

(١) د. عبد المجيد عابدين (لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربي وبعده) ص٣٢، ٤٢، ٤٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م.

لقد استعصت مصر على قبول الهوية الحضارية للفاتحين الذين فتحوها «فتح تدمير» رغم استمرار قهر هذا اللون من الفتوحات أكثر من عشرة قرون، لكنها فتحت قبلها وعقلها للهوية الحضارية العربية الإسلامية بعد سنوات معدودة من هذا الفتح التحريري الذي استظلت به تحت رايات الإسلام، لقد دخلت به في دين الله ووجدت في توحيده البعث الجديد للتوحيد الذي عرفته على يد نبي الله إدريس ـ عليه السلام ـ الذي جاءها بهذا التوحيد في عهد أبي البشرية آدم عليه السلام.

وهكذا كانت الفتوحات الإسلامية فتحًا جديدًا في معنى الفتوحات التي عرفها التاريخ.

الجمعة ٨ رجب ١٤٣٧هـ.
١٥ أبريل ٢٠١٦م

الفصل السادس

إسقاط الكسروية الفارسية

معركة القادسية (١٥هـ/٦٣٦م)

قبل ظهور الإسلام كان الخطر والتحدي يحيط بالعرب من كل الجهات، ويتقدم شيئًا فشيئًا ليهدد حريتهم واستقلالهم، بل ووجودهم بالزوال!.

ففي الشرق: كانت الإمبراطورية الفارسية تسيطر على العراق والخليج، وفي بعض الفترات امتدت سيطرتها إلى اليمن في الجنوب.

وفي الغرب والشمال: كان الروم البيزنطيون يفرضون سيطرتهم على عرب الشام.

وفي الجنوب: احتلت الحبشة ـ لفترات طويلة ـ جنوب شبه الجزيرة العربية: (اليمن).

ولم يبق حرًّا ومستقلًّا من بلاد العرب سوى وسط شبه الجزيرة، الذي كان وعرًا وفقيرًا وصحراويًّا، تسكنه قبائل شديدة المراس في الحرب، عاشقة للحرية، رافضة لأية قيود تفرضها أي حكومة من الحكومات، خصوصًا إذا كانت هذه الحكومة غير غربية، ومع ذلك؛ فلقد حاولت الحبشة في ٥٧١ م ـ عام الفيل ـ أن تغزو وسط شبه الجزيرة، وتحتل مكة، ولولا هزيمتها يومئذ لسيطر الأعداء على بلاد العرب كلها.

لكن هذا الخطر وذلك التحدي قد نبه في الأمة العربية عوامل اليقظة وروح المقاومة ونمَّى بين أبنائها صلات التضامن وروابط الاتحاد، وفي فترة وجيزة شهدت بلاد العرب هذه الأحداث:

ـ هزيمة جيش أبرهة الحبشي وغزوة الفيل ٥٧١ م وهو نفس العام الذي ولد فيه الرسول محمد ﷺ.

ـ وتحرير اليمن من الاحتلال الحبشي بقيادة البطل العربي سيف بن ذي يزن (٥١٦ ـ ٥٧٤ م).

ـ وقيام روابط التضامن بين حكومة مكة، بزعامة عبد المطلب بن هاشم (٥٠٠ ـ ٥٧٩ م) وبين حكومة اليمن.

ـ ونمو الروابط والعلاقات السلمية بين قبائل العرب في وسط شبه الجزيرة، وخاصة بعد الاتفاق على وقف الحروب والمنازعات

والغارات أربعة أشهر من كل عام، هي الأشهر الحرم: رجب ، وذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم. وفي هذه الأشهر كانت تقام المعارض والأسواق، ويتم الحج إلى الكعبة، وتعقد المسابقات بين الشعراء والحكماء في الأسواق الشهيرة: عكاظ، ومجنة، وذي المجاز. الأمر الذي ساعد على تبلور الشخصية العربية الموحدة، وزاد من روابط التضامن والتقارب والاتحاد.

ـ وكان أول انتصار للعرب على الفرس في يوم ذي قار ٦١٠ م وهو نفس العام الذي ظهر فيه الإسلام!! ويومها استبشر الرسول خيرًا وتنبأ بأن هذا النصر سيكون فاتحة انتصارات أكبر، تحرر العرب من الفرس، وتنتقم لتاريخ طويل سيطر فيه الفرس على عرب الشرق والجنوب.

ـ ثم كانت الدولة العربية الإسلامية التي أقامها المسلمون بالمدينة ـ بعد الهجرة ـ هي سلاح العرب الأول الذي استطاعوا به مواجهة الخطر والتحدي، بل ومطاردة مصادر هذا الخطر وذلك التحدي، ومن ثم: فتح صفحة جديدة في تاريخ الشرق، أصبحت القيادة فيها للعرب، وليس للفرس أو الروم!.

فلقد توحدت القبائل العربية خلف قيادة هذه الدولة، وبعد أن تأكدت هذه الوحدة على عهد أبي بكر الصديق (١١ـ١٣هـ/ ٦٣٢ ـ ٦٣٤ م) أصبح في استطاعة الدولة العربية الإسلامية أن تتطلع إلى تحرير الأرض العربية الواقعة تحت سيطرة كل من الفرس والروم منذ قرون: العراق العربي في المشرق، والشام العربي في الغرب والشمال. ولقد نهضت الدولة بهذه المهمة التحريرية على عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (١٣ـ٢٣هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م).

ـ فمنذ أواخر عهد أبي بكر كانت المناوشات والمعارك قائمة بين العرب وبين الفرس والروم، ولقد استطاع الجيش العربي أن يحرز عددًا من الانتصارات في عدد من المواقع بجنوبي العراق ـ في الحيرة، والبويب ـ بقيادة البطل العربي المسلم المثنى بن حارثة الشيباني (١٤هـ/ ٦٣٥م) وأن يحرز كذلك عددًا من الانتصارات في فلسطين، أهمها الانتصار في أجنادين.

ـ لكن عهد عمر بن الخطاب هو الذي شهد الانتصارات الحاسمة، التي حررت العرب من الفرس والروم، وثأرت لتاريخ طويل أذلوا فيه العرب قبل ظهور الإسلام. وجددت شباب المنطقة،

سياسيًّا وحضاريًّا، بفكر الإسلام ففي الوقت الذي فتح فيه انتصار العرب على الروم في موقعة اليرموك (١٥ ـ ٦٣٦م) الباب لزحف عربي شامل حرر كل الشام، كان العراق ينتظر هو الآخر معركته الحاسمة التي تقرر: لمن الغلبة؟ للفرس؟ أم للعرب المسلمين؟!.

فعرش فارس كان قد تولاه ملك جديد، هو يزدجرد بن شهريار (٦٣٢ ـ ٦٤٢م) وكان يدرك خطر اليقظة العربية القادمة لانتزاع العراق من الفارسيين، فجمع كلمة الفرس على الاستعداد لإخماد هذه اليقظة قبل أن تحقق انتصارها الحاسم، ومن ثم بدأت حشود الفرس العسكرية تضغط على الجيش العربي الذي يقوده المثنى بن حارثة الشيباني؛ فأرسل المثنى إلى عمر بن الخطاب يخبره أن كفة الفرس قد رجحت، ويطلب الإمـدادات. وأضيف إلى الموقف عامل جديد، وهو مرض المثنى بن حارثة، مرضًا بدا أنه مرض الموت! وأدرك عمر بن الخطاب خطر المواجهة المنتظرة، والوشيكة، وأيقن أنها حاسمة في تاريخ طويل لصراع طويل! فعزم على أن يخرج بنفسه لقيادة المعركة التي وضح أن مكانها سيكون (القادسية) ـ (غربي النجف، وعلى بعد ثمانية عشر ميلًا ونصف ميل من مكان الكوفة) ـ فهي معركة حاسمة، يزيد من أهميتها أنها ستدور في مكان حاسم، فإما أن يفتح نصر العرب فيها الباب لتحرير العراق، ومطاردة أركان النظام الفارسي الإقطاعي، وإما أن تفتح هزيمتهم فيها الباب لاسترداد الفرس السيطرة على جنوبي العراق ومنطقة الخليج. **فالقادسيةـ كما قال الخليفة عمر: «باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب، وهي منزل رغيب خصيب حصين، دونه قناطر وأنهار ممتنعة»!.**

ـ وبالفعل خرج الخليفة إلى موضع يسمى «صرار»، على بعد أميال من المدينة، في الطريق إلى العراق، فأقام معسكرًا، وشرع يجري الاستعداد لتأليف جيش القادسية، ولكن الصحابة أشاروا عليه بمخاطر قيادته المباشرة للجيش في ميدان القتال، وطلبوا إليه البقاء في العاصمة، وأن يقود المعركة أحد الصحابة من أبطال الغزوات والفتوحات المشهورين، ورشحوا سعد بن أبي وقاص (٢٣ ق.هـ ـ ٥٥ هـ/ ٦٠٣ ـ ٦٧٥م) فهو أسد من أسود الحرب وعلم من أعلام الفتوحات.

***

ولقد نهض عمر ـ ومعه ولاة الأقاليم، وقادة الحاميات، ورؤساء القبائل ـ بتوجيه كل الطاقات لتجهيز الجيش. فالفرس قد جمعوا جموعهم، حتى بلغ تعداد جيشهم هناك مائة وعشرين ألف مقاتل، إذا أضيف إليهم أتباعهم وخدمهم ومعاونوهم بلغوا مائتي ألف! وهم قد حشدوا في هذا الجيش ملوكهم وحكام أقاليمهم وأبرز الأساورة وأمهر المقاتلين، واستعانوا في هذا الجيش بثلاثة وثلاثين فيلاً؛ كي تفسد على الخيول العربية يقظتها وصمودها عندما يشتد القتال! وجعلوا قيادة هذا الجيش الجرار لأبرز قوادهم: رستم بن الفرخزاذ، قائد الجيش الإمبراطوري، ورفعوا رايتهم الشهيرة (درفش كابيان)، وكانت من جلد النمر، مرصعة بالجواهر، يستبشر بها الفرس ولا يرفعونها إلا في الأمر الشديد، ومن خلف هذا الجيش قامت المدن تقيم الحصون، وتؤلف الجيوش، وتجمع الإمدادات.

وأمام هذا التحدي اتخذ عمر بن الخطاب قراره، فقال: «والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب»! فهي إذن مواجهة بين أمتين وحضارتين! وكلٌّ يستجمع لها أقصى ما لديه من إمكانيات. وبعث عمر إلى مختلف أقاليم الدولة وولاتها أن «ينتخبوا ويختاروا جيش القادسية من خيار العرب». فكل قبيلة تقدم أبرز رؤسائها وأمهر مقاتليها وفرسانها وخير خيولها وأمضى سيوفها، وكذلك تصنع القرى والمدن في مختلف الأنحاء، بل لقد احتشد في هذا الجيش ـ أيضًا ـ أصحاب الرأي، والشرف، والسلطة، والخطباء، والشعراء، والحكماء!.

وضم عمر إليه أكثر من سبعين مقاتلًا من الذين شهدوا غزوة بدر! وأكثر من ثلاثمائة من صحابة الرسول! وسبعمائة من أبنائهم، وثلاثمائة من الأبطال الذين شهدوا مع الرسول فتح مكة! حتى لقد أصبح هذا الجيش خلاصة الأمة العربية المسلمة، وكتب الذين شهدوا جنوده عن المزايا التي تحلوا بها، فقالوا إنهم لم يروا فيه من يتصف بصفة من ثلاث: الجبن، أو الغدر، أو الغلول ـ (اختلاس الغنائم والأموال)!.

ولقد استغرقت عملية الحشد والانتخاب والاستعداد هذه ثلاثة أشهر، عسكر أثناءها سعد بن أبي وقاص في (الثعلبية) على طريق مكة، وعندما اكتمل له الاستعداد أوصاه الخليفة **بأن يتبع**

سنة الرسول في المساواة بين الناس، والوفاء بالأمان لمن طلبه من العجم، وحذرهم من الغدر وعدم الوفاء بعهود الأمان.

وزحف الجيش بقيادة سعد بن أبي وقاص إلى العراق.

***

وعندما اقترب الجيش العربي من مواقع الفرس كان المرض قد اشتد على المثنى بن حارثة الشيباني، وقبل أن ينقلوه إلى منازل أهله حرص على أن يكتب إلى سعد بن أبي وقاص بخبرته في قتال الفرس، ويقدم له مشورته حول المعركة المنتظرة، ورشح له المكان الواقع بين القادسية ونهر العذيب معسكرًا لجند المسلمين، وانضم جيش المثنى إلى جيش سعد، وأصبح في هذا الجيش كثيرون من الأبطال الذين شهدوا أيام العرب ومواقعهم ضد الفرس، حتى قبل ظهور الإسلام! وانضم إليه ـ كذلك ـ عديد من فقراء الفرس، دون أن يدخلوا في الإسلام، وقبائل عربية كثيرة كانت ديانتها المسيحية، فأصبح الجيش المسلم جيشًا للعرب بأديانهم المتعددة، بل وجيشًا لكل الثائرين على ظلم الفرس واستبدادهم وإقطاعهم ونظامهم الطبقي القاسي والرهيب.!

وفي مواجهة المائتي ألف فارس؛ عسكر عند القادسية أكثر قليلًا من ثلاثين ألفًا، تمثلت فيهم خلاصة العرب يومئذ، يقودهم سعد بن أبي وقاص!.

***

لكن الخليفة الذي كان يود أن يقود المعركة بنفسه لم يكتف بما بذل في الإعداد لها من جهود، فلقد خطط أن يشارك في القيادة يومًا بيوم، وعلى نحو يكاد أن يكون مباشرًا، رغم وجوده في المدينة! فكان يخصص وقته في الصباح حتى منتصف النهار لجمع الأخبار عن جيش القادسية، وتحليلها ودراستها مع الصحابة والمشيرين، وكان يتوق إلى الإسهام بالرأي في تفاصيل الإعداد للقاء الفرس وقتالهم مع قائد الجيش سعد بن أبي وقاص، لكن طبيعة ميدان المعركة وتضاريس أرض القتال ومواقع العدو وأنواع الأسلحة لم تكن معلوماتها متوفرة لديه، فكتب إلى سعد بن أبي وقاص يطلب منه أن يكتب له بكل ما لديه من التفاصيل، حتى يضع أمامه صورة خريطة للميدان ومن فيه وما فيه، كي يتيسر له الإسهام بالرأي والتوجيه! وجاء في رسالة عمر إلى سعد: «.. **إنه قد منعني**

من بعض ما أردت الكتابة به إليك: قلة علمي بما هجمتهم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم. فاكتب إليّ: أين بلغك جمعهم؟ ومن رأسهم ـ (قائدهم) ـ الذي يلي مصادمتكم؟ وصِف لنا منازل (مواقع) المسلمين والبلد الذي بينكم وبين (المدائن) صفه كأني أنظر إليها! واجعلني من أمرك على جلية (بينة)!..».. فكتب سعد إلى الخليفة بكل التفاصيل، وصف له المدن، والخنادق، والطرق، والجبال، والأنهار، والقادة، والناس والسلاح... الخ. الخ وكانت المراسلات تتم يوميًّا بين الخليفة وسعد حتى لنستطيع أن نقول: إن عمر بن الخطاب قد أقام بالمدينة «غرفة عمليات»، ووضع أمامه فيها خريطة لأرض معركة القادسية، وجعل يضيف إلى هذه الخريطة يومًا بيوم كل ما يحدث على مواقعها من تغيرات، وبذلك استطاع أن يسهم إسهامًا حقيقيًّا في قيادة القتال وهو على مسافة شاسعة من ميدان هذا القتال!.

فهو يكتب إلى سعد لينظم المقاتلين: عشرة، عشرة. ولكل عشرة قائد وأن يعين الأمراء على: المقدمات، والميامن، والمياسر، والمجنبات، والساقات ـ (المؤخرة) ـ والطلائع، والمشاة، والفرسان.. الخ الخ. ويحدد له ترتيب المقاتلين: فالأمير، يليه أمراء الجماعات (المقدمات، والميامن، والمياسر.. الخ) يليهم أمراء العشرة، يليهم أصحاب الرايات، يليهم رؤساء القبائل.. الخ الخ.

وعندما تأتيه أنباء القتال بأسماء الذين أبلوا فيه بلاءً حسنًا، يرسل الجوائز: خيلًا وسيوفًا إلى الفرسان المبرزين! فيشعر المقاتلون أن أمير المؤمنين معهم في الميدان!.

ولم يكن الخليفة وحده هو الذي يعيش بكيانه وطاقاته تلك المواجهة الحاسمة بين العرب والفرس في القادسية، بل كانت معه في ذلك الأمة كلها، حتى ليحكى المؤرخون أن الناس قد علقوا ثبات الدولة وزوالها على نتائج تلك المعركة، وأصبحت في كل بلد جماعة تخصصت في جمع أخبار القادسية وإبلاغها إلى عامة الناس!. بل لقد علق الناس الكثير من أمور حياتهم عليها «حتى إن الرجل يريد الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتى أعرف ما يكون من أمر القادسية»! كما يقول المؤرخون.

كانت معركة مصيرية، حشدت لها الأمة خير ما عندها وتعلقت بنتائجها الآمال والأفكار والمصائر والمشاعر والقلوب!.

وقبل أن يبدأ الصراع بأدوات القتال بدأ بأدوات الفكر، فلقد كانت للإسلام تقاليد مرعية: أن يبدأ المسلمون بدعوة عدوهم إلى الإسلام أو المسالمة.. أولًا: فإن أبى فالقتال، وطلب الخليفة من سعد بن أبي وقاص رعاية هذه السنة، فبعث وفدًا إلى ملك الفرس يزدجرد، فلما دعوه إلى الإسلام غضب، وأمرهم بالانصراف؛ قائلًا: لولا أنكم رسل لقتلتكم! لكن رستم ـ قائد جيش الفرس ـ أرسل إلى سعد يطلب منه أن يبعث إليه من يحاوره، فذهب المغيرة بن شعبة إلى حيث يجلس رستم في خيمته على سريره الذهبي، وتقدم ليجلس إلى جواره على السرير، فاستنكر الفرس ذلك؛ لمنافاته لنظامهم الطبقي الذي يجعل لكل طبقة مكانًا محددًا لا تتعداه! ومنعوا المغيرة من الجلوس على السرير، فحدثهم حديثًا جذب إلى العرب قلوب الطبقات الفارسية الفقيرة، وأغضب الأثرياء والإقطاعيين والمستغلين.

قال لهم: «**إنا ـ معشر العرب ـ سواء (متساوون) لا يستعبد بعضنا بعضًا، ولقد ظننت أنكم تتساوون مع قومكم، كما نتساوى. ولقد كان الأحسن ـ بدلًا من أن تمنعوني الجلوس على سرير قائدكم؛ أن تخبروني أن بعضكم أرباب لبعض؟!. إن هذا الأمر لا يستقيم، ونحن لا نصنعه، ولقد تيقنت الآن أن أمركم مضمحل، فليس يقوم ملك على هذه السيرة، ولا على هذه العقول...**»؟! ولما سمع الفرس قول المغيرة قال فقراؤهم: «صدق هذ العربي»! أما الأغنياء فتوجسوا خيفة من هذه البذرة الثورية التي بذرها في أرضهم، وقالوا: «والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه! قاتل الله أسلافنا، ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون من أمر هذه الأمة العربية»!.

ثم تحدث رستم إلى المغيرة بمنطق ملوك الفرس مع عرب العراق قديمًا قبل ظهور الإسلام، فحدثه عن أن الفقر والحاجة هي سبب خروج العرب للقتال، وأن باستطاعتهم أن يأخذوا لأنفسهم ولدوابهم أعلافًا ويعودوا إلى وسط شبه الجزيرة تاركين العراق في أيدي الفارسيين، لكن المغيرة حدثه عن الإسلام، وما أحدثه في العرب من انقلاب، وأسمعه كلمات القائد سعد بن أبي وقاص: «**إن الله تعالى أحيانا بالإسلام، وأحيى به قلوبًا كانت ميتة، وأمات به قلوبًا كانت حية**»! ودعاه إلى أن يكون مع الأحياء فأبى، وتوعد المغيرة والعرب بالإبادة عندما يرتفع ضحى الغد، وأقسم

على ذلك بالشمس والقمر، فانصرف المغيرة وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله!.

ولقد تكرر الحوار بين الأمتين والحضارتين مرة أخرى، عندما خرج رستم يتفقد جنوده، وأرسل إلى واحد من سادات العرب وأشرافهم في الجاهلية، هو زهرة بن عبد الله بن الجوية التميمي ـ وكان قد لقي الرسول وأسلم وجاء اليوم ليقاتل الفرس تحت قيادة سعد بن أبي وقاص ـ أرسل إليه رستم ليحاوره، فلقيه ودار بينهما حوار تأكد للفرس من خلاله أن أخطر ما يهدد نظامهم ليس التوحيد الديني الذي جاء به الإسلام، ولكن: المساواة بين الناس! بدأ رستم الحوار:

ـ أنتم جيراننا، وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا وكان لهم في ذلك معاش!.

ـ صدقت، لكن أمرنا اليوم ليس كأمر أسلافنا، لقد بعث الله إلينا رسولًا فدعانا فأجبناه. وقال لنبيه: إني قد سلطت هذه الأمة على من لم يؤمن بديني.

ـ وما هو هذا الدين؟

ـ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله.

ـ حسن!. وأي شيء أيضًا؟

ـ والناس بنو آدم وحواء سواء إخوة لأب وأم!

ـ أما هذه فإن أهل فارس منذ أن تولى عليهم الملك أردشير وحتى اليوم لا يتركون أحدًا من طبقة السفلة يخرج من نطاق طبقته، وذلك حتى لا يعادوا الأشراف!.

ـ لكننا لا نستطيع أن نكون كما تقولون!.

وهنا دعا رستم رجالات فارس، فعرض عليهم الفكر الاجتماعي الذي يبشر به الإسلام في المساواة بين الناس، فهاجوا وماجوا وصمموا على القتال!.

وكما عبأ رستم أشراف الفرس وأغنياءهم عندما خوفهم من فكر الإسلام الاجتماعي. أخذ سعد بن أبي وقاص في تعبئة جنده، بتذكيرهم بتاريخ قومهم مع الفرس فيما قبل الإسلام، وبما لهم من ثأر وبما للعرب من تقاليد في الشجاعة والفداء لا يرقى عليها

الفرس مهما حشدوا وأوعدوا، ولقد ألف للتعبئة فريقًا ضم أهل الرأي والنجدة والشعراء والخطباء فحدثوا الناس عن الإسلام الذي وحد العرب بعد التمزق والعداوات، وعن المهمة التي تنتظرهم بفتح فارس كما فتح إخوانهم الشام. وعن أن التنافس الحق والمشروع إنما يكون في الجهاد، وتحدث المؤرخون عن أن فريق التعبئة هذا كان يقرأ على الجند أفكارًا صاغوها وسموها «سورة الجهاد»! ففعلت فعلها في قلوب المقاتلين حتى زاد شوقهم للقاء الأعداء!.

***

واشتعل القتال بين الفريقين في معركة ندر أن سجل مثيلًا لها تاريخ العرب في الحروب والفتوحات ودام اشتعال القتل والقتال عدة أيام:

ففي اليوم الأول ـ ويسميه المؤرخون «يوم أرماث» ـ هيأ سعد بن أبي وقاص جنده للقتال، بعد صلاة الظهر بنداء (الله أكبر) كبّر أربع مرات، وهم يرددون بعده التكبير وفي كل مرة يرفعون من درجة استعدادهم للقتال لقد قال لهم: «إذا كبرت الرابعة شدوا النواجذ على الأضراس، واحملوا وازحفوا جميعًا حتى تخالطوا الأعداء» ففعلوا، وبدأت المبارزة بين أبطال الفرسان.

وفي هذا اليوم لقي المسلمون من الفرس مكائد لم يتعودوها في القتال، وواجهتهم أسلحة لم تواجههم من قبل؛ فالفرس قد زرعوا تحت أقدام خيل المسلمين المسامير! وربطوا خيلهم هم بعضها إلى بعض كي يمنعوها من الفرار! ثم دخلت الفيلة المعركة على كل فيل تابوت به عشرون رجلًا، والخيل إذا رأت الفيلة ـ وقد توحشت من منظر الميدان وجو الحرب ـ أحجمت ونفرت؛ مما أدى إلى تفرق كتائب العرب الفرسان، حتى كادت بعض القبائل العربية ـ مثل بجيلة ـ أن تفنى، لكن سعد بن أبي وقاص أسرع فأرسل من يتعلق بأذناب الفيلة، ويقطع أحزمة توابيتها، فسقطت التوابيت بمن فيها من الرجال، الأمر الذي أربك حركتها، وجعل يوم القتال الأول يمضي بخسارة في الصف العربي من الممكن تعويضها باستخلاص العبر والدروس!.

وحل الظلام، فتوقف القتال وكانت الليلة الأولى التي سماها المؤرخون (ليلة الهدأة) لهدوئها وخلوها من القتال!.

وفي اليوم الثاني ـ ويسميه المؤرخون (يوم أغواث) ـ بدأ القتال منذ الصباح وكانت معركة للفرسان دامت حتى منتصف الليل! وفي هذا اليوم دارت الدائرة على الفرس، فالفيلة لم تشارك في القتال؛ لأنهم كانوا لا يزالون يصلحون لها التوابيت التي حطمها العرب بالأمس، وأكثر من هذا فلقد ابتكر العرب سلاحًا يشبه الفيلة! وذلك عندما صنعوا «هوادج» حملوها على ظهور الإبل، وألبسوها كسوة مجللة مبرقعة، وحملوا على كل واحد منها عشرة رجال، وانطلقت هذه الإبل بين صفوف الخيل الفارسية، فكانت تنفر، وتحاول الهرب من السلاح، فتحدث في صفوف فرسان الفرس من الارتباك أعظم ما أحدثته بالأمس الفيلة في صفوف الفرسان المسلمين!.

ولم تكن ليلة ذلك اليوم هادئة كيوم أرماث، بل كانت حافلة بالقتال؛ ولذلك سماها المؤرخون «ليلة السواد»!. وكانت حصيلة (يوم أغواث): قتل جمهور كبير من أعلام المقاتلين والفرسان في الجيش الفارسي حتى لقد بلغ قتلاهم وجرحاهم فيه عشرة آلاف!.

وفي اليوم الثالث ـ ويسميه المؤرخون (يوم عماس) ـ استعد الفريقان للقتال، وكانت الأرض بين الصفين المتحفزين قد اصطبغت بالدم في مسافة بلغت الميل في الطول! وقال المؤرخون عن لونه إنه «كالرجلة الحمراء».

بدأ القتال وأبصر المسلمون مددًا يأتيهم من إخوانهم الذين انتصروا على الروم في الشام، وكان المدد يصل إلى أرض المعركة على دفعات مائة بعد مائة، فيشتد أزرهم، وتقوى عزيمتهم، وتزيد في النصر الآمال.

وكان الفرس قد أصلحوا توابيت الفيلة، وجاءوا بها إلى ساحة القتال، لكنهم أحاطوها بالحراس الذين يحرسون أحزمة توابيتها، ولقد أدى وجود هؤلاء الحراس حول الفيلة إلى شل غرائزها المتوحشة لحرمانها من الانفراد والانطلاق، فضعفت فاعليتها في إرباك فرسان المسلمين. وكان سعد بن أبي وقاص قد استعلم من الفرس الذي أسلموا وانضموا إلى الجيش العربي عن أنجح السبل في كسر شوكة الفيلة في القتال، فأخبروه أن مقاتل الفيلة في العيون والأشفار، فاختار من المقاتلين المهرة من اقتحم الميدان فطعن

الفيلين اللذين كانا يقودان باقي الفيلة في عيونهما وقطع مشافرهما، ففرّا مسرعين، واخترقا صفوف الفرس، ومن خلفهما كل الفيلة، فأحدثوا ارتباكًا شديدًا في صفوف الأعداء! ولم تتوقف هذه الفيلة الهاربة إلا في عاصمة الفرس: (المدائن)!.

وانتهى (يوم عماس) بتكافؤ الفريقين في نتائج القتال.

ثم كانت (ليلة الهرير) ـ وهي التي أعقبت (يوم عماس) ـ وفيها تصاعد القتال إلى ذروة لم يصل إليها من قبل حتى ليحكى المؤرخون أن صليل حديد آلات القتال وسيوفه قد حاكى صوت صناع الأدوات الحديدية (القيون ـ الحدادين) وقاتل الجيشان حتى الصباح واستغرق الجنود في القتال حتى لقد منعهم عن الكلام، وحل محل الكلام عندهم: الصوت الزاجر الذي يحاكي زئير الأسود والعرب تسميه (الهرير) ولذلك سموها (ليلة الهرير)!. ولقد بلغ تلاحم الجيشين في القتال إلى الحد الذي خفيت فيه معالم سير المعركة عن كل من رستم وسعد بن أبي وقاص حتى كان الصباح فعلم سعد أن كفة المسلمين كانت الأرجح على كفة الأعداء!.

وأخيرًا كان (يوم القادسية) ولم يفصل بين بدء القتال فيه وانتهائه في (ليلة الهرير) سوى ساعة، استراح فيها المقاتلون، وتهيئوا لاستئناف القتال! فلما كانت ساعة الظهر من هذا اليوم أصبح النصر في متناول العرب، فشقوا قلب الجيش الفارسي، ووصل فرسانهم إلى حيث خيمة القائد رستم، وكانت الريح العاصفة قد دخلت الحرب هي الأخرى، فهبت واقتلعت الخيمة!. وحاول رستم الفرار فألقى بنفسه في نهر العتيق، فطارده الفارس العربي هلال بن علفة، فأمسك به، وقتله ثم صعد على سريره الذهبي وصاح: قتلت رستم ورب الكعبة! فكبر المسلمون شكرًا لله وفرحًا بالنصر، وحملوا السرير وطافوا بفارسهم الذي قتل قائد الجيش الإمبراطوري، بينما كانت فلول الجيش الفارسي تعبر النهر هربًا، يقودها ملك من ملوكهم اسمه «الجالينوس» مخلفة وراءها عشرة آلاف قتيل جديد!.

وكان يوم القادسية هذا يوم الحسم في المواجهة التي دارت على تلك الأرض بين دولة إقطاعية ذات نظام طبقي ظالم وفكر مثقل بالكهنوت والاستغلال، وبين أمة شابة، خرجت جيوشها لتحرر

الأرض والإنسان، ولتجدد شباب الدنيا بعدالة الإسلام ومساواته وفكره الديني المتسامح والبسيط.

وبعد نصر القادسية هذا انفتحت أبواب فارس، مدينة بعد مدينة وحصنًا وراء حصن، أمام العرب: فتحوا (حلوان) و(المدائن) ـ عاصمة الفرس ـ ثم (جلولاء). وكلها مدن عربية، في العراق العربي. حرروها بعد أن ظلت في الأسر الفارسي عدة قرون!.

ولقد تغيرت بهذا النصر في القادسية ـ ومن قبله بنصر «اليرموك» في الشام ـ صورة الأمم ومراكز الشعوب في الشرق، فمن قبلهما كان العرب مستضعفين تفترسهم المخاطر والتحديات، وكانوا يقولون ـ كما يحكي المؤرخون ـ عن فارس: «فارس الأسد» وعن الروم: «الروم الأسد» أما بعد هذا النصر فلقد قالوا عن عرب ربيعة ـ الذين أبلوا في القادسية أحسن بلاء ـ: «ربيعة الأسد»؟! فحدث التحول في مكانة العرب في التاريخ، وأصبحت لهم القيادة في الشرق بدلًا من الفرس والروم!.

***

ولقد كانت ليوم القادسية صوره التي ذهبت نماذج في البطولة والفداء.

فالفارس العربي «أبو محجن الثقفي» كان معدودًا ومبرزًا بين الفرسان، ولكنه كان عاشقًا للخمر يشربها رغم تحريمها في الإسلام! ولقد نفاه عمر بن الخطاب من المدينة لشربه الخمر، ثم التحق بجيش القادسية كي يشارك في القتال، ولكنه عاد فشرب الخمر. هنا؛ غضب منه سعد بن أبي وقاص، وضربه، وحبسه في قصره ـ «قصر العذيب»، فلما اشتعل القتال وحميت المعركة أبصر أبو محجن ـ من محبسه ـ ما يلاقي المسلمون من تفوق الفرس في العدة والعتاد، فتاقت نفسه للجهاد، فتوسل إلى «زبراء» زوجة سعد بن أبي وقاص أن تطلق سراحه، وتعطيه فرس سعد كي يشارك في القتال، وأقسم لها أنه سيعود بعد أداء دوره كي يضع قدميه في الحديد من جديد!. واستجابت «زبراء» لطلبه، فاخترق أبو محجن صفوف الفرس، وقاتل قتال الأبطال، وحطم الفيل الأبيض الذي كان يقود الفيلة التي تحدث الارتباك في صفوف الفرسان المسلمين. ورآه سعد بن أبي وقاص من موقع قيادته، فتساءل حائرًا: من هذا الفارس؟ ثم قال: أما الفرس ففرسي، وأما الحملة فحملة أبي محجن؟!. وبعد المعركة وجد سعدًا

أبا محجن في محبسه وقيده، لكن زوجته قصت عليه القصة، فقال لأبي محجن: والله لا أضربنك في الخمر، بعد ما رأيت منك، أبدًا! فأجابه أبو محجن: وأنا ـ والله ـ لن أشربها أبدًا!.

وشهدت ساحة القتال كثيرًا من المقاتلين والفرسان يعرضون أنفسهم على الموت، ويلحون إلحاحًا شديدًا في طلب الشهادة، وهم في خلال ذلك ينجزون أخطر المهام ويصنعون في الحرب المعجزات! فأكثر من فارس قد اخترق صفوف الفرس وحواجزهم طالبًا خيمة القائد رستم كي يجهز عليه، و«علباء بن جحش العجلي» يتقدم كي يبارز بطلًا من أبطال الفرس، فيصيب كل منهما الآخر ويموت الفارسي من فوره؛ لأن الطعنة قد أصابت رئته على حين يظل «علباء» حيًّا، بعد أن فتحت بطنه وبرزت منها الأمعاء! ويجاهد البطل ليدخل أمعاءه إلى بطنه فلا يستطيع، فيستعين على ذلك بأحد المسلمين، ثم يمسك جلد بطنه بإحدى يديه، وسيفه بالأخرى، وبدلًا من أن يرجع إلى صفوف المسلمين يتقدم كي يقاتل الأعداء! ثم يموت وهو ينشد متحدثًا عن الطعنة التي يعاني منها:

أرجو بها من ربنا ثوابا قد كنت ممن أحسن الضِّرابا!.

والمؤذن.. يقف على مرتفع من الأرض ليؤذن لصلاة الظهر فتصيبه سهام الأعداء! لكن المسلمين بدلًا من أن يستخفوا بالآذان، يتسابق كل منهم يريد أن يصعد إلى المكان المرتفع كي يتحدى سهام الفرس ويؤذن للصلاة! حتى لقد أوشكوا ـ من التنافس على ذلك ـ أن يقتتلوا بالسيوف! ولم يجد سعد بن أبي وقاص غير «القرعة» سبيلًا يختار بها من بينهم من له شرف الأذان للصلاة تحت مرمى سهام الأعداء!.

والمرأة العربية: لقد كان لها في القادسية دور كبير؛ فسلمى بنت خصفة كانت زوجة للقائد المثنى بن حارثة الشيباني، فلما مات تزوجها سعد بن أبي وقاص فوقفت إلى جواره وهو يقود المعركة. وعندما رأت كفة الفرس قد رجحت ـ في بعض مراحل القتال ـ أخذت تستفز سعدًا، وتحرضه، بل وتتحدث عن شجاعة المثنى التي تفتقدها فيه!

وهذه المرأة العجوز من بني النخع، خرجت مع أبنائها الأربعة إلى ساحة القتال فحدثتهم عن إسلامهم الصادق، وهجرتهم المخلصة وقالت لهم: إنهم قد خرجوا للجهاد، ولم يخرجوا لجمع

المال كما يفعل الجياع، وإنهم بعد أن وضعوها ـ وهي العجوز ـ بين يدي أهل فارس، فلابد أن يقاتلوا قتال الأبطال الجديرين بأمومتها: «.. ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم! انطلقوا فاشهدوا القتال وشاركوا فيه من أوله حتى آخره..»!.. وعندما كان يغيب عنها أولادها لم تكن تجزع، وإنما كانت تتوجه إلى الله بالدعاء: «اللهم ادفع الخطر عن بني»! وكان الفرسان الأربعة يعودون إلى أمهم بنصيبهم من الغنائم فيلقونه في حجرها، فتقسمه بينهم على نحو يرضى عنه ويسعد به الجميع!.

وبين جولات القتال، وفي فترات الهدوء على ساحته كانت النساء العربيات ـ ومعهن الصبيان ـ يشدون الأحزمة على الثياب، وتحمل النساء الهراوات، ويحمل الصبيان أواني الجلد الصغيرة ـ (الأداوي) ـ المليئة بالمياه، ثم ينزلون جميعًا إلى ساحة المعركة. الصبية يسقون جرحى المسلمين، والنساء ينقلن هؤلاء الجرحى لتمريضهم ومداواة جراحهم ثم يجمعون جثث الشهداء ويحفرون لها القبور ويوارونها التراب.

وأخيرًا وصل البشير بأخبار نصر القادسية إلى عمر بن الخطاب فحمد الله على أن فتح العرب باب فارس المنيع الخصيب!.

ووصلت نفس الأخبار إلى يزدجرد بن شهريار، في «المدائن» فقرر الهرب، فدلوه من قصره سرًّا، في «زبيل» (قفة) حتى سماه الناس «برزبيلا»! فهرب ومعه أمواله وأهله وكبار رجالات دولته! ذلك أن فتح باب القادسية قد فتح أمام العرب كل الأبواب حتى لقد قال الفرس بعضهم لبعض عندما أبصروا خيل العرب تسبح الأنهار وتصعد الجبال: «والله ما تقاتلون إلا جنًا»! فانهزموا ـ بالرعب ـ بعد أن انهزموا بالقتال!.

وكان لابد أن ينهزموا بعد أن واجهوا في القادسية فرسانًا ومقاتلين أصبحت الشهادة عندهم أحب من الحياة، حتى لقد يلحون في السعي للاستشهاد، بل ويودون أن لو كانت لهم أجنحة الطيور لتسرع بهم إلى لقاء الأعداء:

تحن بباب القادسية ناقتي ... وسعد بن وقاص عليَّ أمير
تذكر ـ هداك الله ـ وقع سيوفنا ... بباب قُديْس والمَكَرُّ عسير
عشية ود القوم لو أن بعضهم ... يعار جناحي طائر فيطير!!

***

هكذا مثل ظهور الإسلام انبثاق نور جديد لعالم جديد. وهكذا مثلت الفتوحات الإسلامية التحرير للضمائر والأوطان؛ فانتقلت قيادة الحضارة في العالم ـ مرة أخرى ـ إلى الشرق، وازدهرت ـ في هذه الحضارة الإسلامية ـ التعددية والتنوع لكل الديانات والفلسفات والمذاهب واللغات.

وبعد القهر والموات الحضاري، مثَّل الشرق الإسلامي العالم الأول على ظهر هذا الكوكب لأكثر من عشرة قرون.

وحتى يحمل الشرق أمانة هذه الرسالة الحضارية وليستعيد هذه القيادة من جديد؛ يصدر هذا الكتاب ـ الذي يوثق لفتوحات التحرير التي تمت تحت راية الإسلام.

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم.
ـ كتب السنة النبوية.
ـ معاجم القرآن والسنة:
١ - (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) وضع: محمد فؤاد عبد الباقي. طبعة دار الشعب. القاهرة.
٢ـ (المفردات في غريب القرآن) للراغب الأصفهاني. طبعة دار التحرير. القاهرة.
٣ـ (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف) وضع: وينسنك (ازي) وآخرون ـ طبعة ليدن سنة ١٩٣٦ ـ سنة ١٩٦٩م.
ـ آدم متز: (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة. طبعة بيروت سنة ١٩٦٩م.
ـ ابن الأثير: (أسد الغابة في معرفة الصحابة) طبعة دار الشعب. القاهرة.
ـ ابن تغري بردي: (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) طبعة دار الكتب المصرية.
ـ ابن جلجل: (طبقات الأطباء والحكماء) تحقيق: فؤاد سيد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥.
ـ ابن سعد: (الطبقات الكبرى) طبعة دار التحرير. القاهرة.
ـ ابن عبد الحكم: (فتوح مصر وأخبارها) طبعة ليدن سنة ١٩٢٠.
ـ ابن كثير: (البداية والنهاية) طبعة القاهرة.
ـ آرنولد ـ سيرتوماس ـ: (الدعوة إلى الإسلام) ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠.
ـ أحمد عاشور، صبحي السيد عاشور: (الوطن الأم: دراسة في الثقافة القومية المصرية. تأسيس تاريخي) طبعة القاهرة ـ بدون ناشر ـ سنة ١٩٩٩م.
ـ د. أحمد عثمان: (مخطوطات نجع حمادي) ـ مجلة «الهلال» عدد يونيه سنة ١٩٩٥م.
ـ د. بتلر ـ الفرد ـ : (فتح العرب لمصر) تعريب: محمد فريد أبو حديد بك. طبعة مكتبة مدبولي ـ القاهرة سنة ١٤١٦هـ سنة ١٩٩٦م.
ـ البلاذري ـ أحمد بن يحيى بن جابر ـ: (كتاب فتوح البلدان) تحقيق: د. صلاح الدين المنجد. طبعة مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.
ـ م. بهاء علي قرنة: (دراسة مساحة الكنائس والأديرة) شبكة المعلومات العالمية.

- د. جاك تاجر: (أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م) طبعة الهيئات القبطية في المهجر - مدينة جيرسي - أمريكا - سنة ١٩٨٤م.
- د. جمال حمدان: (شخصية مصر) طبعة القاهرة.
- د. الحسيني أحمد عبد الله: (القانون والمجتمع في عصر الرومان) طبعة دار عين. القاهرة سنة ٢٠٠٠.
(الإدارة والقانون في مصر الرومانية) طبعة دار عين - القاهرة سنة ٢٠٠٢م.
- الرازي - فخر الدين -: (مفاتيح الغيب) طبعة بيروت سنة ١٤٢٥هـ سنة ٢٠٠٥م.
- الزركلي - خير الدين -: (الأعلام) طبعة بيروت.
- الزمخشري - جار الله -: (تفسير الكشاف) - طبعة طهران.
- د. سليم نجيب: (الأقباط عبر التاريخ) تقديم: مجدي خليل - طبعة دار الخيال - القاهرة سنة ٢٠٠١.
- سناء المصري: (هوامش الفتح العربي لمصر - حكايات الدخول) طبعة سينا للنشر - القاهرة سنة ١٩٩٦.
- د. صبري أبو الخير سليم: (تاريخ مصر في العصر البيزنطي) طبعة دار عين - القاهرة سنة ٢٠٠١م.
- الطبري - ابن جرير -: (تاريخ الرسل والملوك) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم . طبعة دار المعارف. القاهرة سنة ١٩٧٠م.
- الطهطاوي - رفاعة رافع -: (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م، وطبعة مكتبة الأسرة - القاهرة سنة ٢٠١٠م.
- د. عبد المجيد عابدين: (لمحات من الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربي وبعده) طبعة القاهرة. سنة ١٩٦٤.
- د. عبد المنعم أبو بكر: (أخناتون) طبعة القاهرة. سنة ١٩٦١.
- عبد الوهاب النجار: (قصص الأنبياء) طبعة بيروت.
- فؤاد أفرام البستاني: (دائرة المعارف) طبعة بيروت. سنة ١٩٥٦م.
- د. فؤاد حسنين علي: (التوراة الهيروغليفية) طبعة دار الكتاب العربي. القاهرة.
- فيليب فارج، يوسف كرباج: (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي) ترجمة: بشير السباعي. طبعة سينا للنشر. القاهرة. سنة ١٩٩٤.
- القرطبي: (الجامع لأحكام القرآن) طبعة دار الكتب المصرية.

ـ الكندي ـ عمر بن محمد بن يوسف: (فضائل مصر) تحقيق: د. إبراهيم العدوي، علي محمد عمر. طبعة مكتبة وهبة، دار الفكر. القاهرة. سنة ١٩٧١.
ـ الكندي ـ محمد بن يوسف ـ :(كتاب الولاة وكتاب القضاة) تحقيق: رفن كست. طبعة بيروت. سنة ١٩٠٨م.
ـ ليونارد كوتريل ـ مشرف ـ: (الموسوعة الأثرية العالمية) ترجمة: د. عبد القادر محمد، د. زكي إسكندر. طبعة القاهرة. سنة ١٩٨٧.
ـ د. محمد حميد الله ـ محقق ـ: (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) طبعة القاهرة. سنة ١٩٥٦م.
ـ محمد عبده ـ الأستاذ الإمام ـ: (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق ـ القاهرة. سنة ١٩٩٣.
ـ د. محمد عمارة: (القاموس الاقتصادي للحضارة الإسلامية) طبعة دار السلام. القاهرة. سنة ١٤٣٠ هـ سنة ٢٠٠٩م.
(الاستغلال الأمريكي للأقليات) طبعة مكتبة وهبة ـ القاهرة. سنة ٢٠١١م.
ـ محمد مختار باشا المصري: (التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت. سنة ١٩٨١م.
ـ المقريزي ـ تقي الدين ـ: (إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات بمصر) طبعة دار الوليد. بيروت. سنة ١٩٥٦م.
(الخطط) طبعة دار التحرير ـ القاهرة.
(اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا) تحقيق: د. محمد حلمي محمد. طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٦م.
ـ د. نعمات أحمد فؤاد: (الأهرام) عدد ٣٠ـ ١٠ـ ١٩٩٦م.
ـ وزارة الثقافة المصرية: (الموسوعة المصرية) ـ طبعة القاهرة.
ـ يعقوب نخلة روفيلة: (تاريخ الأمة القبطية) تقديم: د. جودت جبرة. طبعة مؤسسة مار مرقس لدراسة التاريخ ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة. سنة ٢٠٠٠م.
ـ يوحنا النقيوسي ـ الأسقف ـ: (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي ـ رؤية قبطية للفتح الإسلامي) ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة دار عين ـ القاهرة. سنة ٢٠٠٠م.